د. مي عبد الكريم محمود

تائهون في صحراء الإسلام

صورة الصحراء العربية في كتابات الرحالة والمستشرقين الفرنسيين

الأهالي

* تائهون في صحراء الإسلام
«صورة الصحراء العربية
في كتابات الرحالة والمستشرقين الفرنسيين»
* د. مي عبد الكريم محمود
* الطبعة الأولى ٢٠٠٣ م
* جميع الحقوق محفوظة للناشر ©
* **الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع**
سورية - دمشق - ص.ب: ٩٥٠٣ - هاتف: ٦٦٢٤٤٤٧
فاكس: ٦٦٦٧٥٤٩ - بريد الكتروني: odat-h@scs-net.org
* التوزيع في جميع أنحاء العالم:
* **الأهالي للتوزيع**
سورية - دمشق - ص.ب: ٩٢٢٣ - هاتف: ٢٢١٣٩٦٢
فاكس: ٦٦٦٧٥٤٩ - تلكس: ٤١٢٦١٦

* العمليات الفنية: مؤسسة سندباد

* موافقة رقم: ٧٣٩٤٢ - ٢٠٠٣/١/٢٨

د. مي عبد الكريم محمود

تائهـــون في صحراء الإسلام

صورة الصحراء العربية في كتابات الرحالة والمستشرقين الفرنسيين

الأهـــالي

مقدمة الكتاب

طبقا إلى أطروحة مارسيا إلياد تتجاذب الإنسانية منذ عصورها الأسطورية صورتان نمطيتان أصليتان، فهنالك خوفها من مغادرة مركز الكون حيث أنست العيش واطمأنت، ومن السقوط منه بتأثير قوى الظلام إلى الفضاء السديمي والجن والأموات، واستمد المرء فكرة أن يكون عالمه هو مركز الكون، من فكرة تقديسية وغير هندسية للكون (كوزموس) حيث تحيل نمطية المركز الأصلية إلى البعد الترانسدانتالي للإنسان (قبليته المتعالية) ومن كون هذا الإنسان يبحث دائماً عن الصعود إلى السماء انطلاقاً من مركز أو دعامة رئيسة، أو من سلم يمكنه من مخاطبة الآلهة، وما يحرك عاطفة الخوف هذه لدى المرء هو الآخر: (الفاتح/ الغازي/ العدو) الذي تتصل النعوت التي نكيلها له بصور السديم والظلمات، وبالقوى الشريرة التي تهدد الكون بالدمار، ليعود إلى طور الفضاء المترجرج الذي لا شكل له[1]، والعاطفة الأخرى هي عاطفة

١ ـ انظر: أسماء العريف بياتريكس (الآخر أو الجانب الملعون) ندوة (صورة الآخر ناظرا ومنظوراً إليه)، مركز دراسات الوحدة العربية، تحرير الطاهر لبيب، ٢٠٠٠، ص٩١.

قامت أسماء العريف بياتركس بمزاوجة بين أطروحة مارسيا إلياد التي تتلخص بأن الحنين إلى الفردوس هو استمرار للأصل الديني لفكرة الجنة في المجتمعات العلموية والوضعية، وبالتالي هي التي ألهمت مفهوم الرحيل إلى الشرق للبحث عنها، وبين أطروحة تييري هنتش في كتابه (الشرق الخيالي) بالتغير الحاسم في الثقافة الغربية في نبذ الجانب الملعون من الشرق في القرن التاسع عشر.

انجذاب إلى المكان الآخر، حيث سيتحقق للمرء حلمه باستعادة الفردوس المفقود.

في محاولة لها للبحث عن أصل ولادة علم الاستشراق في فرنسا تقول ماري لويز دفرنوا:

«منذ الأصول الأولى لأدبنا مارس الشرق المكتنف بالغموض، والمحاط بالجمال العصي على الوصف سحره على مخيلة الفرنسيين. وبقي مفهوم الشرق المجمّل بالأحلام المتبلورة حول الفردوس الأرضي، غامضا لأمد طويل فشجع على الإبداع الحر للصور الغرائبية والخلابة في نفوس الفنانين والروائيين: نبات وفير، وأشجار من أوراق ذهبية وفضية، فواكه عجيبة، ووفرة من الأحجار الثمينة، هذه هي الكنوز التي كان الشرق الأسطوري يخفيها في العصر الوسيط، وبدلاً من أن تعمل المراجع التوثيقية التي ظهرت فيما بعد على تصحيح وتوضيح هذه المفاهيم، قامت بتغذيتها وأجازت لها التطور»[٢].

إن الملامح الأساسية للقرن الثامن عشر الفرنسي هو اندفاعه إلى تجاوز موقف المثقف العصري أو أن ذاك، أي الموقف المصطنع الذي شوهه ماضي الحضارة الطويل، والخالي من التناغم الداخلي، وتوجه إلى الإنسان المثالي الذي تتحقق داخله الطبيعة الإنسانية تحققاً كاملاً ومنسجماً بلا فساد، ولا رتوش، ولا عيوب من أي نوع كان، هذا الإنسان الطبيعي رده روسو وبالاستعانة بفكرة مجردة إلى أصل البشرية وبنى سايكولوجيته بالاستعانة بمجهود خيالي، أنه مثال «المتوحش الطيب» كما وصفه في كتابه (مقالة في أصل اللامساواة بين البشر..)

2 - Marie - Louise Dufrenoy, L'Orient Romanesque en France, Editions Beauchemin, 1946, p 2.

في العام ١٧٥٤، هذا مثال المتوحش الطيب وضعه روسو في ماض وبقعة غير محددتين، فالوجود هو غزل بريء، والأرض الخصبة التي تغطيها الغابات الفسيحة هي جنة عدن، وقام أتباع روسو ومن تأثروا بهم فيما بعد، بإعطاء ملامح أكثر تعقيداً إلى رسمه، وتحمسوا للحضارات البدائية، ودعوا إلى تجديد الشعر واللغة عن طريق الطبيعة، والقيام بالرحلات إلى الشرق، واستكشاف الفضاء محاولين العثور على آثار الإنسان البدائي، واكتشاف الملاذ الذي يحمى الحياة من أهوال الطبيعة، فتمحور البحث الزمني والبحث الجغرافي حول آسيا، فكانت الفرضيات عديدة، والأفكار غامضة غير متماسكة، ولكن الخيال ربطها بالشرق.

وبحث الأدباء الرومانطيقيون في فرنسا عن موضعة المتوحش الطيب في بقاع بعيدة، مثلاً: في أميركا على غرار شاتوبريان، وفي جزر الأنتيل، وأفريقيا، وأخيراً في مناطق الشرق التي كانت تتم مراقبتها بنوع من الفنطازيا، وبولع متزايد بألوانها المحلية، لا سيما بعد أن تفوق المستشرق الكبير سلفستر دو ساسي على سالفيه الإنجليز والألمان: جونز، وأيخهورن، ورايسك، عندما وضع الأسس الصلبة للمعرفة العلمية عن العالم الشرقي، والمتوحش الطيب في مناطق الشرق هو البدوي، والجنة الأرضية هي الصحراء.

في الواقع أن ما كان يبحث عنه الرحالة منذ القرن السابع عشر في البلاد البعيدة هو: صورة الإنسان الأبدي، وجذوره، وصراعاته، والنتائج التي اكتسبها، والإمكانيات التي كانت بحوزته، والتي تسمح له ببلوغ حياة أجمل، وأفضل. ولهذا فقد كان جميع الكتّاب باختلاف قدراتهم، وسعة فضولهم، مولعين بالاطلاع على الدين، والتاريخ،

والقوانين، وكانوا يلاحظون نمط الحياة والتنظيم الاجتماعي والسياسي والاقتصادي للبلاد التي يزورونها، بهدف لم يكن معلناً عنه دائماً، وهو الإفادة من معارفهم وتطبيقها لخدمة أقوامهم[٣].

وهكذا كانت الرحلة إلى الشرق تتم طبقا إلى الرؤية الرومانطيقية، بعد أن دشنتها الكلاسيكية الغربية منذ قرن تقريباً، وقد استمدت الكلاسيكية مشروعها من الحاجة العملية لا التخيلية كما هي عليه الرومانطيقية ومن حاجة جماعة لا فردية، مثل الرحلات التبشيرية والإرساليات الدينية، وطواف الآباء الكبوشيين من أتباع الأب جوزيف في بيزنطة القديمة للدفاع عن المسائل العقائدية التي كانت تشغلهم، وكانت الإمبراطورية الإسلامية التي تمثلها الإمبراطورية العثمانية آن ذاك تقع جغرافيا فوق جغرافيا التراث المسيحي ـ البيزنطي، وكانت هناك الحكايات والقصص التي انبنت أصلاً على ديكور الشرق وعاداته وسلوكه، مثل الرسائل الفارسية لمونتسيكيو، ورواية صادق لفولتير، ورواية صفية لكريون، ومذكرات السراي لدوشامب، وحاجي بابا لمونتريون، ورقصة علي خان لمسترودولاتور، كما كانت هنالك على المستوى الدولي متطلبات الحياة السياسية والحربية في أوربا وذلك وهي المشكلة التي يطلق عليها تأريخيا = (التأريخ الأوربي ـ الغربي بطبيعة الأمر) بـ(المشكلة العثمانية)، وكانت هنالك أيضاً متطلبات التجارة في فترة صعود المد الرأسمالي والكولنيالي الغربي.

ومنذ ذلك الحين شهد الوعي الغربي ثورة شرقية في إطار ثقافته، هذه الثورة كانت منفلتة عن المعايير والأطر التي كانت الكلاسيكية

3 - Marie - Louise Dufrenoy, ibid p 26.

تضعها كشروط لازمة للفن، غير أنها كانت من جهة أخرى لا ضرورة ثقافية جمالية أو فنية حسب إنما سياسية واجتماعية أيضاً فرضتها العلاقات التي دشنتها فلسفة عصر الأنوار، ومتنورو القرن الثامن عشر بدءاً من مونتسيكيو حتى فولتير، واستمدت هذه الفلسفة التواقة إلى كل ما يمت بصلة للمعارف الانثروبولوجية والإثنوغرافية والطبيعية مصادرها من الرحلات إلى الشرق، إذ أنها عززت من خلال هذه الرحلات نظرياتها حول التعصب الديني، ونظريات الاستبداد السياسي، ومفاهيم العقلانية والتنوير واليوتوبيا، والمفاهيم التي كانت تطالب بها الأنتلجنسيا الغربية في إطار نشوئها الثقافي والسياسي والاجتماعي.

لقد استقرت الرحلة في القرن التاسع عشر حول الصحراء وما يتاخمها من المدن العربية الكبرى مثل: استنبول، القاهرة، بغداد، دمشق، القدس... الخ، فقد كان أكثر الرحالة في القرون السالفة للقرن التاسع عشر يطوفون مع القوافل التي تجوب الصحارى العربية دون دليل أو نقطة محددة يرومون الوصول إليها، إنما الصدفة هي التي تقودهم في تتبع طرق مختلفة، ومسارب متنوعة من المجاهل الشرقية، وهنالك العديد من القصص والحكايات والمذكرات التي تدور عن الرحالة الذين يضلّون الطريق أو الذين يضيعون في الصحارى والجبال، وهذا هو ما يجعل الرحالة مكتشفا لمجاهل عديدة، لو لا الصدفة ما كان له الحصول عليها، إنه نوع من الاكتشاف العلمي الذي يقع على الخط النقيض من الرحلة الأدبية الرومانطيقية رحلات لامارتين، وشاتوبريان، وبيير لوتي، وفوربان، وفوغويه، وفلوبير، ودو غاسباران، ذلك لأن الأدباء الرومانطيقيين في القرن التاسع عشر كانوا يزورون المناطق ذاتها،

والأماكن ذاتها، فتوفرت لدينا مجموعة هائلة من الملاحظات المختلفة عن الصحراء والبدوي وحياة البادية التي تخص رحالة مختلفين، لكنها تدور في أماكن واحدة وتنهل من مراجع واحدة.

ومن المثير هنالك دليل مرسوم بشكل دقيق كان يتقيد به الرحالة في القرن التاسع عشر دون استثناء، يطلق عليه دليل جوان[٤] وهنالك أدلاء سوريون ومصريون مختصون بالصحراء وخبراء عارفون بطرق الحج، ووكلاء رسميون يقودون الرحالة عبر الصحراء من سيناء إلى البتراء أو إلى الجزيرة العربية، وهو الخط ذاته الذي يرتاده جميع الرحالة في زيارتهم للشرق، وربما يقع المزار المسيحي أو حج الأماكن المقدسة في المقدمة، ولكن لا بد من المرور بالصحراء، وعند منتصف القرن التاسع عشر قدمت رحلة فلوبير وماكسيم دوكومب على العكس من ذلك إنموذجا للمسار التالي: مصر ـ فلسطين ـ لبنان ـ آسيا الوسطى ـ استنبول ـ أثينا اليونان ـ إنه المسار الدائري الذي ابتدعه شاتوبريان والذي استعاده بلا انقطاع الرحالة الذين جاءوا بعده مع بعض التنويعات[٥].

٤ ـ يتضمن هذا الدليل مساراً واحداً ويقترح تقويما مناسباً هو (البقاء شتاء في مصر، قضاء عيد الفصح في القدس، التحرك نحو أريحا والبحر والميت شرق الأردن، ثم العودة إلى القدس والذهاب إلى سوريا في الصيف ثم العودة إلى مصر). انظر: Jean-Claud Berchet, op. cit., p 13.

٥ ـ لقد بين حسن النوتي أهمية رحلات الأدباء الفرنسيين إلى الشرق، وبين الطابع الرومانطيقي للرحلات الفرنسية على خلاف الرحلات العلمية ذات الطابع التجريبي، وقد اعتمد ادوارد سعيد اعتماداً كاملاً في كتاب الاستشراق على حسن النوتي في تحليله للفصلات الأدبية والاستيهامية في عمل الأدباء الرحالة، وللتوسع في هذا الأمر انظر:
Hassan al-Nouty, Le Proche-Orient dans la litterature francaise de Nerval a Barres, Paris: Nizet 1958 p 166 - 234.

في الواقع أن شاتوبريان نقل نموذج الرحلة من واقع إلى واقع آخر، فقد كانت الرحلات فيما مضى تحاول رفع قيمها من خلال البحث عن جذورها البدائية في المناطق البكر من العالم، وذلك من خلال العودة إلى الماضي والنظر إلى الحاضر بوصفه سقطة، وهكذا فقد كان البحث من قبل كل الأوربيين لا عن الإنسان بذاته إنما عن الفردوس، وهذا الإحياء للفكر القروسطي ظل مستمرا عند الرحالة الرومانطيقيين في القرن التاسع عشر، ولكن الاختلاف هو أن شاتوبريان دفع الرحالة نحو جغرافيا التوراة وذلك في كتابه (رحلة من باريس إلى القدس) وقد سار على هذا المسار الذي خطه شاتوبريان أكثر الرحالة الذين جاءوا من بعده، وكان الهاجس هو فرض الحدود القومية على الأراضي المجهولة، وكان هذا الأمر يحرك شاتوبريان كما كان يحرك لامارتين أيضاً، فقد أثار شاتوبريان المجد في نفسه وذلك بفرض أسماء فرنسية على مناطق مجهولة، ومنح فرنسا مستعمرات على المحيط الهادي[٦]، وكان يأسف على تخلي فرنسا عن المستعمرات وراء البحار، مقتصراً على ملاحظة: أن امتلاكها كان في مصلحة فرنسا، وقد علق تودوروف ـ عن حق، في هذه النقطة بالذات ـ أن شاتوبريان لم يتساءل إطلاقاً .عما إذا كان ذلك في مصلحة الشعوب التي تسكنها أم لا، لكن فرنسا نسبة إلى شاتوبريان هي الأمة الأذكى والأنبل والأكثر تألقاً على سطح الأرض[٧] وهذا ما جعل تودوروف في كتابه (نحن والآخرون) يصف رحلة شاتوبريان بأنها نوع من التركيز على الإثنية العادية إجمالاً.

يشير شاتوبريان في كتابه الشهداء إلى رحلته من باريس إلى القدس

6 - Chataubriand, Mémoires, seuil, Paris, 1965, P 22.

7 - Ibid P 222.

على أنها غوص في التاريخ على عكس الرحلة إلى الغرب المكرسة للطبيعة، وفى رحلته نقرأ هذه الخلاصة:

«وباختصار فإن كل شيء ينم لدى العربي عن الإنسان المتحضر، العائد للسقوط إلى حالة التوحش»[٨]. فقد وضع نفسه في موضع الحكم، ومنح نفسه الحق بإصدار الحكم الفرنسي الأوربي الذي يجسد الحضارة الحالية على الحضارات الأخرى، أما الحالة الأخطر بالنسبة له فهي حالة الأتراك، وهم يحملون على ما يبدو سمتين، الأولى تثير كراهية شاتوبريان، والأخرى تثير احتقاره:

«إنهم يمضون أيامهم بالبطش بالناس أو بالاستراحة على سجادة بين النسوة والعطور»[٩].

إن السبب العميق الذي ولد لديه هذه الكراهية للأتراك هو الدين الذي يسود هذا الجزء من العالم، أي بمنى آخر «الإسلام»:

«الذي لا يحث المؤمنين على دفع الحضارة نحو الأمام، ولا يعلمهم أن يعنوا بالحرية، وهو في هذا أقل مستوى من المذهب المسيحي»[١٠].

إن المسيحية هي ما جعل شاتوبريان يميل بصور مفرطة إلى مماهاتها بالتقدمية والفردية الحديثتين، ولذا فإن حرب المسيحيين ضد الإسلام - الحروب الصليبية - كانت مبررة في نظره. وعندما حرص شاتوبريان على تقديم صورة متحيزة ضد الإسلام، فقد غفل بديهياً فصولاً من تاريخ المسيحية، وأهمل الإشارة إلى أن في عصره كان الرق مشروعا في

8 - Itinraire de Paris a Jérusaleme. Chataubriand, Gallimard, Paris, 1969 , PP 265.

9 - Ibid P. 175.

10 - Ibid P. 176.

كل البلدان المسيحية تقريبياً بما، في ذلك الأراضي الفرنسية[١١].

ولم يرغب شاتوبريان بتعلم التركية كما جاء في نصيحة قدمها له أحد الأتراك الذين صادفهم، مما كان سيساعده على إرضاء فضوله بالمعرفة:

«هذه النصائح التي كنت اعترف بصحتها بعمق كانت تضايقني» ولم يكن شاتوبريان الوحيد من بين الرحالة الذين صبوا فضولهم على الأشياء وحدها وليس إلى الكائنات الحية، يذكر البروفسور عبد الغني بركة من بين مآخذه على المستشرقين جهلهم للغة البلد الذي يخضعونه للبحث وبأنهم:

«أقاموا حاجزاً حقيقياً بين الشعوب الغربية والفهم الحقيقي للإسلام، ولأن القارئ الأوربي كان غير قادر على النفوذ إلى اللغة العربية، لذا فإنه لم يستطع لسوء الحظ معرفة الإسلام إلا بالرجوع إلى كتابات المستشرقين»[١٢].

وقد كانوا كما رأينا مع شاتوبريان يمتنعون عن تعلم لغة ما يدرسونه، فالدراية بلغة مجتمع الدراسة تفيد بالرجوع إلى تراثها، واستقصاء المعرفة من أصولها، ومن داخل المجتمع، وبهذا يأتي تفسير الوقائع تفسيراً باطنياً، أي من الداخل، تفسيراً يستند إلى ثقافة أخرى، وهي ثقافة الباحث، فقد كان شاتوبريان يفضل أن يرى، على أن يستمع إلى أناس وقحين مثل الأتراك، فما هو مهم لديه: هي المواقع التي تذكر، وتوحي بالماضي،

١١ - تزفيتان تودروف، نحن والآخرون، ترجمة د.ربى حمود، دار المدى، الطبعة الأولى، دمشق، ١٩٩٨، ص ٣٣٧.

١٢ - انظر: «على الحوار أن يستمر» لقاء مع البروفسور الشيخ عبد الغني بركة نشر في صحيفة الشرق الأوسط - لندن - في تاريخ ٣٠ آب ١٩٩٤.

ويبذل جهدا لتذكر مقاطع من الإنجيل لها صلة بنهر الأردن، وعند خروجه إلى شوارع القدس لا يرى مدينة حية، بل موقع سرد تأريخي، ومصر ليست سوى ماض، إنها مهد العلوم وأم الأديان، وهذا هو القصد الصريح لشاتوبريان:

«يطيب لنا أن نميز بين هذه العادات، آثاراً وأعراف الأيام الماضية، وأن نستعيد ذكريات إبراهيم ويعقوب في ذرية إسماعيل»[١٣].

لقد صبغت عنصرية شاتوبريان ونظرته المتعالية جميع أعماله التي عالجت التماس الحضاري والديني، ووُصفت رحلته بالرحلة المسارية وباختلافها عن رحلات لامارتين، ونرفال، وفلوبير، ووُصف هو بعوليس الجديد، ويعبر شاتوبريان عن منهجه في كتابة رحلته، المؤلفة من مئات الصفحات، بقوله:

«أنا أتحدث على نحو أبدي عن ذاتي».

حتى أن الكثير من معاصريه انتقدوه لأنانيته المفرطة وعرقيته.

لم تحظ إيطاليا المحطة الأولى في رحلته إلا بعدد من السطور عن الرسامين البنادقة. أما اليونان فقد خصص لها جميع الجزء الأول من رحلته، وكانت أوان ذاك، ومنذ عصر النهضة، تحت الهيمنة العثمانية، وتشكل جزءا من الفضاء الشرقي عند مطلع القرن التاسع عشر، وقد تزامن وجوده هناك مع ظهور أولى علامات التمرد في الأعوام ١٧٨٠، في زمن الحرب الروسية التركية، وهيمنت المقارنة بين اليونانيين الحديثين وأسلافهم على الرحلة، وقد حمل الجزء الأخير من زيارة شاتوبريان عنوان (رحلة إلى تونس وعودة إلى فرنسا) ويشتمل على محطتين لم

13 - Chateaubriamd, Itineraire, Ibid, p. 372.

تعودا تذكرا في المسار النمطي للرحلات، في العهد الرومانطيقي. وقد أتاحت أطلال قرطاجة لشاتوبريان أن يستحضر ذكرى القديس لويس الداعية الصليبي الكبير الذي كاد مؤلف الرحلة أن يتشخّصن به.

إذ عزز موت لويس التاسع، المحاط بجيشه الذي كان يحارب الموريسكيين، في التاريخ تناقضاً دينياً وأخلاقياً وثقافياً، وقام شاتوبريان على تصويره بالتناقض المطلق، فهو الذي قال بخصوص الصليبيين:

«المراد هو معرفة من كان ينبغي عليه الفوز على هذه الأرض، فإما عقيدة مناهضة للحضارة، ومؤيدة لنظامها في تأييد الجهل والاستبداد والعبودية، وإما عقيدة أحيت لدى الشعوب الحديثة عبقرية مذهب العصر القديم وألغت العبودية»[١٤].

أما عبور إسبانيا الذي قام به الرحالة عند مجيئه من تونس، فقد أُختزل في صفحتين. حيث كان شاتوبريان متعجلاً في لقائه لناتالي دونواي في غرناطة، وكانت له أولويات أخرى غير التأمل ووصف صروح الأندلس، وهكذا فقد انتهى من جولة واسعة في المتوسط، أنجزها بأقل من عام، وأشّرتْ أعمال العديد من رحالة القرن التاسع عشر ومن جاءوا من بعدهم. إنها سفرة مثالية رسمت مساراً دائرياً، وكانت تعيد دائماً الرحالة إلى نقطة انطلاقه، وتسمح له بالعودة إلى أصول الثقافة الغربية، والاحتفاء بقيمها، وتضع الآخر على هامش التاريخ.

ففي الرحلة الوهمية كما في الرحلة الحقيقية، كان الآخر هو ذلك الشخص الذي كان الحلم به أو تخيله سابقين على اكتشافه، فلم يتم إدراك الواقع إدراكاً مباشراً، إنما لا يكون هذا الإدراك إلا بواسطة الصور

14 - Ibid p. 307.

التي تحملها الثقافة والنتاجات الأدبية المتنوعة، عن البلد موضع الرحلة، كما ينبغي أن لا يغيب عن بالنا أن أدب الرحلات لم يكن آثاراً منعزلة عن الآثار الأخرى التي يكتبها أصحابها، فهذه الرحلات كانت في الواقع مناسبة، سيما لدى الأدباء الكبار، من أمثال: شاتوبريان، وفلوبير، ونرفال، الذين استمدوا منها مادة خصبة لكتابة العديد من مؤلفاتهم الخيالية، فمؤلف الشهداء في العام ١٨٠٩ لشاتوبريان، هو نقل المشاهد الشرقية التي وصفها مباشرة في مؤلفه رحلة من باريس إلى القدس في العام ١٨١١، وفي مؤلفه آخر ملوك بني سراج، إذ يقابل بين العالم الإسلامي وبين العالم المسيحي، يصرح بانطباعاته عن إسبانيا، وعن مشاهد الحضارة المورسكية لم يتم التطرق إليها في مؤلف الشهداء، وبالتالي فإن انطباعات كاتب الرحلة وآرائه وتوصيفاته لم تبق حبيسة للكتاب الذي يحمل اسم الرحلة، بل انتقلت وتغلغلت في الأعمال الفنية التي هي من غير جنس الرحلة، وأتيح لها بالتالي الانتشار عبر الأنواع الأخرى من الخطابات، سواء أكانت خطابات الكاتب أم خطابات أولئك الذين اقتبسوا منه أو الذين تأثروا بخطابه.

O O O

١) لامارتين أو الباحثون عن الشمس

لم تظهر في الأدب الفرنسي عبارة الرحلة إلى الشرق إلا في العام ١٨٣٥، على يد لامارتين في كتابه «ذكريات وانطباعات وأفكار ومشاهد مقدمة من خلال رحلة إلى الشرق» وفي التنويه الذي وضعه لامارتين لطبعة كتابه الجديدة في العام ١٩١٠ يقول عن شاتوبريان بأنه ذهب إلى القدس بصفته حاجاً، وفارساً، حاملاً بيده الإنجيل والتوراة والحروب الصليبية ـ أما عن نفسه فيقول بأنه ذهب هناك بصفته شاعراً، وفيلسوفاً، ويشرح دوافعه الوجدانية في القيام بهذه الرحلة:

«لقد كنت ومنذ سن الثامنة أتحرق شوقاً لأمضي لزيارة هذه الجبال التي نزل الرب عليها، وهذه الفلاة التي أتت الملائكة إليها لتري لهاجر الينبوع الخفي الذي أنعش طفلها المسكين المنبوذ، الذي يموت عطشاً، هذه الأنهار التي كانت تخرج من فردوس الأرض، وهذه السماء حيث كان المرء يرى نزول الملائكة وصعودها على سلم يعقوب، ولم تنطفئ هذه الرغبة داخلي أبداً حيث بقيت أحلم من ذاك برحلة إلى الشرق، تكون بمثابة العمل العظيم لحياتي الداخلية»[١٥].

لم يأت لامارتين إلى الشرق لغرض إجراء مقاربة بين ما كان سيراه على الأرض، مع ما انطبع في ذهنه من قراءات مسبقة عن الشرق فقط، بل كانت له طموحات وأغراض بعيدة أخرى، فهناك في الشرق ضياء

15 - Lamartine, voyage en Orient, Paris, Librairie Hachette 1910. pp 7

آخر غير ضياء الحقيقة، ضياء يستعيد كل يوم ألقاً جديداً دون أن يفقد شيئاً من قوته، وقد كتب لامارتين يقول:

«أن جسدي على غرار روحي هو ابن للشمس، يلزمه الضياء، يلزمه هذا الشعاع للحياة»(١٦).

ويعلق برشيه على هذا قائلاً:

«في المتروبولات الكبيرة المغشية بالحزن الأسود بجميع أشكاله، كالفحم، والدخان، والسخام، والطين، ولد هذا الاستيهام بالشمس، وهذه الرغبة الجديدة في الارتواء المحسوس، إنه كذلك، الرغبة في التجدد البايولوجي والانبعاث الجسدي، وهما من دفع الرحالة في القرن التاسع عشر إلى ارض المعجزات. وتطلعهم المتعاظم إلى نشوة تخضع باضطراد إلى رقابة الحضارة التي ينتمون إليها»(١٧).

وعلاوة على هذه الطموحات الوجدانية والدينية كانت للامارتين مواقف سياسية فهو من قال:

«عار على من يغني، بينما روما تحترق».

ونحن نعرف عنه محاولاته العديدة في ممارسة العمل السياسي، إذ نشر كراسا حول السياسة العقلانية إلى جانب تطلعاته في أن يصبح واحداً من رجالات الدولة. ففي العام ١٨٣٢ ترك لامارتين مدينة ماكون ليذهب إلى مارسيليا وبدأ بالتحضير لرحلته إلى الشرق. إن الإقامة التي أمضاها في الشرق حولت مجرى الحياة التي عاشها فيما بعد، ليس بسبب تبعاتها المالية الوخيمة، بل بسبب خلاصاتها السياسية،

16 - Ibid p. 14.

17 - Le voyage en Orient , Jean-Claud Berchet, Robert Laffont, Paris, 1985, P 14.

فقد حصل عند عودته على مقعد في البرلمان، وتعزز إيمانه بمهمته الروحانية والاجتماعية، وفضلا عن مشاطرته للسانسيمونيين مذهبهم الاشتراكي صار للامارتين مواقف سياسية محددة، فقد أصبح في السنوات التالية، الداعية للسياسة المساندة للموارنة، وإلى فرض السيادة الفرنسية على سوريا لإعاقة الطموحات الإنجليزية هناك. وتفصح السطور العديدة من رحلته بوضوح عما كان يمثله الشرق له، إذ كان الشرق بالنسبة له (مستعمرة محتملة للغربيين):

«كم من المواضع اخترت هناك في مخيلتي لأشيد عليها منزلاً، أو قلعة زراعية، وأسست عليها مستعمرة مع بعض الأصدقاء في أوربا، وبضعة مئات من هؤلاء الشبان المحرومين من كل مستقبل، والذين تمتلئ بهم أرضنا! إن جمال الأماكن وجمال السماء وخصوبة الأرض المعطاء هناك، والقرب من البحر الذي يسهل تصدير المنتجات، والأمان الذي بالإمكان الحصول عليه بيسر، أزاء عرب نهر الأردن، وذلك بتشييد حصون قليلة عند منافذ هذه الروابي، كل هذه الأمور جعلتني أختار هذا الجزء من سوريا لأقوم بالمشروع الزراعي والحضاري الذي أوقفته منذ زمن»(١٨).

وتنقلنا هذه الملاحظات مباشرة إلى خطاب هيبوليت دوفيلنيف، الذي سماه تييري هنتش: بـ (نذير الحرب في الأكاديمية الملكية للعلوم والفنون في مارسيليا) إذ وجه كلامه إلى الشرق:

«استقبلت في الماضي أبناءنا المحاربين، وفي الأمس القريب طبع الرجل العظيم الذي هز العالم على جبينك ببصمته الدامغة، وتعرفت

18 - Ibid p. 281.

على الأكثر شهرة من بين كتابنا، وها أنت اليوم تستقبل الشاعر الأكثر شهرة وشعبية من بين شعرائنا، ونحن إنما تركناك تملي النظر في كل رجالنا العظام وذلك لأننا أردنا تحقيق حربنا الصليبية الجديدة»[١٩].

ويقصد بأبنائنا المحاربين هم الصليبيون، والرجل الذي هز العالم هو نابليون، والأكثر شهرة بين الكتاب هو شاتوبريان، والشاعر الأكثر شهرة وشعبية هو لامارتين، وقد استقبلهم الشرق على التوالي.

○ ○ ○

١٩ - انظر: Thierry Hentch, L'Orient imaginaire, Minuit, p. 137

٢) وظيفة المؤلف في خطاب الرحلة

يميز أدوارد سعيد بين ثلاث فئات من الرحالة، على خلفية نوعين من الكتابات، النوع الأول: هو ذو طابع استشراقي ومهني وعلمي، ونوع آخر من الكتابات المبنية على التجربة المعاشة، والشهادات الشخصية التي تبقى منتمية إلى الأدب دون أن تصبح من العلم، فهناك أولاً: فئة من الكتاب الذين يستخدمون إقامتهم لتحقيق مهمة خاصة، هي إمداد الاستشراق المتخصص بالمادة العلمية، ويعدون إقامتهم شكلاً من أشكال المراقبة العلمية، وفئة ثانية من الكتاب الذين لهم القصد ذاته، بيد أنهم أقل ميلاً للتضحية بأصالة وأسلوب وعيهم الفردي من أجل تعريفات إستشراقية محايدة، وتتجلى هذه التعريفات في آثارهم فعلياً، بيد أنها لا تنفصل إلا بصعوبة عن نزواتهم الأسلوبية الشخصية، وهناك ثالثا فئة الكتاب الذين تصبح الرحلة إلى الشرق، حقيقة كانت أم إستعارية، بالنسبة لهم، تحقيقاً لمشروع ملح وعزيز على قلوبهم، ولذا فإن نصوصهم تبنى على جمالية شخصية يغذيها مشروعهم الخاص ويخطط لها.

ويضيف أدوارد سعيد إلى أن هناك حيزاً أكبر لدى الفئة الثانية والثالثة مخصصاً للوعي الشخصي، أو على الأقل الوعي غير الإستشراقي، ويمثل الفئة الأولى في أدب الرحلة، الإنجليزي أدورد وليم لين، الذي كانت أعماله مخصصة لتوسيع المنظمة الاستشراقية

الأكاديمية، يقابله سلفستر دو ساسي، وفولني[٢٠] لدى الفرنسيين، ويمثل الفئة الثانية، ريتشارد برتون الإنجليزي، وشاتوبريان، ولامارتين، ورينان الفرنسيين، ويمثل الفئة الثالثة، نرفال وفلوبير، مشيراً إلى المكان النسبي داخل النص لحضور المؤلف في كل فئة من هذه الفئات، واستنادا إلى هذا التقسيم، يكون الاختلاف بين فلوبير ونرفال من جهة، وفولني من جهة أخرى[٢١]، هو أن وظيفة المؤلف في أعمال الأول والثاني وظيفة محسوسة قوية، بينما هي أقل قوة في أعمال فولني، وهي في أعمال سلفستر دوساسي تنصاع إلى أفكار أصحاب المهنة الاستشراقية، وتتقوى بها وبمؤسساتها التي أقرتها، أما أعمال الفئة الثانية والثالثة فإنها تبحث عن واقع غرائبي، بل وإغوائي، وتتماهى وظيفة المؤلف لدى الفئة الثانية مع التأويلات السياسية، ثم تعود لتسترسل في التأملات الذاتية الأنانية المتعالية، إلا أن أدوارد سعيد يصحح تقسيماته هذه، بأنه بالرغم من الاختلاف القائم بين هذه الفئات فهي لا تتميز الواحدة عن الأخرى بالقدر الذي يمكن أن نعتقده، كما أن كل فئة لا تملك نصوصاً تمثلها تمثيلاً صرفاً أو بحتاً، فضلاً عن أن الآثار المنتمية للفئات الثلاث تستند إلى السلطات الأنانية البحتة للوعي الأوربي الذي هو بمثابة المركز لها[٢٢].

٢٠ ـ لقد مهدت رحلة الكونت فولني الرحلة إلى مصر وسوريا بمجلدين في العام ١٧٨٧ إلى حملة نابليون على مصر بشكل مباشر، وقد أشار نابليون إلى هذه الرحلة الأدبية في مذكرات الحملة التي أملاها على الجنرال برتران في جزيرة القديسة هيلانة.

21 - Napoleon, Campagne d'Egypte et de Syrie, 1788 - 1799, Memoires pour servir a l'histoire de Napoleon, Paris, 1843, p. 211.

22 - L'Orientalisme, Edward Said, seuil, paris, 1997 pp. 183 - 184.

ويضع سعيد مقابل الفئة الثانية التي تضم شاتوبريان ولامارتين، ومواقفهما الأنانية وطموحاتهما السياسية القومية، فلوبير ونرفال اللذين اتخذ الشرق لديهما أسمى أشكاله الأدبية، فشرقهما هو شرق الذكريات، والأطلال الإيحائية، والأسرار المنسية، والمراسلات الخفية، وقد كان مؤلفات هذين الأديين متجذرة بقوة في بعد خيالي غير قابل على التحقق إلا جمالياً، إذ أن حضور وجهات نظرهما الجمالية والشخصية في كتاباتهما هو أكبر مما هو لدى أي رحالة آخر في القرن التاسع عشر.

O O O

٣) السمات التمييزية لخطاب الرحلة

أن ما يميز جميع الرحلات هو خضوعها إلى الطابع المفكك في الكتابة، فقد حاولت الحفاظ على الطابع المعاش للرحلة، والإيهام بالصدق الواقعي، ويظهر البعد السيروي من خلال تفككها، وفوريتها، ومباشرتها، فقد كان الرحالة يحرص على تقديم المادة الكتابية دون عناية، لكي يستطيع الحصول على أكبر قدر ممكن من إيهام القارئ، وإقناعه بأن ما كتبه كان مرتجلاً، حتى أصبح الكاتب يكتب من خياله أكثر مما كان يشاهده حقيقة، وقد اكتشف الجيل التالي هذه الخدعة الرومانطيقية، بعد أن توافدوا إلى الشرق، وعرفوا مقدار الوهم الكبير الذي صنعه الكتاب في الشرق، وهم من أطلق عليهم بيير لوتي بـ(المبرؤون من السحر)، وقد نقل برشيه عن موريس بارس الملاحظة التالية:

«بعد ثلاثين ساعة قضيناها في البحر، وصلنا بيروت هذا الصباح، لم يكن هناك سوى الضباب السميك الكوني المثقل بالمطر، لم يكن هناك أي لبنان! كان ينبغي البحث على اليمين، على اليسار، أو فوق رؤوسنا».

تصوروا خيبة الأمل التي أصابتني عندما وجدت ستارة مسدلة على أول عجيبة واجهتني في رحلتي، وخيبتي أمام ما يذكره الرقم الأول في كراسي المثالي والذي يحمل عنوان «منظر لبنان من

البحر، كما يصفه لامارتي»[٢٣].

في الواقع أن خيبة الأمل هذه التي شعر بها أغلب الرحالة، هي بسبب المبالغات التي حملها تصوير الشرق من الجيل الأول إلى الجيل الثاني، ويقصد بيير لوتي بكتابه الذي أطلق عليه «المبرءون من السحر» انقشاع الوهم عند أول رحلة للشرق، نسبة إلى الجيل الذي تلا شاتوبريان ولامارتين. في الواقع، تشترك جميع الرحلات بذلك الميل المضطرد لمعالجة الواقع الشرقي بوصفه لوحة شعبية من الدرجة الثانية، أن تعبير بارس عن لامارتين وعن هذا الشعور بانقشاع الوهم الذي يتحدث عنه بيير لوتي، طالما كتب عنه الرومانطيقيون، وسنجد ما يماثله لدى أغلب الرحالة الذين حملوا تصوراتهم من أوربا عن الشرق، ووجدوا صورا مناقضة لها بالكامل، بل إن ما قاله شاتوبريان عن الرسامين، يشبه ما قاله بارس عن لامارتين، ويشبه ما قاله نرفال إلى تيوفيل غوتييه:

«آه يا صديق، كم رأينا نحن الاثنان خرافة الرجل الذي يجري وراء الثروة وهو على سريره» ثم يسترسل في سرد شفائه من الوهم:

«فأنت ما زلت تعتقد بطائر أبي منجل، وزهرة اللوتس الحمراء القانية، والنيل الأصفر، وتؤمن بنخلة الزمرد، والصبار الهندي، والجمل وحيد السنام... ولكن للأسف فطائر أبي منجل هو طير بري، والنخلة بهيئة منفضة الريش الهزيلة، والصبار الهندي ليس سوى صبار بري، ولا يوجد بعير إلا وهو في هيئة وحيد السنام، والعالمات هن أشبه بالذكور، أما ما يخص النساء الحقيقيات، فأنت سعيد لأنك لم تلتق بهن...».

وبعد ذلك يقول نرفال إلى تيوفيل غوتييه:

23 - Jean Claude Berchet, op. cit., P. 21.

«أه كم جميلة القاهرة... ولكن من باريس...»[٢٤].

وهذا ما جعل البير بيغان في تقديمه لرحلات نرفال، يعترف بأن محور هذه الأعمال كان سمات أسطورته الشخصية، ويضيف بأن الجزء الثاني من الرحلة كان يمكن أن يصدر عن تلك المجموعة أيضاً. لقد قام نرفال في غضون أزمته الصحية الأولى بين العامين (١٨٤١ - ١٨٤٩) أي في فترة النقاهة بعدد من الرحلات، وقد اعتاد على سرد رحلاته بأسلوب لا يملكه أحد سواه، مازجاً الملاحظات الدقيقة مع الأساطير المستقاة مما كان يصادفه من أحلام يقظته، واستطاعت «ألمانيا» مثلها مثل «الشرق» أن توجه روحه أكثر من أي وقت مضى نحو التقاليد الخفية، والصور الغريبة، والمغامرات غير المرئية، فقد كان الفضول يقوده إلى المكتبات، ويعبر به البلدان القريبة والبعيدة، ذلك لأنه لم يكن يبحث هناك إلا عن نفسه، وعن سر مصيره، وعن الصور التي شكلت أسطورته، شيئاً فشيئاً[٢٥].

أما فلوبير فهو يغادر بناء على نصيحة من أطبائه في العام ١٨٤٩ إلى الشرق، ويذهب بصحبة مكسيم دوكامب، فزار آسيا الصغرى، وتركيا، واليونان، وسوريا، والأردن، ولبنان وفلسطين، ومصر، ثم عاد عن طريق إيطاليا جامعاً ذخيرة من الصور، والذكريات.

عبر قراءة متأملة لمجمل أعماله من رسائل وملاحظات ومذكرات، يلاحظ أدوارد سعيد، أن البعد الشعري لدى فلوبير يعود بالأصل إلى بحثه الدؤوب في «الشرق» و«الجنوب» عن خيال رؤيوي، وهذا يعني

٢٤ - انظر: Gerard de Nerval, Oeuvres, Tome II, Voyage en Orient, Pleiade, Paris, 1956, p. 327.

25 - Ibid, p. 2.

عن ألوان زاهية تتعارض مع رمادية مشهد الأقاليم الفرنسية، ويعني أيضاً البحث عن مشهد خلاب بدلا من الروتين الفظ، واللغز الأبدي بدلاً عن الموضع المألوف جداً[٢٦].

ويذكر ماكسيم دوكومب في مذكراته الأشياء ذاتها عن صديقه فلوبير ذلك أنه كان مفتونا منذ زمن بعيد بالسراب الشرقي، ولم يجد حقا في الوقائع على الأرض ما يرضي حلمه الذي بقي حلماً أدبياً[٢٧]. وفي خضم انشغال «فلوبير» بما يطلق عليه: «التعبير عن الأشياء» كما هي فقد حكم على نفسه بمسير لا ينتهي، وقد راكم الوثائق والتحقيقات المفصلة، بيد أنه شعر بأن كوم الوثائق المبعثر، والتي وصفها علمياً لم يكن كافيا، لذا فإن الوصف الذي طغى على ميدانه الرومانطيقي هو: «رؤية أكثر مما هي صورة فوتوغرافية». وفي العام ١٨٤٠ كان هناك جيل بأكمله عاش مع «فلوبير» الحلم الغرائبي، ولم يكف «فلوبير» عن الحلم به حتى حققه[٢٨].

يشير «أدورد سعيد» إلى أن الرحالة قد تأثروا على مر العصور بكتابات من جاءوا قبلهم، فقد أخذ جميع الرحالة إلى الشرق بالاعتبار أعمال «شاتوبريان» و«لين» حتى وصل الأمر بهم إلى نسخ أعمالهما

26 - Edward Said, Ibid, P. 213

27 - L'xotisme dans la litterature francaise depuis Chataubriand, Pierre, Jourda, Presses universiaires de france, 1956, p. 35

٢٨ - فقد حرر فلوبير وهو طالب في الإعدادية حكاية كورسيكية، سان بيترو أورنانو وحكاية إيطالية الطاعون في فلورنسا ثم قرر أن يكتب رواية شرقية فتحقق له ذلك في ما بعد عند عودته من رحلته الشرقية وقد امتلأت عيناه بصور أفادته بكتابة سلامبو هيروديا والنسخة الثالثة ممن إغواء القديس سان انطوان.

كلمة كلمة، فقد تأثر «فلوبير» بـ «لين» وكذلك فعل «نرفال الذي استعمل نصوصاً وتوصيفات للين دون الإشارة إلى مصادرها اعتقاداً منه بأنها أكثر أصولية من غيرها»[٢٩].

إذ أن شرعية المعرفة التي انطوى عليها الاستشراق خلال القرن التاسع عشر، لم تأت من قبل السلطة الدينية كما هو الحال قبل عصر الأنوار، بل مما يمكن تسميته بـ«الاستشهاد الترميمي للحجة السابقة» إنه عمل رجل العلم على غرار سلفستر دو ساسي، الذي يتصفح مجموعة من المقطعات ويقوم بنشرها بعد أن ينظمها على طريقة مرمم الرسوم القديمة، وهكذا فإن المستشرقين يتناولون مؤلفات زملائهم المستشرقين ويستشهدون بها، ويقتبسون منها طبقا إلى هذه الطريقة، فرحلة نرفال - في سبيل المثال - تقتفي آثار رحلة لامارتين، وهذا الأخير سار على آثار شاتوبريان، وكان الشرق عند كل واحد من هؤلاء، هو إعادة تقديم للمادة الأصولية، المسيرة بالإرادة الجمالية، والفاعلة، القادرة على تحريك الاهتمام لدى القارئ[٣٠].

هذا فضلاً عما تم استبناؤه على هذه الرحلات الفعلية من رحلات سميت: بالرحلات الفكرية أو (الوهمية) أحياناً، وقد استخدمت الرحلات الفعلية مصدراً لها، وشرعت تبني على خلفيتها ما شاء لها من رحلات غير حقيقية. ثمة شرقان في واقع الأمر: شرق علمي يزوره الرحالة فعلياً، وشرق مفبرك صنعه الأدب، ولم تنفع الوثائق العلمية في تصحيحه. فقد كان الشرق على الدوام موضوعة للتفكير، ولم يتم العيش فيه مباشرة، فهو (الجاوور) عند «بايرون»، و«الديوان الشرقي

29 - Edward said, Ibid p. 208

30 - Ibid p. 205 - 294

لمؤلف الغربي» عند «غوته» و«المشرقيات» عند «فيكتور هيغو» وهو ما أطلق عليه بظاهرة «الاغتراب الروحي»[٣١] وخير من تجلت عنده هذه الظاهرة، هم أصحاب التيار الرومانطيقي في مستهل القرن التاسع عشر، ومن ثم انتقلت إلى أصحاب الفن الموسيقيين والمصورين، وكان الشرق القريب منه والبعيد مرتعا لأرواحهم وخيالهم اللذين هاجرا إليه.

O O O

٣١ - (ونعني به هذه الحالة الوجدانية العنيفة القوية التي يشعر الأديب أو صاحب الفن بحاجة ملحة إلى البيئة التي يعيش فيها، إلى بيئة أخرى جديدة وجو مغاير مخالف، فيه ما يحيا ما فيهما من حياة ويحس فيهما من مشاعر وأحاسيس، ولكن هذا الإحساس وتلك الحياة ليسا حقيقيين وإنما متخيلان، فهو يحلق بروحه من البيئة الجديدة محاولاً أن يحيل نفسه إلى طبيعتها، وأن يتلاءم وإياها، ويتكيف مع أحوالها وأطوارها، لأن في هذه الحياة الجديدة إما متعة له تزيد من قوة حياته الروحية وتوسع من دائرة أفقه، أو سلوة له عن البيئة الأولى التي لم يعد له قبلا لاحتمالها، ولكي يجد فيها هذه السلوة وتلك المتعة كان لا بد له أن يطلق في خياله العنان ليصور بريشته هذه البيئة الجديدة أحسن تصوير وأروعه، حتى لتكاد تخلق من جديد خلقا، ومن هنا فإن هذه البيئة تختار غالباً من بين البيئات المجهولة بعض الجهل، لأن الخيال لا يستطيع أن يبذل نشاطه بحرية وانطلاق إلا إذا اسشتغل في مجهول) عبد الرحمن بدوي، الديوان الشرقي للمؤلف الغربي مقدمة الكتاب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٠، ص١.

٤) المشرقيات أو محطات الرحلة الوهمية

«نراه عند النيل ثانية
تتوهج مصر بلهيب فجره
ويبزغ صولجانه الإمبراطوري في الشرق
منتصراً، متحمساً، ومتفجراً بالإنجازات،
إنه ابن المعجزة الذي أذهل أرض المعجزات»
فكتور هيغو[٣٢]

بهذا المستهل يختصر «فيكتور هيغو» الشرق برمته، إنه نابليون المعجزة، وقد توهج، وبزغ صولجانه الإمبراطوري في الشرق منتصراً، متحمساً، متفجراً بالإنجازات، وإن هذه الإنجازات هي حملة نابليون على مصر، وبعيدا عن تقدير آثار الحملة والجدال السائد إلى اليوم في الثقافة العربية فيما إذا كانت هذه المدافع قد أيقظت الشرق، أم إنها حملة استعمارية أحطت من الروح الشرقية وهدمتها[٣٣] فإن ما يهمنا هو الكيفية التي استطاع بها «فيكتور هيغو» أن يقتبس من مادة «الرحلة إلى الشرق» التي كانت رائجة آنذاك ديوانه الشعري الشهير (المشرقيات)

32 - Victor Hugo, les orientales, Oeuvres Poetiques, P. 684

٣٣ ـ حول هذا الجدال انظر: تأريخ الفكر المصري الحديث، د. لويس عوض، دار الهلال، الطبعة االثالثة ١٩٦٩.

وأن يساهم في نقل صورة الشرق في إطار استعاري ووهمي. يدشن فيكتور هيغو في هذا الديوان رحلة وهمية إلى الشرق، يستعير فيها مفهوم (المسار) من رحلة شاتوبريان من باريس إلى القدس، ويؤشر المسار ديوانه بوضوح شديد، بالرغم من الهيئة المتنافرة لهذا الديوان، وهناك ما يقارب الأربعين قصيدة تغطي إحالاتها الجغرافية جزءاً مهماً من الإمبراطورية العثمانية، وابتداء من (نار السماء) حتى (بونابردي) القصيدة ما قبل الأخيرة من المشرقيات التي تنتهي بعودة إلى الضباب الباريسي في (نوفمبر) يتم القارئ رحلة دائرية من مصر الإنجيلية إلى مصر الحديثة، وتحيل المجموعة التركية في هذا الديوان إلى: «قسطنطينية العثمانية» التي تظهر عادة باسم «استنبول» أي الجزء الذي يشغله المسلمون من هذه المدينة، حيث يقع (السراي) مقابل (بيرا) حي المسيحيين، والسفارات الأجنبية، وينطبق الأمر ذاته على قصيدة (وجع الباشا) و(السلطانة المحظية)، ومع قصيدة (وداع المضيفة العربية) فإننا ننتقل مباشرة إلى الجزيرة العربية التي تذكره باليمن السعيد، أما قصيدة (لعنة) فهي الصحراء طبقاً إلى صورة إنجيلية طالما حركها حجاج الأراضي المقدسة، بوصفها أرض المعاناة، وموضع المنفى، ثم تأتي مجموعة من ثلاث قصائد خالية من أية إحالة جغرافية محددة، حيث يغوص القارئ مباشرة في (شرق إستيهامي) بحت، وجذاب، ومقلق في آن معاً، ثم يأتي دور إسبانيا في قصيدة (مورسكية) ثم يأخذنا هذا المسار الوهمي إلى الحدود الغربية من تركيا، ليقدم (هيغو) تنويعاً للمسار التقليدي للرحلة للشرق، فنصل إلى «بولونيا» و«أوكرانيا» (مازيبا) ثم نسير مع «الدانوب» الغاضب إلى «بلغراد» و«سملن» وعند مقارنتنا لجغرافية (المشرقيات) مع جغرافية (رحلة من باريس إلى القدس) نلاحظ

أن «هيغو» لم يكتف بنسخ مراحل رحلته الوهمية على مراحل رحلة «شاتوبريان» بل أدرج فيها تغيرات السياق السياسي التاريخي وتحولاته، ولا سيما فيما يتعلق بالأحداث في اليونان، أن «هيغو» الذي يستعيد على المستوى الجغرافي ما شكل المركز في سرد «شاتوبريان» شدد على الهوامش الشرقية التي تجاهلها هذا الأخير، وهكذا فإن الأشعار من (٢٩ ـ ٣٢) تشكل حلقة جعلت من «إسبانيا» عنصراً مكوناً للشرق:

«ولذا فإن الشرق لدى هيغو كان أكثر طموحا من طموح الرحالة والرسامين الذي رحلوا إلى الشرق وهو دون أن يعبر المتوسط، كان بلا ريب أحد الكتاب الرومانطيقيين الذين شعروا بأن الغيرية الشرقية كانت جزءاً مكوناً للذات الغربية»[٣٤].

إن الصورة التي يمنحها لنا «هيغو» عن الشرق الذي لم تسنح له الفرصة بزيارته، واعتمد في تكوينها على قراءاته لرحلات من قاموا بالزيارة فعلا، مثل «شاتوبريان» وغيره، لم يكفها ما نالته من نجاح وانتشار ما زال صداه حتى اليوم، فما أن يذكر «هيغو» حتى تذكر معه صور (مشرقياته) بل أن ديوانه هذا قد غذى أعمال رسامين كبار أمثال: «ديلاكروا» إذ أن صورة (الشرق) لم يتوقف بناؤها على إسهامات الرحالة وزياراتهم إلى المنطقة، وبالنصوص التي خرجوا بها، بل قدمت المادة لإعمالهم الرئيسة كما رأينا مع شاتوبريان وفلوبير ونرفال وعشرات غيرهم، واستمر ترميمها وإعادة تقديمها على يد من كتبوا رحلات وهمية مستوحاة من أعمال الرحالة الفعليين، ومن ثم ظهر لنا تمثيل للشرق في الأعمال الفنية الأخرى من رسم ونحت وفنطازيات شرقية

34 - Gographie des Orientales, sarga Moussa, Maisonneue et Larose, Paris, 2001, p. 34

ليكتمل وبإحكام نسيج الخطاب الغربي عن الشرق، فبإمكان شخصية ماموش لموليير، أن تتعرف على مشابهاتها أو مثيلاتها في لوحات «رامبرانت وبوشيه وفان لو وفراغونار ولانكرييه وبقي معلمو الرقص المولعون بالحريم والمحظيات والأجواء الغربية غزيري الإنتاج»[٣٥].

كما هو الحال مع العديد من الرسامين من أمثال ديلاكروا الذي رسم لوحات من وحي قراءات حماسية له أشرت سلفا مساره المستقبلي، وظهرت له بين الأعوام ١٨١٣ ـ ١٨٢٣ وهي «الجاوور» و«خطيبة أبيدوس» و«القرصان» و«لارار» من وحي قراءاته لبايرون والمسيحيات الأثنتي عشرة من دولا فين، والأناشيد البطولية للجبليين، والبحارة الإغريق، من «لو مرسييه» و«المشرقيات» لفكتور هيغو و«الرحلة من باريس إلى القدس» و«آخر ملوك بني سراج» لشاتوبريان ومع لوحتي ديلاكروا الأرموزيتين: «اليونان على خرائب ميسولونغي» ومن ثم «موت سنحاريب» أصبح الشرق الاستيهامي والمنحط والشبق والمهدد كلي الحضور في وحي الرسام ديلاكروا، وبلغت لوحة سنحاريب الذروة في سباق ديلاكروا المحموم داخل الشرق الرومانطيقي، وقد استوحى ديلاكروا هذه اللوحة من تراجيديا لبايرون نشرها في العام ١٨٢١، وتجاوزت بأبعادها البطولية ـ كما يقول النقاد ـ وبنائها الجريء وتوزيع ألوانها الجسورة، حيث يهيمن الأحمر والأصفر والبني الرواية المصنوعة من الضجة وعنف الكلمات في شرق مأساوي ومترف.

«لا أحب الرسم المتعقل على الإطلاق» هذا ما يقوله ديلاكروا عن مذابح سيوة التي رسمها في العام ١٨٢٤، فعن هذه اللوحة يقول

35 - De l'Orient reve a l'orient vecu, Maurice Arma, dans La revue de, Kantara, No. 130 oct. nov 1994.

موريس آرما: «لقد ثبت ديلاكروا أنماط النظرة الأوربية إلى الشرق، النظرة الكاشفة عن العواطف الداخلية والمتطلعة إلى شرق محلوم، معظم، ومقزز، غاو، ومهدم (بكسر الدال)»[٣٦] كل هذا لأن ديلاكروا لم يعرف الشرق، وكان سجينا لصور صنعها لنفسه، بيد أن ديلاكروا وبعد وصوله إلى المغرب عام ١٨٣٢ اكتشف هناك حقيقته كرسام «ولكن كم من الرسامين والأدباء من بعد ديلاكروا من خلف الستارة الشرقية عشا لهم؟ فمن ذاك الحين غذت الأساطير الغرائبية، والثنيات المكشكشة الحجة التي سمحت بوصم الآخر بالعار»[٣٧].

○○○

36 - Ibid p. 43

37 - Ibid p. 44

٥) دور الليالي العربية في رسم صورة الشرق

تجلى الشرق أمام الفرنسيين بأشكال عديدة، إنه حديقة زكية في تقليد الدين القروسطي، وعالم إسلامي عدائي أثناء الحروب الصليبية، وبلد العجائب والسحر في كتاب ماركو بولو، وبقي مغشيا بضبابية البعد في عيون أدباء عصر النهضة، الذين اقتصر اهتمامهم باليونان معقل الثقافة القديمة، ثم انتعشت الذائقة إلى الشرق في منتصف القرن السابع عشر، ومن المراجع المهمة التي كان لها دور في تقديم صورة الشرق في ذلك القرن، وهي المكتبة الشرقية لهيربيلو الذي أشرك معه انطوان غالان في العمل على هذا المعجم وإصداره في العام ١٦٩٧، وهو بمثابة الشهادة على ما كانت عليه المعارف الشرقية في فرنسا آنذاك، كما أن المجالات الواسعة التي يغطيها المعجم كفيلة بإبراز أهمية الكتابات التوثيقية التي جمعها الباحثون في عصر لويس الرابع عشر، فضلاً عن إشراك غالان في إعداد المكتبة الشرقية فإن دوره الأعظم يتجلى بترجمته المهمة لألف ليلة وليلة، أو ما يسمى بالليالي العربية. فلم يكن بمقدور الفرنسيين في القرن السابع عشر إدراك الاختلاف بين الأعراق، معتقدين بأنهم يمثلون معيار الكائن البشري بكل خياراته، وقد كتبت دفرنوا بأن الفرنسيين كانوا يجهلون مناخ الأوطان الغريبة، لأن الملامح الأساسية للكائنات التي تشكلها كانت عصية عليهم، ولكي يكون بإمكان الرواية الشرقية أن تتطور، استلزم الأمر أن يدخل إلى نزاع الأقدمين مع المحدثين مفهوم نسبية الأذواق وشرعية وجود أجناس التعبير المختلفة، وكان من

الضروري على الأخص تقديم الإنموذج وهذا ما حدث عندما جعل غالان الشرق يتألق في حالته النقية في ترجمته لألف ليلة وليلة[٣٨].

إن صورة الشرق في القرن التاسع عشر هي حصيلة لما رشح من القرن الماضي من خطابات وإنشاءات أدبية، كان من أهمها ترجمة ألف ليلة وليلة من قبل أنطوان غالان[٣٩]، التي وصفت بأنها قد دشنت العصر الشرقي في ذلك الحين، أن هذه الترجمة على الرغم من تصرف غالان بها، وطبيعة ترجمته الناقصة لها، فإن مجموع الحكايات التي ظهرت بريشة/ غالان بين العام ١٧٠٤ ـ ١٧١٧ قد مارست سحراً كبيراً على الفرنسيين، وأثرت في تطور الغرائبية الشرقية في الأدب السردي، إذ كانت نقطة الانطلاق لصرعة وتيار أدبين، وقد نفثت نفساً عميقاً في الأدب السردي في القرن الثامن عشر، وأسهم إلهامها بقوة في تجديد السرد، وتدشين موضة الحكاية الشرقية[٤٠].

لقد أسهمت ترجمة الليالي في ترسيخ الملامح الرئيسة لهذه الصورة، فهي تحيل إلى عالم عاش كل تناقضاته في المغالاة، والإفراط في كل لحظة، ولم تلهه حكمته عن البحث عن المتعة، كما أن المصادر الشرقية التي كانت تحت تصرف الكتاب قد تضاعف عددها على نحو مدهش ويذكر كاركاسون ـ وهو ناشر رسائل فارسية في تقديمه لها ـ بأن

38 - Dufrenoy, Ibid p. 27

٣٩ ـ في إحدى ملاحظاته المؤرخة في العام ١٨٢٢ يقول لنا شارل نوديه بأن غالان قام برحلته الثالثة في العام ١٦٧٩ على نفقة شركة الهند الشرقية، وكان لديه غرض واحد هو البحث واقتناء الحاجيات اللازمة لتجميل حجرة كولبير ومكتبه، وقد علق هنتش على هذا الأمر بأنه علامة من علامات النهب التي كانت تحدث في ذلك الوقت انظر: Hentsch, P. 145.

40 - Ibid p. 30

ترجمة دورير للقرآن قد ظهرت في العام ١٦٨٧، وانطلاقاً من العام ١٧٠٧ بدأت ترجمة ألف ليلة وليلة لغالان بالكشف عن ثراء الفانتازيا العربية، ويمدنا كاركاسون بقائمة المصادر التي استمد منها مونتسيكيو على سبيل المثال مراجعه في كتابة رسائله الهجائية، وهي: القرآن الكريم، ترجمات ريكو، وهيربر، وأولريوس، ورحلات الفرنسيين أمثال: تفنو، وترنفور وتافرنيه، وشاردان، وكلها مصادر ساعدته في دعم فلسفته حول الاستبداد الشرقي.

لقد قدمت الليالي إلى الغرب صوراً في غاية التنوع، أفادته في تطور الجنس الروائي بتأسيس صورة نمطية عن الشرق وذلك عبر عالم السراي، والحريم، ومكائد النساء والجواري، والاستعباد، والغيرة، والزنا، والمآثر البطولية، والخمرة، والخيانة الزوجية، والحيوانات الخرافية، والنباتات العجيبة، والأسرار المفشية، والشكوك، والمدن الغرائبية، والرسائل السحرية، والأحلام النبوئية، واللقاءات المفاجئة، والتحولات والمسوخ.

وقدمت هذه الصور مراجع غذت الكثير من الوسائل الفنية، والرحلات الوهمية، والرسائل الهجائية، والحكايات الخرافية، والكتابات الرمزية التي كون مجموعها الخطابات الأدبية والرومانطيقية آنذاك، ومع ولادة الرومانطيقية مع بداية القرن التاسع عشر ازداد عدد الرحلات التي استسلمت للتقليد ذاته كي يقودها، وجعلت من المقولات الوصفية السابقة دليلاً لها، ولم تنجح في رؤية الآخر إلا عبر الخطاب السابق، فالشرق لدى شاتوبريان هو مكان للحج، وخريطة للجغرافية التوراتية، وهي أماكن يزورها، وفضاءات يطوف فيها، وشعب دوني مستعبد محتاج إلى الحرية، وإلى من يغزوه، ويخلصه من عبوديته. وهو لدى لامارتين أمم بلا أرض، ولا وطن، ولا حقوق، ولا قوانين، ولا أمن، وهم

بحاجة إلى الاحتلال الأوربي الذي بمقدوره توفير كل هذه الأمور لهم. ونسبة إلى نرفال شعب ميت، مات الإنسان على هذه الأرض، وطارت الآلهة. ونسبة لغوتييه فرصة لتناول الحشيش.

إن من يقرأ الرحلات الأدبية لشرقنا العربي الإسلامي، والتي يطلق عليها الأوربيون (رحلة إلى الشرق Voyage en Orient) يدرك بأننا لسنا سوى صور شوهتها الأحكام المسبقة، ومن أبرز ملامحها الاختزال، فبعد ما كان الشرق مرادفا للمحمدية والتعصب الديني توارى خلف فكرة الاستبداد بمفهومه الاجتماعي والسياسي، وهي من أكثر الصفات التصاقاً به، والتي ترفق عادة بالصفة العربية الإسلامية عندما يتعلق الأمر بالشرق العربي، وهى الفكرة المتمثلة في سيادة الفكر الواحد، وغياب القوانين، والعبودية المترعرعة بين أواسط شعب فاسد، عصي على التقدم، وقد ولدت مع ترجمة الليالي العربية، وشاع استعمالها مع الرسائل الفارسية، وروح القوانين لمونسكيو الذي جمع وبنى وشرح بعد أن رتب وضبط القطع المتناثرة للاستبداد المبعثر في صلات الرحلات، وفي المؤلفات التي ظهرت حول الشرق خلال القرن الذي سبقه[٤١].

إن الشرق هو مرتع الكسل، ومحطة للاستجمام، وقضاء العطلة نسبة لبيير لوتي، إنه بلد المتع الجسدية البدائية المتوافقة مع الكون، فقد كتب كاستيلان يقول:

«يقون حيث هم أياما كاملة جالسين وسيقانهم متقاطعة»[٤٢].

إنه شرق يتحدث عنه الرحالة كي يحيلوا إلى صمت واقعه الحي

41 - Hentsch, Ibid, p. 157

42 - A.-L. Castillan, Lettres sur la More et Constantinople, Nepveu, Paris, 1820

المعاصر، فهو بالنسبة إلى الكونت دوفوغوية شرق ساكن يديم الماضي. أما السمة الأخرى اللصيقة بالشرق فهي الجنسانية المباحة، إنه شرق جسدي لدى فلوبير الذي يرى في المرأة الشرقية موضوعاً للأحلام، ورمزاً محيراً للإخصاب، وشبقاً لا يكل، ورغبة غير محدودة، وطاقات مولدة عميقة. إنه شرق خائر واهن مستعد دوما لتلقي المبادرة من الغرب، شرق أنثوي ينتظر الرجل الغربي ليخصبه، وقد صرح أنفونتان بلا توجس:

«السويس هو مركز حياتنا العملية، وهناك نقوم بالعمل الذي ينتظره العالم بأسره كي نعلن بأننا ذكور»[٤٣].

إنه الشرق، مكان للذي يبحث فيه عن التجربة الجنسية غير القابلة على الحصول في أوربا، عن جنسانية من نوع آخر، ومنفلتة على نحو أكبر من الخطيئة، وهكذا تم تهميش الشرق، وصار ينظر إليه بوصفه فضاء مغلقاً منطوياً على نفسه، منهكاً من انتظاره السلبي، ويقول أو شبيه (في رسالة لم تكن مخصصة للنشر في ١٨ شباط ١٨٣٤):

«أينبغي أن نترك أحد أجمل البلدان على وجه الأرض بين أياد عاجزة.. في حين أننا لدينا أناس أذكياء وشجعان، يطلبون عبثاً أراض يزرعونها، وهناك أمة غير مبالية وغير مسؤولة تدوس على كنوز ينبغي أن تعود على من يعرف استثمارها»[٤٤].

إن هذا الكم من الصور التي نسجت خطابات الرحالة، وأسهمت في تنميط الصورة عن الآخر في الشرق، وأعطت المسوغ لاحتلاله،

43 - Berchet hbhd, P. 20

44 - Ibid p. 20

تندرج ضمن خطاب متعالق في شبكة من العلاقات الخطابية، تشكل مفهوم الكاتب وتحدد روايته، فمن العسير على كاتب الرحلة مهما كانت حياديته وموضوعيته أن ينفلت من هذا النسيج أو الشبكة الخطابية التي شكلت الثقافة الغربية، وقد قامت هذه الرحلات في إطار هذه الذاكرة الجماعية أو النسيج الخطابي لتنظر إلى الشرق بصورة مختلطة ومشوشة مرة، ومرتبة ومعقلنة مرة أخرى، وقد اختلط شرق الغرابة مع البربرية، وشرق الغرائبية مع الاستبداد، وأمام أية مطالبة وأية مواجهة يتوجسون من استيقاظ الإسلام وانبثاقه في الخيال الجماعي الغربي بوصفه متمردا وعدوا ومخالفا للوضع القائم، وربما حدد ذلك كلير بريير وأولفييه كاريه[٤٥] في كتابهما «الإسلام حرب على الغرب» ومن العام ١٩٨٣، وذلك بتحذيرهما من خطر المهاجرين على أوربا، وقد حركت عودة النشاط الإسلامي الخيال الغربي مرة أخرى، وذلك باستعادة الصورة النمطية عن الإسلام بوصفه تهديداً أو حرباً على الغرب، كي يقبل الغربي بالتالي معادلة أن الإرهاب يساوي الإسلام.

إن هذه الصورة المعادية للإسلام مرت في الواقع بمراحل عديدة حتى وصلت إلينا بهذه الصورة، أما الصورة البدئية فهي الصورة التي التقطتها الرحلات الأدبية إلى الشرق قبل أن تتحول هذه المنظومة الأدبية إلى واقع سياسي عملي، وقد كتب تيري هنتش:

«مع القرن التاسع عشر بعد الانتشاء العالمي للمجتمع الصناعي الذي تعزز بالضمانة الفلسفية الهيجلية للتأريخ ومع الحنين إلى الشرق الذي أشاعه مفهوم الإنتاجية بوصفه الدواء الناجح من خلال الفن والأدب

45 - Claire Briere et Olivier Carré, Islam, guerre a l'Occident, Paris, Autrement, 1983

ومع الكولنيالية الإمبريالية فإن جميع دلائل الشرق والتي مازلت حتى يومنا ترصع المخيال الجماعي الغربي، وقد تم إنتاجها وكيفما وجدت هذه الصورة المتعارضة مختلطة ومشوشة أو على العكس مرتبة ومعقلنة فإنها ما تزال تعيش فينا»[٤٦].

إن المسألة الهامة في هذا الأمر هو أن عالمنا العربي الإسلامي تم تحويله إلى إنتاج أدبي وثقافي، وتم تداوله وإعادة إنتاجه داخل الثقافة الغربية، وتحول هذا الإنتاج الأدبي إلى معرفة خبرية تشكل نوعاً من السلطة والقوة مع المادة المدروسة، وقد قدمت هذه المعرفة الممثلة عبر الرحلات صورة نمطية ثابتة داخل الثقافة، بل وتعدت الثقافة الأدبية وتحولت إلى نظام إحالي في المدونة السياسية، وبالتالي تشكلت المنظومة السياسية ذاتها وتحليلاتها الاجتماعية طبقا إلى الصورة المقدمة عبر الرحلة بوصفها سلطة شرعية، وإن الرحالة هو شاهد عدل يعاين ويفحص ويقدم الوثيقة، وحتى الوثيقة المتخيلة فإنها تؤدي دور الشاهد، ومن هنا تأتي خطورة الرحلة الأدبية، فالرحالة سارد يتسم سرده أحياناً بالعفوية والسطحية والتحيز، وهذا هو شكل من أشكال ردة الفعل الدفاعي من الثقافات أزاء غيرها، ورغم أن خطابه مصاغ ضمن إطار خطاب ثقافي آخر، مع ذلك فإن المادة التي يقدمها لها القدرة على صياغة أحكام وقرارات داخل الثقافة الغربية.

وفضلا عن أن أدب الرحلات يتبع في غالب الأمر وعلى نحو جدي طابع العلاقات السياسية بين الثقافات المختلفة، فأن الرحالة يتبع توجهه الأيديولوجي والديني ودوره ومهمته في الرحلة، وعلى هذا الأساس

46 - Hentsch, Ibid, p. 163

الطابع البلاغي والتخيلي في عملية النقل تأثيراً كبيراً، كما أننا لا يمكننا أن نفصل الرحلات عن طابع العلاقات المتأزمة، وتأثير المماحكات الدينية، وسياسة التبشير الديني، ونجد أن هذه الرحلات تفتقر في أغلب الأحيان ـ نتيجة لصعود الشعور الغربي بالتمركز العرقي والديني ـ إلى الحس الإثنوغرافي.

○○○

٦) حجاج الصحراء العربية

منذ العام ١٨٠٣، فكر شاتوبريان بالقيام برحلة إلى اليونان، كان ذلك أثناء إقامته في روما كدوبلوماسي، وعزز هذه الرغبة انكبابه وقتذاك على الكتابة الأولى لمؤلفه (الشهداء)، بحجة أن تلك الرحلة ستسمح له بتصوير بعض مشاهد من الرواية، وأن يقوم بتعيين بعض هذه الأماكن.

لقد غادر من باريس في ١٣ تموز من العام ١٨٠٣، ووصل إلى البندقية في ٢٣ منها، وأقام في بيلوبويس ثم في أثينا ومر بسميرن، ثم اقترب شاتوبريان من آسيا الوسطى التي قطعها حتى وصل إلى القسطنطينية التي مكث فيها من ١٣ إلى ١٨ أيلول، ومن هناك وصل إلى فلسطين في مركب للحجاج بعد أن توقف المركب في رودس.

وصل شاتوبريان إلى يافا في الأول من أكتوبر، وعاد من هناك في الثالث عشر من أكتوبر، بعد أن قام بزيارة بيت لحم، والبحر الميت، والقدس، ثم عاد إلى ركوب البحر مرة أخرى متجهاً صوب الإسكندرية التي نزل فيها في الواحد والعشرين من أكتوبر، وصعد نهر النيل من القاهرة ـ التي بقي فيها أسبوعاً واحداً ـ مرة أخرى، وفي الثالث والعشرين من نوفمبر استقل المركب المتجه إلى تونس، وبعد رحلة شاقة تحتم عليه أن ينتظر المركب من الأول من كانون الثاني حتى التاسع من آذار، ليلتحق بعشيقته في أسبانيا، ثم عاد إلى باريس في بداية حزيران.

لقد شهد القرن التاسع عشر ظهور عادة الحج إلى الأراضي المقدسة، وعادت جموع متزايدة من السواح إلى فلسطين يتبعون خطى شاتوبريان، لقد جسد شاتوبريان ولمدة قرن بأكمله نموذج الرحالة المتعجل، وقد تبعته حشود من الأدباء تزور الأراضي المقدسة وكتاب شاتوبريان بأيديهم، والشيء المهم في هذه الرحلات فضلاً عن زيارة المدن الكبرى هو الحج إلى الصحراء، لقد كان الأدباء الفرنسيون يعدون زيارة الصحراء فضاء أدبيا وجماليا، وقد أنتجوا فصولاً رائعة في وصف الصحراء العربية، وفي وصف البادية والبدوي، وربما شكل البدوي نموذج المتوحش الطيب الذي كان يبحث عنه الرومانطيقيون بمواجهة الحضارة والتمدن، وكان الفونس دو لامارتين هو أول من اتبع خطى شاتوبريان في الحج إلى الأراضي المقدسة عبر التوحد في الصحراء، ولد الشاعر الرومانطيقي الكبير الفونس دو لامارتين في العام ١٧٩٠، وتوفي في العام ١٨٦٩. وهو أحد أهم شعراء فرنسا في القرن التاسع عشر، تنقل كثيراً بين سانت بوانت وإكس نابولي وفلورنس في العام ١٨٣٠، وهي الفترة التي كتب فيها ديوانه الشهير (التأملات).

كان لامارتين شاعرا مرفها، ودبلوماسياً، ومالكاً، وسياسياً تقدم للترشيح في العام ١٨٣١ نائبا عن مقاطعة بيرغ الجديدة بعد أن نشر كتابه (السياسة العقلانية)، ثم رشح نفسه نائباً لمدينة كلوني وفشل في الانتخابات، فغادر إلى مارسيليا ليحضر رحلة إلى الشرق، بعد أن فكر بها طويلاً.

لم يكن لامارتين يبحث عن صور التوراة حسب، إنما كان يريد أن يواجه المسألة الدينية ميدانياً، وهي مركز تفكيره، بل كان يفكر بتوسيع تجربته حول المجتمعات الإنسانية، وفي الثامن والعشرين من أيار أصيبت

أبنته الصغيرة جولي بأزمة تدرن رئوي، وكان الوالدان يأملان بأن مناخ الشرق قد يكون مفيداً لها.

وقرر لامارتين السفر فأخذ العبيد واستأجر سفينة شراعية، وطاقما من البحارة يقدر بخمسة عشر رجلاً، ومالاً يكفي لحياة المجموعة الكبيرة التي رافقته، فضلاً عن مكتبته الضخمة. وعند وصوله صار ينفق بلا حساب، وقد توافق يوم مغادرته في حزيران ١٨٣٢ مع نهاية الجمهورية اليونانية، وكذلك مع بداية الحرب التركية المصرية، وبعد توقف قصير في نابولي وفي أثينا وصل لامارتين إلى بيروت في السادس من أيلول، وقام في الفترة التالية بأول جولة له في الجبل، فزار الليدي ستانهوب، والأمير بشير الشهابي الحليف الجديد للباشا إبراهيم، وبيت الدين، وحصل لامارتين في الأول من تشرين الأول على توصية إلى أبي غوشه الذي كان يهيمن على مشارف القدس، وغادر لامارتين بيروت دون زوجته متجها إلى فلسطين، ولكن الطاعون الذي كان يحاصر المدينة المقدسة أجبره على أن يؤدي زيارة خاطفة (يوم العشرين من تشرين الأول)، ثم عاد إلى بيروت في الخامس من تشرين الثاني، فقضت عائلة لامارتين هناك شتاء مأساويا بعد وفاة ابنتهما وهي في عامها الحادي عشر يوم السابع من كانون الأول ١٨٣٢، وفي شهر آذار ١٨٣٣ سافر لامارتين إلى دمشق عن طريق بعلبك، وقام بنزهة في جبال الأرز في بداية نيسان، وبينما كان لامارتين في يافا للفترة من الثاني والعشرين إلى السادس والعشرين من نيسان، وكانت زوجته في زيارة لأورشليم بعد أن أعيد فتحها، كتب الشاعر (الجسماني أو موت جوليا).

ثم وصل إلى استنبول عن طريق رودس وسمرن، وأمضى فيها المدة من السابع من حزيران وحتى الخامس والعشرين من تموز، وعاد إلى

فرنسا عن طريق غرنوبل، وبلغراد وفينا وستراسبورغ، ووافق لامارتين على نشر رحلته، بعد أن أجبرته ظروفه المادية على ذلك.

وكانت رحلته تتسم بالفروسية الرومانطيقية، وضياء المناظر الطبيعية، وقد وجهت هذه الرحلة إلى بلا المشرق ما تبقى من حياته، فقد انطوت على نتائج اقتصادية وتاريخية وسياسية خطيرة، وحصل بعدها على مقعد في البرلمان، وصار يؤمن على نحو متزايد برسالته الروحية والاجتماعية، واقترنت مسيحيته هذه المرة بمواقف ملموسة بعد أن آمن بالسان سيمونيين، وأصبح في السنوات الأخيرة من دعاة الهيمنة الفرنسية على سوريا للحد من طموحات الإنجليز.

عاد لامارتين إلى تركيا في شهر حزيران في العام ١٨٥٠، ليشرع في تنفيذ خطة كولنيالية زراعية، وكان السلطان قد منحه في العام ١٨٤٩ مساحة كولنيالية ليستثمرها في إقليم سمير.

ومن الذين زاروا الصحراء أيضاً الكونتيسة فاليري بواسيه التي ولدت في العام ١٨١٣ وتوفيت في العام ١٨٩٤، وكانت تنتمي إلى عائلة عريقة، تزوجت من إغنور دو غاسبران (١٨١٠ - ١٨٧١) الذي كان يمثل النبالة البروتستانتية في جنوب فرنسا، وهو حفيد أحد أنصار الجمعية التأسيسية، وإبن نائب صار محافظاً، ثم وزيراً مع لويس فيليب.

نشرت دو غاسباران في العام ١٨٤٣ كتابها الأول الذي كان يدور حول الزواج من وجهة النظر المسيحية، وكان بمثابة تأملات أولى حول الزواج المثالي، وقد غادرت دو غاسباران تريست في الخامس من أكتوبر في العام ١٨٧٤، ووصلت إلى اليونان وبقيت هناك حتى نهاية تشرين الثاني، ووصلت إلى مصر بداية كانون الأول ثم سلكت الطريق التقليدي من القاهرة صعودا من نهر النيل حتى دندور في كانون الثاني

١٨٤٨، وعند منتصف شهر آذار اجتازت صحراء سيناء حتى القدس، وبقيت فيها أثناء الأسبوع المقدس، ولكنها اضطرت لأسباب عائلية من العودة إلى بيروت دون أن تزور دمشق أو بعلبك.

لقد ظهرت رحلة دو غاسباران في العام ١٨٤٨، وأعيدت طباعتها في العام ١٨٥٠، وبعد خمسة عشر عاماً أوحت لها الرحلة إلى القسطنطينية كتاباً جديداً، مليئاً بالجاذبية التلقائية، وطرحت للمرة الأولى مشكلة حياة المرأة في الشرق. لقد كانت كتابات دو غاسباران تجسيداً للطابع الأخلاقي الاجتماعي والديني، وكانت تجسيدا للفكر البروتستاني الليبرالي في ظل الإمبراطورية الثانية.

كانت غاسباران تفرض على طاقم الرحلة المرافق لها في نهر النيل التقيد بالراحة الأسبوعية، وكانت تقوم بتوزيع الإنجيل على البدو، وكانت كتاباتها تتصف بشكل عام بالحيوية والحساسية والورع المخلص الخالي من التزمت، والكثير من الانجذاب نحو جميع أشكال الحياة، وقد كتب برشيه عن رحلتها بأنها مكتوبة بأسلوب مملوء بالسعادة والهوى وجموح الطبع الحازم والذكاء المتوقد، ووصف موهبتها بأنها ليست خلاقة حسب، بل أنها حدسية على نحو عجيب وتكهنية وثاقبة، وأنها موهبة لا تبتدع إنما تعيد إنتاج الواقع بأمانة لاذعة.

وهناك أيضاً أوجين مليشور دو فوغويه الذي ولد في العام ١٨٤٨، وتوفي في العام ١٩١٠، وقد أتاح العمل الدبلوماسي الذي شغله دو فوغويه، لدى ابن عمه السفير في استنبول في العام ١٨٧١ حتى العام ١٨٧٥، ومن ثم في القاهرة في العام ١٨٧٦، الفرصة للإقامة في الشرق.

كانت روسيا تسعى آنذاك - بعد اندحار فرنسا أمام بروسيا - إلى أن

تحل محلها في بلاد المشرق، وأثناء رحلة حج دو فوغويه إلى القدس في تشرين الثاني كانون الأول في العام ١٨٧٢، التقى بمواطنين روس، فأذهله عمق إيمانهم وقوة النفوذ الإكليروسي عليهم، وكان الانطباع المهيمن على مؤلفه الأول (رحلة إلى بلاد الماضي).

وقد آمن أن روسيا المقدسة ما تزال تحتفظ بقوى روحانية كاملة، مقابل الشكية الواهنة لأوربا العنيفة. ومما لا ريب فيه فإن هذه التجربة الشرقية كانت حاسمة لتحديد فهمه للعالم السلافي، فكانت رحلته إلى الأماكن المقدسة تتسم بالإيمان الواضح والنشوة الداخلية، وقد كانت غنائية على نحو بارز وعميق، وذات طابع ذاتي وخطابي في أن واحد، وكانت في أسلوبها السيروي تشبه نشيداً للفرح مقدما للرب من نفس مندمجة تماما بآثار الله على الطبيعة، وآثار النعمة الربانية عليها. وقد كانت تشتمل على الكثير من الحكايات والكثير من الشخصيات، ولكن الطابع الذي يحكمها هو الشعر الذي طفحت به كتابات فوغويه.

وهناك أيضاً رحلة فلوبير، فقد عاد فلوبير من رحلته التي قام بها مع ماكسيم دوكومب بمذكرات تم الكشف عنها بعد موته، ويعود تأريخ آخر طبعة كاملة لهذه المذكرات إلى العام ١٩٤٨، ومع أن فلوبير كان مسحورا منذ زمن بالسراب الشرقي، إلا أنه لم يعثر على أرض الواقع ما يرضي أحلامه التي بقيت أحلاما أدبية، وفي الواقع فإن فلوبير في هذا الصدد، كان يقف على مفترق طرق، إذ كتب ما بين ١٨٤٥ - ١٨٤٦، حكاية شرقية تحت عنوان أبناء الدرويش السبعة، ثم كتب ما بين أيار وأيلول ١٨٤٩ (إغواء القديس سان أنطوان) وأدت ردة الفعل المنذهلة لأصدقاء فلوبير ونصيحتهم له بالالتفات نحو موضوع أكثر تحديداً، وذي طابع واقعي، في اللحظة التي كان يستعد فيها للمغادرة

إلى الشرق، وقد انعكس هذا الأمر على رحلته وجعلته حاقدا مزيفا على الشرق الذي كان قد شعر مسبقا بأنه قد انخدع به، والذي لم يعد مفيداً له، والذي صار يمثل مأزقاً أدبياً، وبالمقابل من ماكسيم دوكومب الذي كان يكد من جميع الاتجاهات فيخط الحروف الهيروغليفية، ويصور المعابد، بدأ فلوبير شارد الذهن، يقلب في ذهنه ما ستؤول إليه روايته مدام بوفاري.

علما بأن اسم بطلة هذه الرواية قد خطر على باله بينما كان واقفاً على ضفاف النيل، ويفسر دوكامب الذي نقل لنا هذه الرحلة قد عادت إليه دفعة واحدة وبقوة عندما كتب سالامبو.

ومن أفضل من وصفوا الصحراء هو بيير لوتي الذي ولد في العام ١٨٥٠، وتوفي في العام ١٩٢٣. أن هذا المؤلف الذي نسته الثقافة المعاصرة قد عبر نيابة عن جيل بأكمله عن الجاذبية السوداوية لإستنبول، ومن مجموعة من الكتب التي لا ينفصل فيها الخيال الرومانسي عن الذكرى السيروية، نجد أن ما جذب جوليان فيو ضابط البحرية إلى ضفاف البسفور هو إمكانية أن يفقد المرء هويته ليمتزج بحياة مختلفة، شعبية، شاعرية، حيث أن جميع اللقاءات تكون متاحة، أن هذه اللعنة الرومانسية للمتعة تنتهي بالقبر مما أضفى على رؤية لوتي في أعماله الأخيرة للمدينة طابعاً جنائزياً مضطرداً، ورمزاً أعلى لتركيا المحتضرة، لقد قابل لوتي باستمرار البرقشة الكوزموبوليتية لمدينة بيرا مع الرصانة التاملية لأيوب أو مع المسجد الأخضر في بروس، وهو يترك قارئه في مؤلفه (المبرءون من السحر) مع غزليته الأخيرة في بيكوس، بعيدا عن البازار العالمي.

في ربيع العام ١٨٩٤ قام لوتي برحلة حج مخيبة للآمال إلى

الأراضي المقدسة، بدأها باجتياز صحراء سيناء شباط ـ آذار، والتي أوحت إليه بأجمل كتب رحلاته، ثم أقام في القدس من آذار وحتى آيار، ثم أمضى الربيع في الجليل، وأخيراً في دمشق وبعلبك وبيروت، وقد شاهد لوتي الأراضي المقدسة ووصفها بطريقة جميلة وحاذقة، وقد زار في العام ١٩٠٧ مصر بدعوة من الزعيم القومي مصطفى كامل باشا، وقد أهدى لوتي كتابه موت الفيلاي إلى الزعيم العربي بعد عام من ذلك.

لقد أحب لوتي البلاد الإسلامية، وكتب كتابين عن الأراضي المقدسة، الجليل الذي صدر في العام ١٨٩٦، والقدس الذي صدر في العام ١٨٩٥.

اجتاز لوتي بدوره صحراء سيناء، في شهر آذار من العام ١٨٩٤ ليذهب إلى فلسطين، وهو عندما اختار من بين أكثر الطرق الممكنة الطريق الواقعة إلى الجنوب رغم خطورتها فذلك لأنه كان يأمل دون جدوى أن يكون في استطاعته زيارة أطلال البتراء، فضلاً عن أنه كان يأمل أن يصل إلى القدس عبر الطرق القديمة المهجورة، وكي يستعيد روحياً خلال العزلة الطويلة للطريق، ونحن نجد في الصفحات التي وصف فيها الصحراء قصيدة للصحراء وصمت أبدي لفضاءات لا متناهية وروعة أخاذة للمشاهد القمرية والعذوبة الحسية للأرض بما فيها السواحل الدافئة أو الواحات المظللة بالنخيل.

حاولنا في هذا الكتاب الذي وضعناه بهيئة انطولوجيا صورية متفرقة ومتنوعة عن الصحراء، أن نترجم أكثر الفقرات دلالة وتعبيراً عن النظام الذي يسود المخيلة الغربية في تعيين الصحراء العربية في إطار الثقافة الغربية كما رسمها أو تخيلها الأدباء الرومانطيقيون الفرنسيون في نهاية

القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، مثل (فولني، شاتوبريان، لامارتين، فلوبير، بيير لوتي، فوغويه، دوغاسباران،... الخ) وقد حاولنا تتبع أكثر الفقرات تعبيراً عن حياة البادية: صورة البدوي الهائم في الصحراء، صورة الخيمة المصنوعة من الكتان والتي تقلعها الريح عند أول عاصفة، صورة الإبل التي تقطع المسافات بمشيها البطيء على الرمال دون طعام أو ماء، الانطباعات التي سجلها الرحالة عن الخانات التي تربط الصحراء والمدن الكبرى، الانطباعات التي سجلوها عن اللصوص وقطاع الطرق والقبائل والأدلاء السوريين، كما وهناك أيضاً الصورة التي رسموها بعمق وبالألوان للتحولات البيئية والمناخية للصحراء، وكذلك العادات الاجتماعية والطابع الأثنوغرافي والثقافي للعرب في القرن التاسع عشر.

○ ○ ○

الجمل

عملت الأمطار، في الطائف ونجد والحجاز التي كانت تربتها صخرية ورملية معاً، على نمو بذور النباتات البرية، وانتشرت الأحراش والحوذان والشيح والقيصوم، وتشكلت في المنخفضات بحيرات شاطئية حيث نما القصب ونمت الأعشاب، فاكتسى السهل بمظهر الخضرة البشوش، إنه فصل الرخاء نسبة للقطعان وللرعاة، ولكن ما أن تعود الحرارة حتى يجف كل شيء، ولا نرى من الأرض المتربة الرمادية سوى التيجان اليابسة الصلبة مثل الخشب التي لا يمكن للخيول ولا للخرفان ولا حتى للماعز أن ترعى فيها، ولأصبحت الصحراء في هذه الحالة غير قابلة للعيش، وينبغي تركها، لو لم تنعم الطبيعة عليها بحيوان له مثل هذا الطبع القاس والزاهد، على غرار جحود الأرض وجدبها، ألا هو الجمل.

وليس هناك من حيوان توفر لديه مثل هذا التوافق العجيب والمطلق مع مناخه مثل الجمل، وكأن هناك نية محسوبة قد راق لها ضبط سمات الأول على سمات الآخر، فبعد أن أرادت الطبيعة أن يسكن الجمل بلدا لن يجد به إلا القليل من القوت، عملت على الاقتصاد في كل مواد بنائه، فلم تمنحه الشكل الممتلئ للخراف، أو الخيول، أو الفيلة بل خصته بالذي لا بد منه فقط، فوضعت له رأساً صغيراً بلا أذنين على طرف رقبة طويلة بلا لحم، وانتزعت من ساقيه ومن فخذيه كل عضلة لا تجدي في حركته، وأخيراً فهي لم تمنح جسمه المتيبس سوى الأوتار اللازمة لربط هيكله

وزودته بفك قوي لقضم أقسى المواد، ولكنها ضيقت معدته كي لا يأكل الكثير وأجبرته على الاجترار، وهي عندما جهزته بقدم هي كتلة من اللحم تنزل على الطين، وهي غير مؤهلة للتسلق، إنما أرادته أن لا يسلك سوى الأرض اليابسة الموحدة والرملية كأرض الصحراء العربية، وأخيرا فهي كرسته على ما يبدو للعبودية عندما جردته من كل وسيلة للدفاع أمام الأعداء، فكيف للجمل أن يصد هجوم الأسد أو النمر أو حتى الذئب وهو محروم من قرون الثور وحوافر الحصان وسن الفيل وخفة الأيل، ومع ذلك ولكي تحافظ الطبيعة على هذا الجنس من الحيوانات فقد أخفته في كنف الصحارى الواسعة، حيث جدب المزروعات لا يغري الطرائد وحيث انعدام الطريدة يبعد الحيوانات المفترسة.

وقد تحتم أن يطرد سيف الطغاة الإنسان من الأرض المسكونة كي يفقد الجمل حريته، وبعد أن تحول الجمل إلى الحالة الأليفة صار هو الوسيلة للعيش على الأرض الأكثر جحوداً، فهو وحده الذي يستجيب إلى جميع حاجات أسياده، حليب الناقة يغذي العائلة العربية سواء كان في شكل اللبن الرائب أو الجبن أو الزبد، كما أن لحمه غالبا ما يؤكل، وتصنع من جلده الأحذية، وعدة الفرس، ومن وبره الملابس والخيام، وبفضله يتم نقل الأحمال الثقيلة، وأخيرا عندما تمتنع الأرض عن منح الكلأ إلى الحصان العزيز على البدوي، يسد الجمل الحاجة بحليبه دون أن يكلف سوى بعض سيقان العوسج أو الشيح ونوى التمر المطحون.

Voyage en syrie et en Egyptc

رحلة إلى سوريا ومصر

○ ○ ○

غوستاف فلوبير **Gaustave Flaubert**

رحلة إلى الصحراء

كان العبيد يسيرون بعد أن تم إنزالهم على الأرض، يقودهم رجلان، وقد كانوا يمشون جماعة من خمسة عشر رجلاً إلى عشرين رجلاً.

عندما صعدت على جملي قفز حاج إسماعيل ليمد لي قبضة يده، أن مبادرة الرجل المضطجع على الأرض وهو يمد يده لمساعدة الرجل الذي يمتطي الجمل، هي واحدة من أجمل المبادرات التي يقوم بها الشرقيون ولا سيما عندما يتم ذلك عند المغادرة، ففيها شيء مهيب وحزين على نحو رصين، لم يكن سكان قانة قد استيقظوا بعد، كانت العالمات يقفن على أبوابهن متغطيات بليرات الذهب، ويكنسن عتبة منازلهن بأغصان النخيل، ويدخن الشبوق صباحا.

كانت الشمس تختفي وراء الغبار الذي أثارته رياح الخمسين، وعلى اليسار كانت الجبال العربية تنحدر على الضفاف، وأمامنا الصحراء الرمادية، وعلى اليمين هنالك السهول الخضر، سرنا عند حافة الصحراء ثم شيئا فشيئا توارى السهل المزروع عن أنظارنا، أو تركناه على يميننا، وتوغلنا في الصحراء، وبعد أربع ساعات وصلنا إلى غابة صغيرة من الغازيس كان فيها نباتات طويلة مكونة من أوراق مقوسة عند المستوى الأرضي، إنه خان يدعى بئر عمير.

تناولنا طعامنا الغداء هناك عند قبر الولي على حصر حيث أقمنا القيلولة.

وصلنا إلى بئر عمير في الساعة التاسعة والنصف، وغادرناه في الساعة الحادية عشرة والنصف، أمام رواق الخان ثمة إناءان من الحجر تنهل الإبل من مياههما، وهناك عدد من العرب في الظل يأكلون ويصلون وينامون، وكانت الدواب على غرار الناس تحت الأشجار تأتي وتقف كيفما اتفق، لقد كان الخان محطة سفر حقيقية.

Voyage en Orient

رحلة إلى الشرق

○○○

عرب الأردن

كانت العقبة بلا شك واحدة من محطات رحلتنا إلى الصحراء التي تركت في قلوبنا أعمق الانطباعات، بما حملته من لمحات غريبة، برية، أصيلة، ومذهلة، بدءاً من الألبسة إلى الألوان الغامقة لساكنيها، حتى مبانيها الغريبة المؤطرة بالديكورات العجيبة.

فأمامنا كان البحر قد ترك أشجار النخيل تهبط إلى أمواجه الشفافة، وكانت هنالك النباتات الرائعة التي تذكرنا بالأجزاء الأكثر غابية من الغيوم والمساكن الطينية المصنعة بعناية، والتي كانت أبوابها متوجة بنقوش من طراز عربي شبه بربري، فضلاً عن أن سكانها كانوا من أجناس مختلفة عن تلك التي التقينا بها حتى آنذاك، فتلك الأجسام الرياضية الطويلة والقوية ترتدي على نحو رائع أثوابها الحمر الأنيقة الطويلة، وتغطي رؤوسها كوفية سوداء فتزيد من التعبير الضاري لهيئاتهم الذكورية، كان هناك بلا ريب ممثلون عن العديد من القبائل لأن عددا من هؤلاء العرب كانت لهم بشرة بيضاء للغاية، ويثيرون الانتباه بما يملكونه من تشابه مذهل مع أشخاص ممن نعرفهم من الأوربيين، وما أن أقمنا مخيمنا تحت أول أشجار النخيل التي صادفناها في الواحة، حتى جاء مندوبون عديدون لملاقاتنا متمنين لنا طيب الإقامة وللاطمئنان، لا سيما على ما يمكننا تقديمه لهم من السرقة والنهب، واعتبروا خيمة المطبخ هي الخيمة الأكثر أهمية، فامتلأت بالمعجبين كان من بينهم أكثر

شيوخ المنطقة أهمية، فكانوا يتبادلون هناك عدداً لا ينتهي من أكواب القهوة والأقداح الصغيرة.

أما طباخنا أحمد فلم يستطع الإجابة على جميع هؤلاء السادة الذين كانوا مجموعة حقيقية من القرود، يتفحصون ويقلبون كل ما يقع بأيديهم.

كان قد تم الإخبار عن مغادرتنا للسويس بوساطة نظام تلغرافي كان العرب وحدهم الذين يعرفونه ويستخدمونه، إن عدد ونوعية إبلنا الرسمية وعدد خيامنا ودجاجنا كان قد تم الاستدلال عليها، وكانوا ينتظرون وصولنا منذ شهر وذلك نظراً لتوافد الزوار علينا والاستقبال غير العادي الذي أذهلنا، والألعاب النارية والعيارات التي أطلقت على شرفنا أثناء الليل.

تأجل تقديمنا لشيخ العقبة حتى صباح اليوم التالي لماذا؟ الجواب هو أنه ذهب ليسرق جمال القبائل المجاورة، وإنه لم يعد بعد من جولته، هذا هو تفسير غياب ذلك الأمير، وكان ابنه هو الذي أخبرنا بقصة اهتمامات أبيه النبيل، وفي مساء وصولنا أقبل حاكم قلعة العقبة الشاب علينا بصحبة رئيس مشاته والضباط الرئيسيين لدائرته العسكرية وكإشارة على وظائفه التفجيرية فإن ما كان يميز رئيس المشاة عن الباقين هو عصا طويلة وعلى طرفها فتيلة غير مرئية يستخدمها ليضيء بها مؤقتا الاثنتي عشرة شعلة التي أوقدت على شرفنا.

كان الحاكم يبلغ الثلاثين عاماً تقريباً ولم يكن يبدو عليه راضياً جداً عن الوظيفة الرسمية التي كان يشغلها في المنطقة، حيث لم يكن له من النفوذ سوى القليل مقارنة مع نفوذ شيخ القبيلة العظيم، والذي كان في تلك اللحظة في مهمة السرقة.

كان دوره وبوصفه مندوباً عن نائب الملك تأمين الإمدادات لقوافل مكة من ذهابها وإيابها، فقد كانت محطة يتحتم على جميع الحجاج المرور بها، نظراً للشكل الخارجي للصحراء الواجب عبورها، وهي محطة كذلك لأنهم كانوا يصلون إليها عامة، بعد نفاذ آخر إمداداتهم من الماء والغذاء.

نظمت الحكومة هذه المائدة الضخمة لإشباع هذه الحاجة غير المتوقعة للحجاج، والتي بدونها، ستضطر القافلة إلى نهش بعضها البعض وهي في طريقها إلى المدينة المقدسة.

تواصلت الحفلة المتواضعة والألعاب النارية والمشاعل حتى ساعة متأخرة من الليل، فأسرعنا بعدها للنوم تحت حراسة أولئك الأشقياء المدججين بكل أنواع الأسلحة، وكان علينا أن نكون دوماً في غاية اللطف معهم، كان الوقت يقارب الخامسة صباحاً وكنا ننام نوماً هنيئاً عندما أتى الترجمان إلينا وهو في غاية الانفعال ليعلن لنا عن وصول الشيخ بعينه، الشيخ الحقيقي محمد غاد الوحيد من نوعه، الأكثر بدانة أو الأكثر رعباً، والأكثر قبحاً، في آن معاً.

كان يمتطي مهرة جميلة مطهمة، مكسوة بالفرش المصنوعة من الحرير الذهبي، وكان الشيخ يبرز بهيئة عالية على خلفية الأفق مثل النصب، تتبعه مجموعة من الرجال المدججين بالأسلحة مثله، ويرتدون الثوب الأحمر الفاقع الذي كان قد لاحظناه في اليوم السابق، كان للشيخ نطاق طويل من الجلد علق على نهايته مسدس كبير ينسحب على الأرض محدثاً عند ارتطامه على حصاها الصوت المرعب للحديد الخردة، وفي يده اليسرى كان يمسك برمح طويل للغاية مزين بريش النعام بينما كانت يده اليمنى غارقة في معدته المكشوفة، منغمسة وعلى

نحو واضح في صيد محموم، واضعاً الشبوق على شفتيه وبدلاً من الارتجال من الحصان أطاح بجسده على الأرض بوثوق الرجل الذي يعرف مقدار أهميته، وهم بالدخول تحت الخيمة، حيث كان علينا استقباله، ولكنه لم يبق فيها ومر مباشرة صوب المطبخ وتناول بنفسه بلا تكلف كل ما كان بإمكانه ابتلاعه، كانت تلك الزيارة الصباحية مباغتة لنا، وكان الترجمان منزعجا للغاية من الوضع المحرج الذي اضطرنا إلى انتظار محمد غاد بنفسه، وشعر الكلونيل عند استيقاظه على حين غرة بعد نهار اليوم السابق المتعب بانزعاج كبير، وأوصانا الترجمان الذي كان قلقه يزداد بأن نلتزم بالمجاملات نظراً لأننا سنضطر للبقاء على أرض هؤلاء النهابين مدة طويلة، وبينما كنا منشغلين بارتداء الملابس الخاصة باللقاءات الرسمية نقل الترجمان إلينا عبارات المجاملة التي تفوه بها الشيخ العظيم فيها أثناء ابتلاعه لكل ما لم يستطع الطباخ أن يقتلعه منه، ولو لا وصولنا لكان قد قضى على كل ما في مطبخنا، ولم يتردد بتقديم الأقداح والأكواب إلى أشقائه وأصدقائه العديدين الذين كانوا يواكبونه حتى المعسكر، وعند اقترابنا هرب مسرعاً كما لو كان طفلاً فاجأوه في خزانة المربيات، فقد كان جالساً في الصالون، وفمه مليء بالطعام ويمسك بإحدى يديه قطعة من البسكويت العائد لنا فبدا لنا وهو محاط بكامل هيبته.

تبادلنا بوساطة الترجمان عبارات المجاملة الأكثر غرابة فقد كنا وسط النجوم كواكب سيارة، وشموس كالشلالات ولآلئ شاردة من الغرب، لقد تم تجاوز فيكتور هيجو من جوانب عديدة.

ولكي يجيب على جميع هذه العبارات الجميلة توجه الكلونيل إلى الترجمان وقال له: قل له بأنه الآن وبعد أن رآه فإنه سيكون سعيداً طوال

النهار، ولكنه الآن سيذهب لينام. وهذا ما حصل بالفعل.

تأثر محمد جاد العظيم كثير التأثر بهذه العبارات الرقيقة، وبقينا وحدنا معه، فقد تم تقديم الأكواب له والحلويات، فانتهى الأمر به إلى خدمة نفسه ليسهل العملية.

قضينا وقتاً طويلاً في فحص متبادل لبدلاتنا، فخلع الطرفان كل ما عليه من ملابس تقريباً ليسهل تناقل قطع القماش، وقد أثارت جزمنا إعجاب الشيخ على نحو خاص، ومن جهته هو فقد كان يرتدي جزما رائعة حمراء للغاية بيد أنها كانت واسعة إلى درجة أن كل قدم من قدميه كانت تضطر إلى أن تقوم بخطوتين أو ثلاث خطوات داخل هذه القوارب لكي تجرها خلفها.

أريناه مسدساتنا وأرانا هو سيف جده وسيف جد جده، وسيوف جميع أجداده لأن هذا النصل الرائع والمخيف يعود تأريخه إلى أبي بكر، فقد كانت الكتابات العربية البارزة النقوش الذهبية الأخاذة تجعل من هذا السلاح تحفة فنية عالية القيمة للغاية، وأثناء هذا العرض لم ينقطع الحضور عن تناول القهوة والكونياك والمشروبات مما أثار قلقاً كبيراً لدينا حول المصير الذي ستؤول إليه ذخيرتنا العزيزة علينا.

ولأن الشيخ كان يظن بأنه يمتعنا بزياراته لنا وعدنا بالعودة لزيارتنا فوافقنا على ذلك معاهدين أنفسنا على ترك المكان له، بيد أن الشيخ استطعم المشروبات التي كانت من النوع الفاخر لأن صوت الخردة ورد إلينا من جديد وكان هو مصدره، وكانت برفقته مجموعة جديدة من الشيوخ أكثر حمرة وأكثر أهمية وأكثر جنوناً، وكان طباخنا المسكين يطلق صرخات الألم رافعا يديه إلى السماء، بعد أن صارت الأكواب والكؤوس تدور بكمية أكبر من السابق، وقد قدم لنا محمد جاد وهو

يواصل شرب الأكواب أخيه الشيخ مهبول وكان قصير القامة نحيفاً جافاً وأسود هو الذي كان عليه مرافقتنا حتى البتراء، وسيستحصل لنا على الاستقبال الحسن من قبل القبائل هناك.

ولم نتخلص من هذا الاجتياح الدائم من قبل الزوار المجانين إلا بعد تدخل الدبلوماسي لحاكم القلعة الشاب فقد كان أصدقاء الأصدقاء يصطحبون الأصدقاء وبدأت مطاعمنا تفرغ على نحو يبعث على اليأس.

تعد العقبة اليوم مدينة في الصحراء العربية البترائية كلها وهي بالتأكيد أكثر أهمية من مدينة البتراء، التي لم تكن سوى مدينة عظيمة مهدمة، ومعقلاً للسراق وقطاع الطرق مزينة باسم القبائل المتمردة.

فموقعها الاستثنائي والنباتات العجيبة التي تميز حوافها ساهم في اعتبار المدينة بمثابة موقع هيلانة القديمة والمعروفة لدى العبرانين باسم إيلات المذكورة في سفر الخروج. وعند هذا الطرف القصي من الخليج يقع مرفأ asiongaber وهو المرفأ الذي انطلقت منه أساطيل سليمان نحو الهند حاملة معها مجده ودواوينه الصغيرة.

Le Fayoum - Le Senai et Petra - 1871

رحلة إلى الفيوم وسيناء والبتراء

○ ○ ○

القافلة

انتشرت من حولنا في المعسكر قافلة من الجمال ـ ليلاً تحت الخيمة، وصهيل الجياد وصياح الجمال، ودخان نار السماء، ووميض المصباح الشفاف عبر القماشة المشطبة للسرادق، ثم وضعت جبيني ليرتاح ثقيلا محترقا على السرج المستخدم كوسادة، فهبطت علي أفكار عن الحياة الهادئة، والمنزل والعائلة والأصدقاء البعيدين.

في الصباح، بينما يلجم العبيد الجياد، ويهزون الوتد الذي يستخدم كعامود، سقطت وانزلقت القماشات الواسعة المشدودة التي كانت تغطي عائلة كاملة من المسافرين، وهوت على الأرض وتكورت في كومة صغيرة من القماش، فوضعها الجمال تحت ذراعيه وعلقها على سرج بغلته، فلم يبق في الموضع الفارغ حيث كنا قبل قليل، والذي كان قائماً كمنزل دائم سوى نار صغيرة مهجورة لا تزال تدخن، ولكنها سرعان ما خمدت، إنها صورة حقيقية مؤثرة، وحية عن الحياة، غالباً ما يذكرها الإنجيل، وقد صعقتني بقوة في كل مرة تجلت إلى ناظري.

غادرنا القنطرة قبل طلوع النهار ـ تسلقنا عدداً من الرواسي الوعرة والصخرية التي تبرز شامخة داخل البحر. ومن ثم هذه صور (Tyr) على قمة الرابية الأخيرة الأكثر ارتفاعاً من بين هذه الروابي، وهي تتجلى لي عند أقصى رابيتها الواسعة القاحلة ـ وبين البحر ومرتفعات لبنان التي

تنحدر في تدرج سريع يمتد سهل بطول ثمانية فراسخ تقريباً، وبعرض فرسخين، وهذا السهل العاري مغطى بالشجيرات الشوكية التي تقضمها جمال القوافل عند مرورها، ويرمي هذا السهل بنفسه إلى البحر يشبه جزيرة يفصلها عن اليابسة رصيف مغطى بالرمل الذهبي الذي حملته الرياح من مصر.

وصور ـ كما يسميها العرب اليوم ـ محمولة على الطرف الأكثر حدة لهذا النتوء، وتبدو وكأنها تخرج من الأمواج. ومن بعيد تبدو المدينة جميلة وجديدة وبيضاء وحية، وكأنها تنظر إلى نفسها في البحر، ولكن لم تكن سوى ظل جميل يتلاشى ما أن تقترب منه ـ وهناك بضعة مئات من المنازل المنهارة وشبه المهجورة، حيث يجمع العرب في المساء قطعاناً كبيرة من الخراف والماعز بآذانها الطويلة المتدلية وهي تسير أمامنا، هذه هي صور اليوم، لم يعد لها مرفأ على البحر، ولا طرق على اليابسة، وقد تحققت فيها النبوءات منذ أمد طويل.

سرنا في صمت منشغلين في تحمل هذا الحزن، ورفات الإمبراطورية التي ندوسها ـ سلكنا طريقا واقعة وسط ريف صور بين المدينة والروابي الرمادية العارية التي قذف بها لبنان إلى حافة السهل.

Memoire de L'Orient/ Tome I

ذكريات من الشرق

○ ○ ○

حياة البدوي العامة

وأشد ما يفتقر إليه البدوي وأشد ما يرغب به هو المهرة، أن هذا الحيوان هو في الواقع أهم وسيلة لجمع الثروة، فبواسطة المهرة يذهب البدوي للمباراة ضد القبائل العدوة، أو للسطو على المحاصيل في الأرياف أو على الطريق، والمهرة مفضلة على الجواد لأنها لا تصهل أبداً، ولأنها أكثر وداعة ولديها الحليب الذي يروي في بعض المناسبات عطش سيدها.

ونظرا لانعدام الاحتياجات عند العرب سوى ما يقسم منها بالضرورة بالقصوى، فتراهم بلا صناعة وتقتصر حرفتهم على حياكة الخيام العادية وعمل الحصر والزبد، وتشتمل كل تجارتهم على تبادل الجمال والجداء والخيول الذكور والألبان مقابل الأسلحة والملابس، أو مقابل قليل من الرز أو الحنطة، أو النقود التي يطمرونها، وليس لديهم أي شيء من العلوم إطلاقاً، فهم فلا يملكون أية فكرة عن علم الفلك، أو الهندسة، أو الطب، وإن أي كتاب هو من الأمور النادرة للغاية لديهم، حتى رواية الحكايات والقصص من نوع ألف ليلة وليلة، ولكن لديهم ولعاً خاصاً بالسرديات فهي تملأ جزءاً عظيماً من أوقات فراغهم، وهي طويلة جدا، فهم يجلسون مساء على الأرض عند باب الخيام، أو تحت أغطيتها عندما يكون الجو بارداً، ويصطفون في دائرة حول النار الجلة، والغليون في الفم، وسيقانهم متقاطعة، ويبدأون قبل كل شيء بالحلم في

صمت، ثم يبادر أحدهم مرتجلا: كان يا ما كان في قديم الزمان، ويواصل إلى النهاية سرد مغامرات الشيخ الشاب مع البدوية الشابة، ويحكي كيف أن البدوي الشاب لمح أولاً سراً وخلسة محبوبته، وكيف أصبح مشغوفاً بها ويصف قسماتها الجميلة الواحدة تلو الأخرى، فيثني على عينيها السوداوين الواسعتين العذبتين مثل عيون الغزال، ونظراتها الحزينة المغرمة، وحاجبيها المعقوفين مثل قوسين من الأبنوس، وقامتها المديدة المرنة مثل الرمح، ولا يفوته أن يصف هيئتها الرشيقة مثل المهرة الشابة، ولا جفنيها اللذين سودهما الكحل، ولا شفتيها المطليتين بالأزرق، ولا أظافرها المخضبة بالحناء الذهبية، ولا صدرها الشبيه برمانتين، ولا كلامها الحلو كالعسل، ويتحدث عن عذاب العاشق الشاب الذي تتآكله الرغبات والحب حتى لم يعد لجسده من ظل، وأخيراً وبعد أن يعد بالتفصيل محاولاً رؤية معشوقته والعقبات التي يفرضها الأقارب، واختطاف الأعداء، والأسر الذي تعرض له العاشقان، ينهي حديثه بما يرضي مستمعيه، ويعود بالعاشقين وقد اقترنا ببعضهما، وعاشا سعيدين في الخيمة الأبوية، فيثني كل واحد من الحاضرين على فصاحة الراوي بعبارة ما شاء الله، لقد استحقها فعلاً.

للبدو كذلك أغان في الحب، وفي هذه الأغاني من التلقائية والعواطف أكثر مما هناك في أغاني الأتراك وساكني المدينة، ويعود هذا بلا ريب إلى أن البدو يعيشون حياة عفيفة ويعرفون الحب، أما الآخرون فهم منكبون على العربدة ولا يعرفون سوى المتعة.

Voyage en syrie et en Egypte

رحلة إلى سوريا ومصر

○ ○ ○

Pierre Loti **بيير لوتي**

البدو

كان ظلنا في غابة السواد يطوف على الأحجار البيض العامرة بالسحالي، سوداً، وكذلك المارة الذين كنا نلتقي بهم، والذين بات عددهم يتزايد الآن مثلما في أول الأمس، كانوا يسيرون في مواكب لا تنتهي تقريباً، وكان البدو يسوسون مئات من الحمير الصغيرة، والكثير ثم الكثير من المسلحين بالبنادق والسكاكين والخناجر، وقد شدوا حبل الصوف حول جباههم، ولفوا زوايا لفاحهم مثل أذني حيوان، مؤلفين جماعات بدائية جذابة، جماعات من الرجال الممشوقين الصهب، والذين كانوا عند لقائهم بنا يظهرون لنا من خلال ابتسامة التحية أسناناً من البورسلين، بينما كانت الجمال مربوطة في خط طويل، وتعود قطعان الماعز العديدة إلى رعاة فتيان لهم عيون الغزال.

استمر موكب المارة على الطريق، وأمامنا الآن مجموعة من الحجاج الفلاحين القبارصة الذاهبين إلى نهر الأردن، كانوا رجالاً ونساءً وأطفالاً يمتطون البغال أو الحمير، وخلفهم لحى شقر أو صهب وقلنسوات من الفراء، إنهم الروس، المئات من الروس، كان أغلبهم من الطاعنين في السن، ومع ذلك يسيرون بثبات، كانوا هم أيضاً فلاحين شيوخاً بشعور بيض، وعجائز يضعن النظارات على أنوفهن، كن منهكات ويترنحن في سيرهن، كان الجمع يتقدم محتمين بفقرهم ضد هجمات البدو، متكئين بسيرهم على العصي، وكانوا يتقلدون الأواني المعدنية أو القناني الفارغة

التي سيملؤونها بورع من النهر، إنهم جد وجدة سيعودون ربما حتى الأرخبيل وحتى ضفاف البحر المتوسط بقليل من المياه المقدسة التي سيعمدون بها أحفادهم.

كانوا يلقون علينا التحية عند التقائهم بنا، إلا أنهم كانوا يفتقرون إلى الإيماءة الجميلة التي كانت للبدو ويفتقرون إلى ابتسامتهم الحلوة، بيد أن تحيتهم التي كانت أكثر ثقلاً بدت أكثر صراحة ووثوقاً.

عند أسفل القمم الرمادية عادت قيعان الوديان إلى خضرتها الفاقعة، وقد سرحت عليها القطعان وهي ترعى، وكان الرعاة الفتيان في البرانص، يعزفون على المزامير، وعلى المكان ذاته الذي وقعنا عليه أول أمس وجدنا الطيور ذاتها جاثمة على الأغصان، وقد ارتسمت هاماتها على السماء فوق رؤوسنا، وكان هناك الجمال التي وضعت معها صغارها في الحقول، وأخيراً صفوف الورد وهي ترصع الصخور في كل مكان بنقاط حمر ووردية. وعلى منتصف الطريق توقفنا في خان القوافل الذي احتشد اليوم بالناس، وخان القوافل هو نوع من القلاع لحماية المسافرين ومطاياهم من قطاع الطرق، وتتشابه هذه القلاع جميعها من الشرق إلى الغرب، ففيها حوش مربع تحيط به الأسوار السميكة المزودة بحلقات الحديد لربط الحيوانات، وهناك على إحدى جوانبه الداخلية عنبار واسع لإيواء الرجال، وبالقرب من باب الدخول حجرة لحراس المكان، فضلاً عن أفران بدائية صغيرة لطهي القهوة إلى المارة، وكانت البهائم المربوطة من كل مرتبة وصنف تزدحم بهذا الخان الواقع على طريق جرش، وكانت تدخل وتخرج منه في كل لحظة بضعة جياد، وهناك خيول السواح بسروج إنجليزية وخيول جميلة ذات سروج عربية عريضة ثقلت جوانبها وصدرها بسجف من كل الألوان، وجمل

بسنام طويل، وبغال عليها عدة مبرقشة باللؤلؤ والقواقع، وحمير صغيرة تعود للحجاج الفقراء تحمل على ظهرها قطعة عتيقة من الكتان، وخرجا باليا، لقد اختلطت هذه البهائم ببعضها، وانعقدت أقدامها، وجنت وصرخت.

كان هنالك تحت الغبار المواجه للحوش ما يقارب المائة شخص، كانوا يتعجلون تناول الغداء، والمؤلف بطبيعة الحال مما جلبوه معهم من مؤن، إذ كان الخان لا يقدم سوى الماء البارد والقهوة والنارجيلة والحماية تحت سقفه، وكان البعض يأكل فوق الموائد، والبعض الآخر لم يوفق في الحصول عليها فيتدبر أمره على الأرض، كانت هناك مجموعات أنيقة إلى حد ما من السواح الإنكليز أو الأمريكان، ومجموعات أكثر تواضعاً من الحجاج اليونانيين، وأكوام من الحجاج الروس برؤوس الشجعان القدامى، وهم يضعون الميداليات على صدورهم، ويقومون بغلي الحساء بالخبز الأسود على الأرض فوق نار الأغصان، وثمة عدد من الأدلاء الجميلين من السوريين بملابسهم المطرزة بالحرير، وشعورهم المنسدلة من تحت العمامة على طريقة سكان كابول، يتصنعون الحركات المتغنجة مع سائحات الوكالات، وفضلاً عن ذلك كان هناك الأتراك والصرب، وكان القساوسة يتناولون الغداء ممسكين بحميرهم الصغيرة من لجامها، كما كان هناك قساوسة بيض وقساوسة سمر وكان البدو يأكلون بأصابعهم كما في الصحراء، يمزقون بأسنانهم الجميلة قطعا قذرة من الدجاج.

وعلى المائدة المجاورة لمائدتنا جلست فتيات مارونيات كان بعضهن يلبس بذلات محلية نوعا ما، ومعطفا طويلاً من المخمل والفرو القاتم، وقد عقصن شعورهن بمنديل مزركش، أما الأخريات فقد كن ولسوء

الحظ يضعن قبعات مزهرة ويرتدين على طريقة الشابات في فرنسا قبل خمسة أو ستة أعوام، وقد كن رغم هذا جميلات لشدة طراوتهن واتساع عيونهن، ووقع تبادل ودي للتمر والبرتقال بيننا، كما أعطينا قطعاً من الخبز الأبيض إلى بعض الفلاحين الروس الطيبين المقرفصين عند أقدامنا.

Jeruseleme - 1895

القدس

○ ○ ○

اوجين ميلشيور دو فوغويه **Eugen Melchior de Vogue**

البدو

كانت عظمة المشهد البدائية تحيلنا إلى العصور التوراتية، وتعود بنا من غير وعي منا إلى المشاهد البطرياركية لأيام العالم الأولى.

كانت القطعان العديدة ترعى بحرية وسط الحقول الشاسعة لقصب السكر، وتدير الجواميس المتمرغة بكسل في الوحل عيونها البيض الواسعة التي تضيء على نحو غريب ومشفرها المائل للسواد، وترفع الجمال رؤوسها المتأرجحة الكبيرة بين الأعشاب، وهناك آلاف من طيور الماء من كل صنف تحلق فوقها، وكأن الإنسان يظهر هنا وهناك برياً وبدائياً على نحو يفوق كل وصف.

إنهم البدو الرعاة وهم أول من التقينا بهم، كان البعض منهم يحرس قطعانه منعزلاً، منتصباً في القصب، متكئاً على عيدانه الطويلة، مكتسباً فضاء ابيض يقف بلا حراك، وله هيئة متأملة مثل تماثيل صغيرة من البرونز، في حين كان الآخرون جالسين أو ممددين في ظل عدد من الشجيرات الصغيرة النادرة، صامتين، شرسين، ينظرون إلينا نمر دون أن تبدر منهم علامة دهشة على الرغم من أن الطريق التي سلكناها هي خارج المسار المعتاد للرحالة، ومن النادر أن يمر الأوربيون فيها، كانت لهم عيون من نار، وأسنان بيض مثل العاج، وحدها تحيي الوجوه الشاحبة النحيفة من جراء الحرمان والتي لوحتها الشمس، وهي مصابة بالحمى البردائية.

إنهم من التركمان الذين يطوفون الأرض الحلوة، وتشكل خيامهم البائسة المصنوعة من بورياء الأسل، أو من جلد الماعز الأسود المشدودة بالأوتاد، على امتداد المسافات في المستنقعات، ضيعات متنقلة، ونستطيع القول إنها مساكن بشرية لو لم تكن النار، وهي سمة الإنسان الأكثر حرمانا، تشتعل أمام أبوابها، وعلى الرغم من هذا الأمر، هناك عدد من هؤلاء البدو يدفع بيد غير مجربة عربة، إلا أن معظمهم يسهرون ـ عاطلين ـ على البهائم المشتتة في السهل، يتسلون ببنادقهم أو رماحهم، وينظرون إلى السماء مثل الرعاة في خلدة Chaldee القديمة، فهم لم يخطوا طوال ستة آلاف عام خطوة واحدة، وسيعيشون مثل أولئك البشر الأولين، وسيموتون مثلهم، وقد يقول البعض، ومثلنا أيضا، فماذا يلزمنا أيضاً كي نبلغ هذا المصير عينه؟.

Voyage au pays de passe

رحلة إلى بلاد الماضي

○ ○ ○

حكومة الصحراء

إن الحكومة في هذا المجتمع القبائلي هي جمهورية وأرستقراطية وحتى استبدادية في آن واحد، وهي ليست أية واحدة من هذه حتما، إنها جمهورية لأن الشعب فيها له التأثير الأول في كل القضايا، ولأن لا شيء يمكن أن يتم دون موافقة الغالبية، وهي أرستقراطية لأن عائلات الشيوخ فيها يملكون بعضا من الامتيازات التي تمنحها القوة في كل مكان، وأخيرا فهي استبدادية لأن الشيخ الأساس له سلطة غير محدودة وشبه مطلقة.

فهو عندما يتمتع بشخصية قوية بإمكانه أن يستخدم سلطته إلى حد المغالاة، ولكنه عندما يغالي في استخدامه لسلطته نجد هناك حدودا ضيقة يفرضها واقع الحال، وفي الواقع لو أن قائدا ما ارتكب ظلما شنيعا أي أن يقوم مثلا بقتل عربي سوف لن يكون بإمكانه تجنب القصاص، لأن غضب المعتدي عليه سوف لن يحده أي احترام لصاحب اللقب الذي سيخضع لقانون المعاملة بالمثل، وإن هو لم يدفع ثمن الدم فسيقتل لا محالة، وهذه من الأمور الهينة نظراً للحياة البسيطة والخاصة بالشيوخ داخل المعسكر، وإن هو قام ـ بإرهاق رعيته بقوته، يقومون بهجره وينتقلون إلى قبيلة أخرى.

ويستغل أقرباؤه أخطاءه لتنحيته وأخذ مكانه، وهو لا يملك حيلة

أزاءهم لأن رعيته تواصل فيما بينها بيسر كبير لا يستطيع معه أن يثبت الفرقة بينها، أو أن يقتص لنفسه بزمرة ثابتة، ثم كيف له برشوتها بما أنه لا يأخذ من القبيلة أي نوع من الضرائب، وإن غالبية الرعية لا تملك سوى ما يسد رمقها، وحتى لا يملك سوى القليل، مع أنه مثقل بالنفقات الباهظة.

وفي الواقع أن الشيخ الأساس هو الذي يتحمل في كل قبيلة نفقات الزوار، فهو الذي يستقبل الحلفاء وكل من له شأن من الشؤون مع القبيلة، والاستطالة التي من خيمته هي جناح كبير يستخدم كمضيف إلى كل الغرباء وعابري السبيل، وفي هذا المضيف تقام الجلسات الشائعة للشيوخ والوجهاء لمناقشة أمور التخييم وإزالته أو السلام والحرب، والنزاعات بين الحكام الأتراك والقرى والدعاوى والخصومات الخاصة الخ... وينبغي تقديم القهوة إلى هذه الوجبات المتتالية من الزوار، فضلاً عن إعطائهم الخبز المطهو تحت الرماد، والرز، ولحم الجدي، والحمل المشوي، وخلاصة القول فإن عليه إبقاء المائدة مفتوحة، والمهم أن يظهر كريماً، وأن يتجلى سخاؤه عبر ما يمثل من ضرورات الحياة، فالمصداقية والنفوذ يعتمدان على ذلك، فالعربي الجائع يضع فوق كل الفضائل فضيلة الكرم التي تغذيه، ولا يخلو هذا الحكم السبقي من المحبة لأن التجربة قد أثبتت أن الشيوخ البخلاء لم يكونوا أبداً رجالاً ذوي بصيرة، ولا يملك الشيخ لسد هذه النفقات سوى قطعانه، وعدد من الحقول المبذورة، وما يفيض من أعمال النهب ورسوم الطريق، وكل ما تدره هذه الأشياء هو محدود.

ويعد الشيخ الذي زرته نهاية العام ١٧٨٤، في غزة من أكثر المتنفذين من بين المقاطعات مع ذلك فلم يبد لي بأن نفقاته تتجاوز ما

تدره مزرعة ضخمة، وكل ما يملكه من أمتعة هي عدد من العباءات المبطنة بالفرو، والسجاد، والأسلحة والخيول، والجمال التي لا يمكن أن تزيد قيمتها عن خمسين ألف ليرة، وينبغي أن نلاحظ في هذا الصدد أن ثمن أربع من أناث الخيل هو ست آلاف ليرة، وكل رأس بعير بعشرة لويسية، (قطعة ذهبية بقيمة عشرين فرنك) ولذا فلا ينبغي علينا، عندما يتعلق الأمر بالبدو أن تذهب أفكارنا إلى أوضاع الأمير أو السيد الإقطاعي، بل أننا سنكون أكثر قرباً من الحقيقة لو قارناهم بالمزارعين الطيبين في البلاد الجبلية، والذي يملك البدو بساطتهم في الملبس والحياة المنزلية وفي السلوكيات، فالشيخ الذي يملك تحت أمرته خمسمائة جواد، لا يأنف من القيام بلجم وسرج جواده، وإعطاء الشعير والقش المقطع، وفي خيمته فإن امرأته هي التي تصنع القهوة وتضع العجين وتطبخ اللحم، وتغسل بناته وقريباته الفرش والملابس، ويذهبن حاملات الجرار على رؤوسهن وواضعات الخمار على وجوههن لينهلن الماء من الينبوع، إنها تحديد الحالة التي رسمها هوميروس في سفر التكوين في حكاية إبراهيم، ولكن علينا الاعتراف بأنه من الصعب علينا أن نكون عن هذه الحكاية فكرة صائبة لو لم نكن قد رأيناها بأعيننا.

وتتناسب بساطة أو لنقل فقر البدوي العادي مع بساطة رؤساء قبيلته، ويشتمل مجموع ما تملكه العائلة من أمتعة على هذه القائمة من الأشياء تقريباً عدداً من الجمال الذكور والأناث والماعز والدجاج، وأنثى الخيل مع عدتها، وخيمة، ورمح بطول ثلاثة عشر قدماً، وسيف معقوف، وبندقية صدئة تطلق الجمر أو ذات حلقة للإطلاق، وغليون، وطاحونة محمولة، وطنجرة، ودلو جلدي، وموقد صغير لتحميص القهوة، وحصيرة، وعدد من الملابس، ومعطف من الصوف الأسود، وأخيراً فإن

ما تملكه امرأته من حلي هو بضعة أسوار من الزجاج أو الفضة التي تضعها على ساقها وعلى ذراعيها، وإذا توفرت كل هذه الحاجيات تعد العائلة غنية.

Voyage en syrie et en Egypte

رحلة إلى سوريا ومصر

○ ○ ○

بول لنوار **Paul Lenoir**

أناشيد البدو في الحرب

عدنا للصعود مرة أخرى باتجاه الشمال الغربي، وباشرنا تعقب أخاديد الوديان، كانت الجبال المحيطة بنا لها شكل الهضاب المنضّدة، ولها لون أصفر غامق متقد، أكثر مما هو جميل.

لم يقع من الحوادث ما يبهج أيام إقامتنا تلك، غير ظهور مجموعات من طيور الحجلى التي وفرت لنا فرصة لإزالة الصدأ عن بنادقنا المتواضعة، فقد بقيت خرساء منذ الفيوم، وكانت طيور الحجلى تلك كبيرة، أكبر من دجاجنا، ولا يصطاد العرب هذه الطيور لافتقارهم للرصاص، ولهذه الطيور طبيعة مختلفة عن تلك التي لدينا في أوربا، فلحمها صلب جدا، ولكننا سعداء جدا لاصطيادها. كان لون هذه الطيور الرمادي منعنا من تمييزها في البداية عن لون الأرض، بيد أن العرب يملكون نظراً قويا، فهم يقفزون فرحا عندما يشيرون علينا إليها.

كان ساسة جمالنا الجدد ينتمون إلى قبائل من طبيعة أكثر اضطراباً من تلك التي تعاملنا معها في جزيرة سيناء، فقد كانوا يلجأون إلى ألحان مستوحاة من أناشيد الحرب لديهم عند تحميلهم للجمال أو عند نصب خيامنا، وهكذا جرت الأمور:

كان أحد العرب يقوم بإنشاد المقاطع، ويستعيدها الآخرون على نحو جماعي بعده، فكانت هناك طلبات واستجابات كما يجري من

تراجيديات سوفوكل، فطلبت ترجمة بعض من هذه المقاطع التي كانت شعرية واستعاراتها شرقية تقترب إلى حد بعيد من الرجل الذي يضحك مع عمال البحر. ومن هذه المقاطع:

العربي هنا انه هنا

الكورس: من.. من.. من

العربي: عدو القبيلة أنا لا أراه وهو يراني

سأراه بعد قليل وهو لن يراني

الكورس: يا صاح هذا هو

وهكذا يستمر الحال إلى ساعات بأكملها دون شرب شيء، وهناك هذه المقاطع الهجائية العربية من الجنس ذاته:

إنه أسد وأنا ذئب، أنا هو الذئب، ولذا أنا الأسد، وسأغلبه بقوتي.

سيصبح أطفاله عبيداً لأطفالنا

ويظهر هذا الأمر بوضوح، أن السيد (دولا باليس) لو لم يمت في فرنسا لكان ما زال صبياً في وديان صحراء بتراء الغربية، وخلاصة القول فإن أناشيد الحرب مرتبطة ارتباطاً مباشراً بالمعارك الدامية التي تدّور بينهم، والتي حصلنا على فصلة صغيرة منها في البتراء، فهم شديدو الخوف من إلحاق الأذى ببعضهم، بل يكتفون بإطلاق الصرخات الثاقبة، والتلويح بحركات مرعبة، ويتعانقون بعدها بإفراط ذاكرين اسم الله، شاكرين له على النصر الذي أحرزوه جميعهم على أنفسهم.

لقد استمتعنا بتلك الألحان المنتظمة والإجبارية في الأيام الأولى، حتى أننا كنا نشارك فيها مرتجلين الأدوار، ولكن تلك المشاركات كادت أن تصيبنا بالجنون عندما نصبنا المعسكر الثامن، وتطلب الأمر منا

جهداً دبلوماسياً كبيراً لإقناع أولئك الفنانين بأن أشعارهم رغم جاذبيتها كانت تصيبنا بالتوتر العصبي.

وفي مساء ذلك اليوم ذاته الذي حصلنا فيه على الراحة تفاجئنا بمسعاهم وهم يستعيدون من جديد غناء تلك الأناشيد على نحو أكبر، لا ويبدون استغرابهم الكبير من استهجاننا لما يفعلون، وأجابونا هذه المرة بأن ما يغنونه هو النثر، وبأنهم غيروا اللحن لإرضائنا، ولم نكن نريد مضايقتهم أكثر من ذلك فاستمعنا لهم حتى النهاية متوسلين إليهم أن يخفضوا نبرة الأوكتاف في صوتهم.

وأتى محمد جاد لمرافقتنا حاملاً رمحاً بقبضة وكان هو يمتطي جواد الحرب ويتظاهر بإثارة وضعه بصيحات عالية، وحركات، إذ أن الحيوان المسكين الملتوي تحته كان يلاقي صعوبة باللحاق بإبلنا السريعة الخطى.

وعند مدخل الوادي استأذن الشيخ منا وغادر تاركا لنا مقبول وأخيه وابن أخيه لمرافقتنا، وكان الطفل يجلس على مؤخرة جواد أبيه فوق السرج، ويمسك قرب قلبه بغزال صغير يؤرجحه مثل دمية، ولكي نزيد من ثقة مرافقنا، دعوناه لتناول الوجبات معنا هو وأبوه، وقد نجحت هذه الوسيلة لأنها ضمنت لنا تحمس مرافقنا في الإمساك بزمام الأمور في الظروف الصعبة التي صاحبت خروجنا من البتراء، وأراد أن يقابل ضيافتنا له بالمثل، لذا فقد دعانا عند مرورنا عند أطراف قبيلته إلى تناول العشاء.

Le Fayoum - Le Senai et Petra - 1871

رحلة إلى الفيوم وسيناء والبتراء

○ ○ ○

الكونتيسة دو غاسباران Comtesse De Gasparin

البدو

يشتمل لباس البدو على قميص بأكمام قصيرة، حادة الأطراف، يصل حد الأرض يربطونه عند الظهر ليسهل السير عليهم، ويشدون هذا القميص عند الخصر بحزام عريض من الجلد المطرز، ويحشرون به خنجرا معقوفا، وقد ثبت هذا الشيخ على هذا الحزام زوجين من المسدسات، وكان أحد البدو الذين كانوا معنا يحمل بندقية محفوظة بعناية داخل غمد من الجلد، ويلقي بعضهم فوق هذا القميص غطاء من الصوف، بقلم بخطوط سمر وبيض، ويضعون فوق رؤوسهم المغطاة بالطربوش أو العمامة قطعة من القماش الفضفاض ذات لون غامق، يطوونها على نحو أنيق ليحتموا بها من شدة الشمس.

وللبدو جميعهم لون برونزي قريب إلى الأسود، ولهم جميعا وجوه لها هيئة نبيلة، ويلبس معظمهم في الـبابة خاتماً من نحاس.

Journal d'un voyage au Levant/ Tome III

يوميات رحلة إلى بلاد الشرق/ الجزء الثالث

○ ○ ○

فرانسوا دو شاتوبريان Francois de Chateaubriand

عرب الصحراء

هبطنا من سفح الجبل كي نذهب لقضاء الليل على حافة البحر الميت، ولكي نعود من جديد إلى نهر الأردن، فازدادت مجموعتنا الصغيرة.

لقد هيأ رجال بيت لحم بنادقهم، وساروا بحيطة وحذر، لقد كنا على طريق عرب الصحراء الذين يذهبون لجلب الملح من البحيرة، والذين يشنون حرباً بلا هوادة على المسافر، فقد بدأت سلوكيات البدو بالتغير أثر معاشرتهم الطويلة للأتراك والأوربيين، فهم يحرضون الآن بناتهم وزوجاتهم على البغاء، ويقطعون رأس المسافر، وقد كانوا في السابق يكتفون بانتزاع أمواله.

سرنا لمدة ساعتين على هذا النحو، حاملين المسدس باليد كما لو كنا في بلد معادي، كنا نقتفي بين كثبان الرمال التصدعات المتكونة في الحمأة، والتي احترقت من أشعة الشمس، كانت القشرة الملحية تغطي الأرض المنبسطة، وتظهر كما لو كانت حقلا من الثلج، حيث ما زالت تعلو فيها بضعة شجيرات كسيحة، ثم وصلنا فجأة إلى البحيرة وأقول فجأة لأني كنت أظن أننا كنا بعيدين عنها آنذاك، إذ لم يكن هناك ما يشي باقترابنا من المياه، إذ لا صوت ولا طراوة في الهواء، وكان الرمل المرصع بالأحجار حارقاً، والموج على الضفة ساكناً وميتاً تماماً.

كان الليل مطبقا، ولذا فأن أول شيء قمت به بعد أن وطئت قدمي الأرض، هو أني دخلت في البحيرة حتى ركبتي، ووضعت قليلا من مائها في فمي، كان يستحيل علي أن أبقيه فترة أطول، فقد كانت ملوحته أقوى بكثير من ملوحة ماء البحر، ولها من التأثير على الشفاه ما لمحلول شب مركز، وما أن جفت جزمتي حتى تغطت بالملح، وتشبعت ملابسنا وأيدينا بأقل من ثلاث ساعات بهذا المعدن، وقد سبق لـ(غاليان) Galien أن لاحظ هذا التأثير، وأكد (بوكوك) Pocoke على وجوده أيضاً.

أقمنا معسكرنا على حافة البحيرة، وأشعل رجال بيت لحم النار لإعداد القهوة، ولم يكن الحطب ينقصنا، وذلك لأن الضفة كانت مزدحمة بأغصان التمر هندي التي كان العرب قد جلبوها معهم، وما خلا الملح الذي كان يحصل عليه العرب جاهزا من هذا المكان، فقد كانوا يسيرون بكثير من الحذر في الريف، ولم يكونوا يخشون اضطرام النار التي بوسعها أن تدل على مكان وجودهم، وكان أحدهم يستخدم طريقة غريبة لجمع الحطب، فقد كان يفرشخ على كومة الحطب ويجلس على النار، وعندما ينفخ الدخان رداءه ينهض فجأة فيعمل الهواء المشفوط على هذا النحو على إضرام ألسنة رائعة من اللهب.

نام رفاقي بعد أن شربوا قهوتهم، وبقيت وحدي مستيقظاً مع العربي.

ذكرت أن علي أغا ولد في قرية جرش، وكان حاكماً عليها، وقادني في ولاياته حيث حظيت بحسن استقبال مواطنيه.

في الواقع كانوا يأتون للثناء على سيدهم، وعندما أراد مني أن أدخل معه إلى كوخ عتيق كان يسميه قصره رفضت هذا الشرف، وفضلت

تناول العشاء على طرف نبع الأليسيه Elisee والذي يسمى اليوم نبع الملك، وأثناء اجتيازنا للقرية شاهدنا شاباً عربياً يجلس منعزلاً، ورأسه مزيناً بالريش، ومتأنقا كما لو كان اليوم عيداً، وكان كل من يمر أمامه يتوقف ليقبل جبينه وخديه، قيل لنا إنه عريس، وحين توقفنا عند نبع الملك ذبحنا حملاً ووضعناه لشيه بأكمله على كومة كبيرة من الحطب، مجلوبة من حافة الماء، وقد أخذ عربي يتفحص بتحميص كومة كبيرة من الذرة، وعندما جهزت الوليمة جلسنا حلقة أمام صحن من الخشب، وأخذ كل واحد منا يمزق بيديه طرفاً من الضحية، وقد يروق للمرء أن يتبين في هذه العادات آثاراً من عادات الأزمان القديمة، وأن يجد لدى أحفاد إسماعيل ذكريات عن إبراهيم ويعقوب.

Itiniraire du Paris a Jérusalem

Troisieme et cinquieme partis

O O O

فولني **Volny**

البدو

ها هي الشروط التي وضعت الطبيعة البدو فيها، لتجعل منهم جنساً بشرياً فريداً في سلوكه وتكوينه الجسماني، وهذا التفرد هو من الوضوح بمكان جعل جيرانهم السوريين ينظرون إليهم بوصفهم رجالا فوق العادة أو استثنائيين، وهم يحملون هذه الفكرة عن القبائل التي تسكن لا سيما أعماق الصحراء مثل عنزة وشمر وطي والقبائل الأخرى التي لا تقترب من المدن أبداً، وعندما كان يصل في عهد ظاهر عدد من الخيالة وهم من البدو إلى مكة، كانوا يثيرون الإحساس ذاته الذي كان يثيره بيننا متوحشو أمريكا، فكان ينظر إلى هؤلاء الرجال الذين هم أكثر قصراً وأكثر نحافة وأكثر سواداً من كل البدو المعروفين بدهشة، إذ إنهم لديهم سيقان جافة، فيها أوتار، وهي خالية من الربلة، وتلتصق بطونهم بظهورهم، وشعورهم مجعدة كشعور الزنوج، وهم من جهتهم ينظرون إلى كل شيء بتعجب، فلا يمكنهم أن يستوعبوا كيف يمكن للمنازل والمنارات أن تقف، ولا يمكن للمرء أن يعيش تحتها وعلى نحو دائم، وكانوا ينذهلون خاصة من رؤية البحر، ولم يكونوا قادرين على فهم هذه الصحراء المصنوعة من الماء، وعندما يحدثهم أحد عن المساجد والصلوات والوضوء يتساءلون عن معنى كل هذه الأشياء، أو من هو موسى ويسوع ومحمد، ولماذا لا ينفصل الناس بقبائل، ويتبعوا قادة متعارضين.

يشعر المرء بأن عرب التخوم ليسوا أحراراً، فهناك العديد من القبائل الصغيرة التي تعيش وسط سكان الحضر، كما هو الحال في البقاع ووادي الأردن وفي فلسطين الذين يقتربون من نمط الفلاحين، ولكنهم محتقرون من قبل الآخرين الذين ينظرون إليهم على أنهم عرب مهجنون، أو عبيد للأتراك، والبدو بوجه عام قصار القامة، ونحاف، وذوو بشرة سمراء، وأعدادهم في الصحراء أكثر مما هم عند حدود البلاد المزروعة، وقد لاحظت أن الشيوخ أو الأثرياء منهم وعبيدهم كانوا دائما أكثر طولاً وأكثر بدانة من الشعب، وقد لاحظت بأن هناك من بينهم من تجاوز طوله الخمسة أقدام وست بوصات في حين أن طوال القامة العام هو خمسة أقدام وبوصتين، ولا يمكن أن نعزو السبب في ذلك إلا إلى الغذاء الذي يكون أوفر لدى الطبقة الأولى من توفره عند الطبقة الأخرى، وباستطاعتنا القول أن الإنسان البدوي العادي يعيش في بؤس ومجاعة معتادتين، ويبدو هذا الأمر غير معقول نسبة لنا، إلا أن هذا لا يغير من واقع الأمر، إذ أن الكمية المعتادة التي يتناولها الأغلبية لا تتجاوز ستة أونسات في اليوم، ويبلغ الزهد في الطعام ذروته لدى قبائل نجد والحجاز على الأخص، فالغذاء المشتمل عن ستة أونسات أو سبعين من حبات التمر المنقوعة بالزبد المذاب، وقليل من الحليب الرائب يكفي لرجل طوال نهاره.

وهو يظن نفسه سعيداً إن أضاف إلى هذا بضعة رشات من الطحين الخشن، أو كرة صغيرة من الرز، أما اللحم فهو يخصص لأيام الأعياد الكبيرة، فلا يذبح جدي إلا في الأعراس، أو المآتم، أو الأعياد الكبيرة، ولا يعود أمر ذبح الجمال الصغيرة وأكل الرز المطبوخ مع اللحم إلا للشيوخ الأغنياء والكرماء، وفي فترة العوز لا يأنف البدوي العادي

والذي يعيش حالة جوع دائم من أكل أتفه المواد، ومن هنا جاءت عادة أكل البدوي للجراد والفئران والسحالي والثعابين المشوية على الأشواك، وهذا يفسر ما يقومون به من نهب للحقول المزروعة، وسلب عابري السبيل، وهذا يفسر كذلك ما لهم من بنية رقيقة وقصر قامة ونحافة ورشاقة أكثر مما يتسمون بالقوة، ومما يثير ملاحظة الطبيب في تكوينهم هو أن فقدانهم لكل الأشياء بما فيها العرق، كما أن دمهم يفتقر إلى المصل، وليس هناك سوى الحرارة الكبيرة التي تستطيع أن تحفظ سيولته، ولكن هذا لا يمنع تمتعهم بسلامة الصحة، وإن الأمراض هي أقل وقوعا بينهم من وقوعها بين سكان البلدان المزروعة.

ولا ينبغي أن نحكم تبعاً لهذه الوقائع بأن زهد العرب بالمأكل هو فضيلة اختاروها أو أنها نعمة من نعم المناخ، فمما لا ريب فيه هو أن الحرارة القصوى التي يعيشون فيها قد سهلت زهدهم بعد أن منعت المعدة من النشاط الذي يمنحها إياه البرد عادة، ومما لا ريب فيه أيضاً هو أن عادة الحمية ومنع المعدة من التوسع أصبحتا الوسيلة إلى تحمل هذا الزهد، بيد أن الوازع الرئيس والأول لهذه العادة هي وكما هو الحال مع جميع الرجال الآخرين، هو حتمية الظروف التي يعيشونها سواء كان ذلك ناجما عن التربة كما بينت سابقاً، أم عن الحالة الاجتماعية الواجب تطويرها.

Voyage en syrie et en Egypte

رحلة إلى سوريا ومصر

○ ○ ○

استراحة البدو

سرنا وسرنا لساعات في السهول تحت الشمس الحارقة، وفي الرياح الباردة القارسة مواصلين دعسنا للنباتات الشاحبة العطرة، إن الصحراء الرتيبة مثل البحر متغيرة مثله أيضا، بالأمس كانت كتل الغيرانيت العملاقة والرمال المسطحة واليوم ثلج بقعة الأحجار الطاحنة التي خلقت من حولنا المفاجئات الجديدة ومظاهر لم تكن قد رأينا شبها لها بعد.

وانفتح أمامنا دهليز كئيب من الوديان المغطاة بتلك الأحجار الصفراء أو البيضاء، تمنحك جدرانها المنضدة أفقيا الانطباع بأنها جدران ذات أسس منتظمة شيدتها يد الإنسان، وظننا بأننا نطوف وسط مدن مهدمة ونمر في شوارع من شوارع للعمالقة وسط أطلال قصور وقلاع.

كانت الأبنية بطوابقها المتناضدة تواصل ارتفاعها، وتتجاوز آدميتها، فتأخذ أشكالا لمعابد وأهرامات وأعمدة أو أبراج متوحدة ضخمة.

كان الموت يكمن هناك في كل مكان، الموت المطلق بجبروته وصمته، وكان ساسة إبلنا يغنون من وقت لآخر أغان تصدر صرخات حزينة، تنسحب من تموجات هابطة وتنتهي بأنة، وكالعادة فقد كانت أصواتهم تحرك ارتجافات في عالم الأحجار اليابسة هذا، وأصداء طويلة غير متوقعة في هذا العدم المصوت، أن النباتات المهيمنة هنا والتي يغمر أريجها الهواء عديمة اللون تقريباً، وهي بالكاد أكثر اخضراراً من

الأحجار المجاورة وتضوع منها روائح شبيهة بتفاح تحت الشمس، مع وجود شيء أكثر عنفا ورمادية.

كانت الغزلان تأتي بلا شك من بعيد لترعى من هذه النباتات لأننا رأينا على الرمال آثار حوافر ناعمة جداً، متباعدة، كتلك التي تتركها الحيوانات عند مرورها وهي تجري متقافزة، كانت تخرق الأرض في هروبها السريع، وفجأة من الأعلى تظهر الغزلان شاردة كالريح فوق ذروة أحد المتاريس العجيبة، وما تلبث أن تضيع في المسافات البعيدة ذات البياض الباهر.

بعد أن توقفنا في المنطقة الجنوبية، وعندما نمنا على الرمال المعطرة بقوة ونحن نخفي رؤوسنا تحت برانصنا البيض، جلب لنا الاستيقاظ ما يشبه القلق من الصحراء الذي لم نكن قد عرفناها حتى ذلك اليوم، وازداد القلق حدة بعد الظهر في حين واصلت إبلنا سيرها بنا متأرجحة في الوديان ذاتها التي كانت تزداد كآبة بمظاهرها الخرائبية القاسية جداً، والكبيرة، كان شيء يصعب تحديده، ونوع من الحنين للمكان الآخر، إنه بلا شك الحسرة على ذلك الربيع الذي افتقدنا وجوده هنا، والذي يجلب معه في البلدان الأخرى الخضرة والأزهار، أما هنا فلا شيء من هذا القبيل أبداً، فهنا جزء ملعون من الأرض لا يريد أن تطأه قدم ولا ينبغي للإنسان أن يأتي إليه.

كنا تحت رحمة أولئك البدو الذين كانوا يقودوننا، كنا نغور ونغور هناك أكثر فأكثر، بعيدا في المجهول، وقد ازداد قتامة رغم أشعة الشمس الثقيلة، حيث كانت تكمن تهديدات بالموت لا علم لأحد بها.

ولكن المساء عاد، المساء وسحره، فاستسلمنا مرة أخرى لهذا السحر، من حول معسكرنا الصغير الآمن ومن حول أفقنا القاسي حيث

بدت التهديدات غامقة في هذه اللحظات، أقبلت سماء الغسق لتضيء حاشية تعلو تدريجياً إلى السمت الساكن المنطفئ، إنها الساعة الغامضة الساحرة حيث تبدأ نيراننا العطرة، وفي شفافية لا مثيل لها لا في النهار ولا في الليل بالإلتماع صافية، وتصوب بدخانها الأبيض نحو أول النجوم الطالعة، إنها الساعة التي تقوم فيها إبلنا بعد أن تحررت من أحمالها وسروجها العالية بملامسة الأشواك الهزيلة وترعى من الأغصان الزكية، كما لو كانت خرافا عجيبة لها هيئة غير مؤذية، وبطيئة، إنها الساعة التي يهم فيها البدو الذين معنا بالجلوس حلقة، يروون الحكايات، ويغنون، إنها ساعة الاستراحة ساعة الحلم، الساعة اللذيذة من الحياة.

de Senai Le désert

صحراء سيناء

O O O

ألفونس دو لامارتين **Alfonce de Lamartine**

اللصوص

لقد كان لهذه الأطلال صيت سيء، إذ كانت تختبئ فيها في الغالب عصابات اللصوص التي كانت تسلب القوافل وتذبحها، وكانوا في حيفا نصحونا بتفاديهم، أو بأن نرتب قطعاتنا عند المرور بهم، وعدم السماح لأي من الرجال بالابتعاد عن جسد القافلة، بيد أن الفضول تغلب علينا فلم نستطيع مقاومة الرغبة في زيارة هذه الصروح التي لا يعرف عنها التاريخ القديم أو الحديث شيئاً.

كنا نجهل أن كانت مهجورة أم مسكونة.

وعند وصولنا أسفل أسوار الفناء التي مازالت تحيط بهذه الصروح لاحظنا الثغرة التي علينا المرور منها إلى الداخل. وفي تلك اللحظة بالذات ظهرت لنا زمرة من العرب على ظهور الجياد يحملون الرماح، وقفوا على الرمل الذي يفصلنا عن المدخل، ثم انقض أفرادها علينا، ولكنا كنا متأهبين لهذا الظهور المفاجئ، فقد كنا نحمل بنادقنا بأيدينا محشوة بالرصاص، ومسدساتنا في أحزمتنا، تقدمنا نحو العرب فتوقفوا فجأة. انفصلت عن القافلة بعد أن أمرتها بالإبقاء على أسلحتها جاهزة، وتقدمت مع اثنين من رفاقي والترجمان نحوهم، وشرعنا بالتفاوض مع العدو.

رافقنا الشيخ مع اثنين من فرسانه حتى المدخل بعد أن أمر العرب

الذين كانوا في الداخل باحترامنا.

تركونا نتفحص الصروح. فارتأيت ومن باب الحيطة أن لا يدخل معنا سوى قسم من جماعتنا، وبقي الآخرون يرابضون على مسافة قريبة من التل، متأهبين لنجدتنا في حالة وقوعنا في مكيدة. وثبت جدوى هذا الإجراء الاحترازي. إذ وجدنا داخل الأسوار شعباً من مائتين أو ثلاثمائة من العرب البدو من ضمنهم نساء وأطفالاً، لم يكن هناك سوى منفذ واحد للخروج من هذه الأطلال، وكنا سنقع بسهولة بيد هؤلاء البربر ونذبح من قبلهم لو لم تردعهم القوات التي بقيت في الخارج، والتي كانوا يظنوا أنها اكبر مما هي عليه في الحقيقة، إذ راعينا عدم إظهار كل ما كان معنا من رجال، وقد بقي البعض في الخلف عمداً، يعسكرون على إحدى التلال، بل كان بإمكاننا ملاحظة ما يفعلون.

وما أن اجتزنا الشق حتى وجدنا أنفسنا في دهليز من الممرات التي تلتف حول البقايا المحيطة بالسور الكبير والمباني القديمة التي أخذنا نكتشفها تدريجياً. لم تكن هذه الممرات أو الأزقة محفورة على نحو منتظم، بل إن أقدام العرب والجمال والماعز حفرتها عشوائياً بين هذه الأنقاض. ومع أن عائلات القبيلة لم تشيد شيئاً، إلا أنها أفادت من جميع الجيوب التي شكلها سقوط الصخور الضخمة هنا وهناك واحتمت فيها، فاحتمى البعض في ظل جذوع الأعمدة أو في ظل تيجان الأعمدة، واحتمى البعض الآخر بقطعة قماش مصنوع من وبر الماعز الأسود، بعد أن تم شدها بأوتاد عند جوانبها لتشكل ما يشبه السقف.

أما الشيخ ونساؤه وأطفاله فقد كانوا بلا ريب يشغلون قصر القرية، وكان جميعهم يسكنون مدخل المدينة في أنقاض أحد المعابد الرومانية

الواقع على تلة عالية جداً فوق الممر الذي دخلنا منه، وكان منزلهم يتألف من كتلة ضخمة من الحجر المنحوت، تتدلى عامودياً وقد استندت إحدى أركانها على كتل صخرية أخرى تبدو وكأنها توقفت عند سقوطها، وكان هذا السديم من الأحجار يبدو وكأنه مستمرا في انهياره، ويوشك على سحق نساء وأطفال الشيخ، بيد أنهم كانوا يظهرون رؤوسهم من فوقنا خارج هذه المغارة الاصطناعية، لم تكن نساؤه محجبات، ولا يلبسن سوى قميص من القطن الأزرق يكشف عن صدورهن ويبقي سيقانهن عارية، ويحيط بهذه القميص عند الخصر حزام من الجلد.

وبدت لنا النساء هناك جميلات رغم الأقراط التي تخرم مناخيرهن، والوشم الغريب الذي يخط خدودهن ورقابهن، كان الأطفال عراة يجلسون أو يركبون الحصان فوق الكتل الحجرية المنحوتة التي كانت بمثابة شرفات لهذه المساكن المخيفة، في حين كانت بعض الماعز السود بآذانها الطويلة المتدلية قد تسلقت أبواب هذه المغاور، وصعدت إلى جانب الأطفال، كانت تنظر إلينا ونحن نمر أو تقفز من فوقنا وتنتقل من كتلة صخرية إلى أخرى فوق الممر العميق الذي كنا نمر فيه.

ورأينا بعض الجمال الممدة إلى جانب الأطفال هنا وهناك في الجوف البارد للبقايا الصخرية، وهي ترفع رؤوسها المفكرة الهادئة فوق قطع الأعمدة وتيجانها المهدمة، وكان المشهد يتغير في كل لحظة مما يزيد من حدة انتباهنا.

لو كان هناك رسام لوجد في هذا المكان ألف موضوع ذا أصالة لا سابق له في شكله المتغير بلا انقطاع وغير المتوقع، حيث امتزجت مساكن القبيلة مع بقايا المسرح والحمامات والكنائس والمساجد التي تملأ

هذا الركن من وجه الأرض. ولأن انعدم جهد الإنسان في إقامة ملاذ له على ركام المدينة المقوضة فقد اتخذت هذه المساكن أشكالاً ارتجلتها الصدفة الغريبة لسقوط الصروح، مما زاد من شاعرية المشهد وتأثيره.

كانت النساء تحلب الماعز على مدرجات المسرح، وهناك قطعان الغنم تقفز الواحدة بعد الأخرى على النافذة المقوسة لقصر يعود لأمير أو كنيسة قوطية من عصر الصليبيين، وهناك شيوخ يجلسون القرفصاء ويدخنون غلاييهم تحت السقف المزخرف لقوس روماني، وهناك جمال ربطت رسنها بأعمدة قصيرة مورسكية لإحدى أبواب صالات الحريم، نزلنا من جيادنا لننظر على نحو تفصيلي المواضع الرئيسية لهذه الأطلال.

Memoire de L'Orient/ Tome 1

ذكريات من الشرق

O O O

فولني **Volny**

الحياة العسكرية للبدو

تعددت الحوادث على مر الأزمان بين القبائل وتعددت نزاعاتها، وصار البدو يعيشون في حالة حرب دائمة، فضلاً عن أن نموذج عيش البدو جعل منهم شعباً ذا طابع حربي، رغم أنهم لم يحرزوا تقدماً في هذا الفن.

تتخذ معسكراتهم شكلاً دائرياً منتظماً إلى حد ما، متكونا من خط واحد من الخيام الواسعة نسبياً، وهذه الخيام منسوجة من شعر الماعز أو الجمال وبلون أسود أو بني، على عكس خيام التركمان التي تكون ذات لون مائل للبياض، وتشد هذه الخيام على ثلاثة أوتاد أو خمسة أوتاد، وتكون بارتفاع ستة أقدام فقط مما يمنحها شكلا مسطحا، وتبدو هذه المعسكرات للناظر إليها من بعيد وكأنها بقع سود، بيد أن عين البدوي الثاقبة لا تخطئها أبداً، وكل خيمة تسكنها عائلة مقسومة بستارة إلى قسمين يعود أحدها إلى النساء والأخرى للرجال، ويستخدم الفضاء الفارغ للدائرة الكبيرة لإيواء القطعان ليلاً، ولا يملك البدو معقلا لهم، فالحراس الوحيدون والدوريات هي الكلاب، وتبقى الخيول مسرجة ومتأهبة للركوب عند أول إنذار، بيد أن عدم وجود النظام والتقسيم جعل من هذه المعسكرات معرضة للمباغتة، ومجردة من أية وسيلة للدفاع في حالة الهجوم عليها، ولذلك فإن الحوادث تقع كل يوم، ومنها خطف البهائم، وهكذا فإن

حروب الإغارة هذه هي كل ما يشغل العرب.

وللبدو الذين يعيشون بجوار الأتراك موقف أكثر خطورة، في الواقع أن هؤلاء الغرباء قد أباحوا لأنفسهم وبوصفهم غزاة ملكية البلاد برمتها، وهم يعاملون العرب بوصفهم أتباعاً متمردين عليهم أو أعداء مقلقين وخطيرين، وعلى هذا الأساس فهم لم يكفوا عن محاربتهم سراً أو علناً، ويستغل الباشوات جميع المناسبات لمضايقة هؤلاء البدو، فتارة ينكرون عليهم أرضا كانوا قد أجروها لهم وتارة أخرى يطلبون منهم ضريبة لم يتم الاتفاق عليها، فإن أدى الطموح أو المصلحة إلى انقسام عائلة الشيخ قاموا بمد يدي المساعدة إلى هذا الطرف مرة وإلى ذاك الطرف مرة أخرى، حتى ينتهي الأمر بهم إلى إبادة الطرفين، وغالبا ما يعملون على تسميم أو اغتيال القادة الذين يخشون شجاعتهم أو ذكاءهم حتى وإن كانوا حلفاء لهم.

ينظر العرب من جهتهم للأتراك بوصفهم غزاة مستغلين وخونة، ولا يفوتون الفرصة للإساءة إليهم، ولسوء الحظ فإن الوزر يقع في الغالب على الأثرياء وليس على الجناة، إذ أن الفلاحين هم الذين يدفعون في الغالب ثمن ما ارتكبه رجال الحرب من أحداث، فعند وقوع أدنى إشارة إنذار يصار إلى تقطيع محاصيلهم ونهب قطعانهم وقطع طرق المواصلات عليهم وحجز تجارتهم، فيجمع المزارعون على اللصوص ولهم الحق في ذلك بيد أن البدو يطالبون بحق إعلان الحرب وهم ليسوا مخطئين، ومهما يكن الأمر فإن حالات النهب هذه تخلق بين البدو وسكان البلاد الزراعية خلافاً يجعل منهم أعداء لبعضهم.

هذه هي حياة العرب خارج المدن، إذ أنها تخضع إلى العديد من التقلبات وإلى حسن أو سوء تصرف القادة، ويحدث أحياناً أن تنهض قبيلة وتتسع في حين تؤول أخرى قوية على الانحطاط أو حتى إلى

التلاشي، ولا يعني هذا أن جميع أعضائها قد هلكوا بل يعني أنها اندمجت مع قبيلة أخرى، ولهذا صلة بالتكوين الداخلي للقبائل، أن كل قبيلة مؤلفة من عائلة أو من عدد من العائلات الرئيسة التي يحمل أعضاؤها صفة الشيوخ أو الأسياد، تمثل هذه العائلات إلى حد بعيد ما يشبه طبقة الأشراف في روما، أو طبقة النبلاء في أوربا، وينصب أحد هؤلاء الشيوخ قائداً على الباقين ويصبح قائداً عاماً لهذا الجيش الصغير، ويحمل في بعض الأحيان لقب أمير، وهو كلما كبر عدد أفراد عائلته وعدد أبنائه وحلفائه كلما ازدادت قوته ونفوذه، ويلحق إليه عدد من الخدم الذين يربطهم معه على نحو خاص ملبيا جميع حاجاتهم علاوة على هذا يلتف حول هذا القائد عدد من العائلات الصغيرة التي لا تملك ما يكفي من القوة تؤهلها للعيش على وجه الاستقلال، وهي بحاجة إلى الحماية والتحالف، ويسمى هذا التجمع بالقبيلة والتي بالإمكان تمييزها عن غيرها باسم رئيسها أو باسم العائلة التي تحكم فيها، وعندها يتم الحديث عن أفرادها بشكل عام، فنسميهم أولاد فلان على الرغم من أنهم ليسوا جميعا من دمه أو أن يكون قد توفي منذ زمن بعيد، وهكذا يقال بني تميم، وأولاد طي، وجرت هذه الطريقة في التعبير على نحو استعاري على أسماء البلاد، فالجملة العادية المستعملة للإشارة إلى السكان هي أن نقول أولاد المكان الفلاني، وهكذا يقول العرب أولاد مصر أي المصريين وأولاد الشام أي السورين أو لعلهم يقولون أولاد فرنسا أي الفرنسيين وأولاد موسكو أي الروس وهذا لا يخلو من أهمية نسبة للتاريخ القديم.

Voyage en syrie et en Egypte

رحلة إلى سوريا ومصر

○○○

موسيقى البدو

سرنا ساعات في الوديان الصامتة والمصوغة وسط تضاريس غريبة فكنا تارة بين كتل الغيرانيت الوعرة السمراء، أو الوردية، وتارة من كتل الغيرانيت الهشة الرمادية القابلة على التفتت، والتي حفرتها الأمطار وصقلتها منذ أقدم العصور، والتي كانت تبدو كمجاميع من حيوانات من عصور ما قبل الطوفان، سرنا في تلك المرة سوية ولم يكن لدينا الوقت لإرسال حقائبنا بسبب نقاش هذا الصباح.

التحق بنا ـ بعدما رفضناهم ـ حوالي خمسة عشر سائساً، كان كل واحد مع جمله، وقد كانوا ذاهبين للانضمام إلى قبيلتهم، فصاروا يواكبوننا كحراس لنا بلا ضغينة ويحادثوننا ويغنون.

نزلنا من مرتفعات سيناء واستعدنا تدريجيا الحرارة الطبيعية للأسفل، وعند المساء عثرنا من جديد على صحراء الرمال العميقة والمتساوية ذات النباتات الصغيرة بخضرتها الشاحبة التي تضوع بالعطور والأشياء الزكية. عند غروب الشمس عسكرنا وسط هذه النباتات الهزيلة ذات العطور الثمينة، وأحاط بنا من جميع الجوانب الفضاء اللامتناهي بعد تحررنا من الموضع المحصور بين كتل الغيرانيت الحمر الباردة بعد أن أبقانا سجناء في الأعلى لمدة أربعة أيام، واستعاد جبل سيناء بعد أن أصبح بعيدا حجمه الشاسع نسبة إلى الجبال المحيطة به، واستقام متوحدا برأسه

المغطى بالثلوج فوق بقية الجبال.

شعرنا بمرح طبيعي بعد أن تجردنا من أوشحة الصوف الأبيض السميك، لننطلق في الهواء الذي أصبح أقل دفئاً، وأصبح مشبعاً بالعطور، صوب الآفاق الخالية، متحررين لبعض الوقت من ثقل سديم الغيرانيت الساحق، وطفنا أكثر تحرراً وأكثر خفة حول خيامنا نحدق بالبدو عند الغسق وقد أصبحوا أكثر برية وأكثر جوعاً و أكثر قتامة، وهم الذين كانوا يؤلفون قافلتنا الجديدة.

وعندما حل ليل النجوم حافظت الرمال على لونها الحار الأصهب ذي النعومة الرائعة الذي كنا قد نسيناه، والذي كانت الإبل والأحراش تشكل فوقه باقات من البقع القاتمة، وجلس البدو الذين كانوا بصحبتنا في حلقة حول نيرانهم، وتصاعدت ألسنة اللهب المضيئة، والدخان الأبيض المثقل بالعطور نحو القبة الزرقاء المسودة، حيث كان يمر ضياء الأبراج مائلاً، وحيث تتلألأ مجاميع الكواكب كما لو أنها تقترب من الأرض، أو تتجلى من خلال مرايا مكبرة، عند ذاك شرعت القرب بالعويل، وصدر الصوت المبحوح للمجموعة محبوسا خافتا، إنها موسيقى لا عمر لها، كتلك التي كان يؤديها حتما الرعاة البدائيون هنا والتي كانت ترتعش مترددة واهنة في صمت كبير.

de Senai Le désert

صحراء سيناء

O O O

إيمان البدو

كنا نقرأ ونصلي ونثرثر، أنا وزوجي كم هو إيمان الرجال أكثر بساطة من إيماننا نحن النساء.

بالأمس أعطينا القهوة إلى العرب، أعطينا منها إلى الطائي الأبيض الطويل القامة مثلما أعطينها إلى الآخرين.

قرأ عليهم أجزاء من الفصل الحادي عشر من القديس لوقا:

(إذا طلب ابن من أبيه خبزاً فهل سيعطيه حجارة، وإن طلب منه سمكة فهل سنعطيه ثعباناً؟ وإن هو طلب منه بيضة فهل سيعطيه عقرباً؟).

كان العرب يجلسون القرفصاء، وهم يمسكون رؤوسهم بين أيديهم ليحسنوا الإصغاء، كانت عيونهم تلمع، وكان كلام المسيح يسقط رقراقاً على نفوسهم، وكانوا يدركون بالحال مغزاه العميق، فكانوا في كل مرة يطرح عليهم سؤال: هل سيعطيه حجارة، هل سيعطيه ثعباناً؟ يصرخون قائلين لا... ينبغي عليك أن تراهم وهم مأخوذون بهذه الأسئلة وتهافتهم بالإجابة عليها، لتدرك إلى أية درجة تتوائم تعليمات المسيح مع هذا الشعب، أنهى زوجي كلامه بقراءة للصلاة الدومينكانية التي استطاع البدو فهمها بسهولة.

فصرخ الطائي الأبيض الطويل القامة قائلاً:

ـ أتمنى أن تعيش قروناً عديدة.

ـ سنعيش عصوراً وعصوراً ولكن ليس على هذه الأرض.

ـ ليس الإنسان سوى آثم قال مبارك فمن الذي سيعطف عليه غير الله.

ارتفع القمر في السماء محاطاً بالنجوم، اشتعلت النيران واصطف البدو من حولها وألقى اللهب بضيائها على هذه المشاهد التي لن نراها عما قريب.

إن السهل مزروع برمته ما خلا بعض انقطاعات عند تخومه وفي وسطه، إذ كان يغذي ييسر شعباً يتضاعف بكثرة والذي كان يمده بقوته الإخصابية.

يقال أن الكثرة العجيبة لأنواع الشوك في جودي هي دليل على بورها بيد أن هذه الملاحظة ليست صائبة، إذ أن الشوك والذي نرى منه اليوم أنواعاً كبيرة الحجم تتسم بكبر أوراقها وارتفاع سيقانها وبريق أزهارها، وهي قريبة من الخرشوف، ولا يظهر إلا في الأرض الصالحة، فضلاً عن أن الجميع يعترف بان وجه البلاد قد تغير منذ خمسة عشر عاماً، إذ أن يافا التي كانت حواشيها قاحلة كالصحراء تتيه اليوم في غابة من أشجار البرتقال التي تملأ بتفاحها الذهبي مدن وقرى جودي، وتمتد الأراضي المزروعة في سوريا كلها، من الوادي حتى الجبال وتهبط الجبال إلى السهل وكأنها استعدادات لعيد ملكي، عيد الملك سليمان العائد على رأس شعبه.

ثم أن اللقالق كانت تتجمع على أشجار الزيتون لتمضية الليل هناك ـ

أما نحن الذين نمنا تحت الخيمة فعلينا النهوض قبل الفجر، إذ أن النهار سيكون طويلاً وجميلاً.

Journal d un voyage au Levant/ Tome III

يوميات رحلة إلى بلاد الشرق/ الجزء الثالث.

○ ○ ○

أوجين ميلشيور دو فوغويه **Eugen Melchior de Vogue**

القبائل

عسكرنا في عين ملاح على ضفة عين ماء واسعة، وكانت هناك واحدة من هذه القبائل التركمانية التي ربطت جيادها أمام خيام البوري، مما أجبرنا على القيام بالحراسة ليلاً، ولهذا السبب فكرنا بالاستدارة نحو الغرب بدلاً من النزول إلى النهر حتى بحيرة طبريا، وإلى أن نتسلق الجبال لنذهب للنوم في صفد، فهذه المدينة الصغيرة المثيرة للفضول مجهولة من قبل الرحالة، مع أنه يصعب عليهم حذفها من مسار رحلتهم.

وتتجلى صفد فجأة من على المثلث المقلوب، المؤلف من قمم الرابيتين كواحة منعشة، تكسوها أشجار الزيتون والتين والكروم، وتضم شرفات منازل طريفة المظهر، بينما تتعدى المدينة ثلاثة تلال مع المنحدرات التي تفصل بينها، وهي متموجة بأطلال قلعة قديمة.

أن هذه اللوحة المنجزة مؤطرة بأبهة الجبال التي نشاهدها في الخلفية في الحال، وتتقاطع خطوط القمم وتمتزج خطوطها مثل تظليل رسم على نحو رديء، وتتدرج عند كل مستوى بأنصال زرق أكثر نعومة بدرجات من الأزرق النيلي الغامق، في الطابور القريب حتى اللازورد الغامض للجبال الأخيرة للسامرة، وقد بدا كل شيء جديداً علينا ومثيراً كلما توغلنا في المدينة الصغيرة الضاحكة، التي يقال أنها تشعر بأنه

ينبغي عذرها على اصلها الغامض (إذ أن الإنجيل لا يذكرها) بالنظر إلى رشاقتها الحالية.

Voyage au pays de passe

رحلة إلى بلاد الماضي

○ ○ ○

فولني **Volny**

الحياة البدوية والدين

وإذا اعتبرنا أن ظروف عيش البدو، لا سيما الذين يعيشون داخل الصحراء، تشبه في نواح عديدة حياة المتوحشين في أميركا، فإني أتساءل أحياناً لماذا لا نجد لديهم الضراوة ذاتها؟

لماذا رغم معاناتهم من الفاقة فإن استخدامهم للغرائز البشرية هو فريد من نوعه؟

لماذا تكون سلوكياتهم أكثر وداعة وأكثر اجتماعية؟

وإليكم الأسباب التي وصلت إليها من تحليلي للوقائع:

أولا يبدو أن أمريكا غنية بالمراعي، والبحيرات، والغابات، مما يسترعي ساكنيها الحياة الرعوية أكثر من أي نوع آخر، بيد أننا إذا لاحظنا هذه الغابات لوجدنا أنها بتقديمها الملاذ المريح للحيوانات قد جعلتهم في منأى عن سلطة الإنسان، وجعلت من المتوحش محكوماً بطبيعة التربة، فأصبح صياداً وليس راعياً، وفي هذه الحالة ساهمت جميع عاداته على منحه صفة العنف، فقد أدى تعب الصيد الشديد إلى إكساب جسمه الصلابة كما أن حالات المجاعة الشديدة التي يتعرض لها وما يستتبعها فجأة من وفرة في الطرائد قد جعلته شرساً، لقد آلفته عادة سفك الدماء، وتقطيع الطريدة، مع الجريمة، ومع مشهد الألم، فإذا حاصره الجوع اشتهى اللحم، وعندما يجد لحماً شبيهاً في متناول يده

يهم بأكله، وبمقدوره العزم على قتل الإنسان كي يقتات عليه، وما أن يجتاز الاختبار الأول حتى يصبح الأمر عادة لديه، فصار من آكلي لحوم البشر، فهو دموي، وشرس، واكتسبت روحه من أعضائه بلادة إحساسها.

أما موقف العربي فهو مختلف تماماً، فهو المرمي على السهول الواسعة المقفرة بلا ماء ولا غابات، ولم يكن بمقدوره نظراً لانعدام الطريدة أو السمك أن يصبح صياداً للطرائد أو صياداً للسمك، فقد قصر البعير حياة البدوي على النوع الرعوي، فتشكل مجمل طبعه على هذا النوع، وعندما وجد في متناوله غذاء خفيفاً كافياً وثابتاً أصبح معتاداً على الزهد في المآكل، راضياً عن حصته في الحليب والتمر، ولم يشته اللحم، ولم يسفك الدم، ولم تعتد يداه على القتل، ولم تعتد أذناه على صرخات الألم، وهكذا فقد حافظ على قلب بشري وحساس.

وعندما تعرف هذا المتوحش الراعي على ركوب الخيل تغير شكل حياته قليلاً، إذ جعلت منه سهولة التنقل السريع في الفضاءات الواسعة متشرداً نوعا ما: فبعد ما كان شرها من جراء الفاقة، أصبح لصاً من جراء الجشع، وهكذا بقي طبعه ثابتاً، ولأن العربي هو ناهب أكثر منه محارب فهو لم يملك يوماً الشجاعة الدموية، فهو لا يهاجم إلا لكي يسلب، وإن جرت مقاومته فسيرى أن القليل من الغنائم لا يستحق أن يقتل من أجلها، وإذا سفك دمه فإنه يهتاج لذلك، سنراه عنيداً في الانتقام مثلما كان حذراً من عدم التورط، وغالباً ما نعيب على العرب روح النهب ولكن ـ ولا أريد أن أعذره، ولكننا لا ننتبه بما يكفي إلى أن روح النهب لا يوجهها إلا نحو الأجنبي الذي يعرف عنه أنه عدو، وبالتالي فإن تصرفه هذا يستند إلى الحق العام لدى غالبية الشعوب، أما

فيما يخص المجتمع البدوي من الداخل فتسود حسن النية، والنزاهة، والسخاء، مما يدعو للافتخار لدى المجتمعات الأكثر تحضراً، فهل هناك ما هو أكثر نبلاً من هذا الحق في اللجوء الذي تقره جميع القبائل، فما أن يلمس الأجنبي بل وحتى العدو خيمة البدوي حتى يصبح شخصه مصان، وإنه من النذالة والعار الأبدي أن يصار إلى انتقام حتى وإن كان شرعياً على حساب أصول الضيافة، فما أن يرضى البدوي بأكل الملح والخبز مع ضيفه حتى لا يكون بمقدور شيء في العالم من أن يدفعه إلى خيانته، وقد لا يكون بمقدور قوة السلطان من سحب الأرض من سحب لاجئ من إحدى القبائل إلا إذا أبيدت كلها، فهذا البدوي المعروف بشراهته خارج مخيمه ما أن يضع قدميه فيه حتى يصبح سخياً وكريماً.

فمهما صغر حجم ما يملكه إلا أنه على استعداد دائم لتقاسمه، وله من الرهافة ما يجعله لا ينتظر أن يطلب المقابل منه ذلك، فإن كان يتناول الطعام يصطنع الجلوس قرب باب الخيمة لكي يدعو المارة إليه، إذ أن كرمه حقيقي بمكان حتى أنه لا ينظر إليه بوصفه فضلاً بل واجباً، ولذلك فهو يعطي لنفسه الحق في مال الغير مثلما يعطيهم الحق في ماله، وإنك عندما ترى التصرف الذي يسلكه العرب فيما بينهم تخالهم يعيشون في مجتمع الملكيات المشاعة.

وهم مع معرفتهم للملكية إلا أنها لا تملك طابع الشدة الذي اكتسبته لدى الشعوب الزراعية جراء توسيع الحاجات المزيفة، وبإمكاننا أن نقول بأنهم يدينون بهذا الاعتدال إلى عدم إمكانيتهم في مضاعفة متعهم كثيراً، ولكن إذا كانت فضائل جموع البشر تدين إلى حتمية الظروف فإن العرب جديرون بحد ذاتهم بالاحترام، وهم سعداء بأن هذه الحتمية

قد أقرت بينهم حالة للأشياء بدت بنظر المشرعين الحكماء الكمال في تطبيق أنظمة السلامة العامة، وأعني بذلك نوعا من المساواة أو التقارب في تقسيم الثروات ونظام الشروط، ولأنهم محرومون من عدد من المتع التي غمرت بها الطبيعة البلاد الأخرى فقد صار لديهم عدد أقل من السبل إلى الفساد والانحطاط، وليس من السهل على شيوخهم تكوين زمرة تعمل على إذلال وإفقار مجموع الأمة، وما كان بإمكان كل فرد أن يكفي ذاته فقد استطاع المحافظة على سجاياه واستقلاله على نحو أفضل، فأصبح الفقر الخاص العلة والضامن للحرية العامة.

وتتسع هذه الحرية حتى تنال الأمور الدينية، فهناك ذلك الاختلاف الملفت للنظر بين عرب المدينة وعرب الصحراء، في حين يتحمل الأولون القيد المزدوج للاستبداد السياسي والاستبداد الديني، يعيش عرب الصحراء في تحرر من هذين النوعين من الاستبداد، صحيح أن البدو الذين يعيشون عند الحدود التركية يحافظون على مظهر المسلمين بيد أنهم ليسوا صارمين أبداً، وورعهم متراخ إلى حد بعيد حتى أنهم ينظر إليهم بوصفهم كفارا عادة، فهم يفتقرون إلى السنة والأنبياء، ويقولون طواعية بأن دين محمد لم يوضع من أجلهم، والسبب كما يقولون: كيف لنا القيام بالوضوء وليس لدينا ماء؟ وكيف لنا القيام بالزكاة ونحن لسنا أغنياء؟ ولماذا نصوم رمضان ونحن نصوم طوال العام؟ ولماذا نذهب إلى مكة طالما أن الله موجود في كل مكان؟ وخلاصة القول فإن كل واحد منهم يتصرف ويفكر كما يشاء ويسود التسامح التام بينهم، وقد ارتسم هذا التسامح في الحديث الذي جرى يوماً بيني وبين أحد شيوخهم ويسمى أحمد ابن بشير رئيس قبيلة العوايدة، وقد قال لي لماذا تريد العودة إلى الفرنجة بما أنك لا تحمل نكره عاداتنا، وبما أنك تعرف

حمل الرمح والجري على الجواد مثل البدوي، ابق بيننا سنعطيك العباءة المبطنة بالفرو، وخيمة، وشابة بدوية، ومهرة صالحة أصيلة، وستعيش في منزلنا، فأجبته ألا تعلم بأني وبعد أن ولدت لدى الفرنجة ترعرعت على دينهم؟ فكيف سينظر العرب إلى كافر وكيف سيفكرون بمرتد؟ فأجابني وأنت ألا ترى بأن العرب يعيشون دون الانشغال بالنبي وبالكتاب؟

إن كل واحد من بيننا يتبع طريق ضميره فالأفعال هي أمام البشر بينما الدين أمام الله.

علينا الاعتراف بأن ليس هناك سوى القليل من الأمم المتمدنة التي تملك أخلاقيات جديرة بالاحترام مثل العرب البدو، ومن الملفت للنظر أن هذه الفضائل هي ذاتها تقريباً موجودة أيضاً لدى الأقوام التركية والكردية بمقدار ما بدت متعلقة بالحياة الرعوية، ومن الغريب كذلك هو أن الدين لدى هذا النوع من البشر يملك قدرا أقل من الأشكال الخارجية لدرجة أننا لم نجد أبداً لدى البدو أو الأتراك أو الأكراد كهنة أو معابد أو عبادة منتظمة.

Voyage en syrie et en Egypte

رحلة إلى سوريا ومصر

ooo

عائلة شرقية

ثمة فناء صغير وسلم خشبي يؤديان إلى سطح مغطى بجريد النخيل، وخلف هذا السطح هناك غرفتان عاريتان تحف بهما أريكة وهي قطعة الأثاث التي لا يستغنى عنها لا الغني ولا الفقير في الشرق، وثمة عدد من أصص الزهور على السطح، وقفص عامر بالحمام الرمادي الجميل الذي يقتات على ما تقدمه له شقيقتا السيد (مالا غامبا) Malagamba وتحيط الرفوف بالجدران، وقد رصفت عليها بانتظام الأكواب والغلايين، وأقداح الشراب ومجمرات العطور المصنوعة من الفضة، وصلبان من الخشب المرصع بالصدف المصنوع في بيت لحم ـ هذا كل ما هناك من أثاث في هذا المنزل الفقير، حيث تعيش عائلة متروكة، وتمثل ـ مقابل معاش قدره ألف قرش (أي ما يعادل ثلاثمائة فرنك تقريباً) ـ إحدى مقدرات أوربانا.

استقبلتنا مدام مالاغامبا الأم طبقاً للعادات المألوفة في البلد، وقدمت لنا العطور وماء الأريج، وما أن جلسنا على الأريكة ونحن نمسح العرق من جباهنا حتى خرجت ابنتاها، كانتا حضورين سماويين من الغرفة المجاورة، وقدمتا لنا ماء ورد البرتقال والمربيات على أطباق من خزف الصين، كانت سطوة جمالهن من القوة على أرواحنا حتى كنا سنبقى رغم العطش وإعياء مسيرة اثني عشرة ساعة في تأمل صامت قبالة جمالهن الفاتن، دون أن نرفع الكأس إلى شفاهنا، لكن الأم استعجلت

وشرحت ما قدمته هاتان الفتاتان لنا.

كان الشرق برمته هناك مثلما حلمته في أعوام شبابي عندما كانت مخيلتي عامرة بالصور المسحورة بروعة الشرق وشعرائه، لم تكن إحدى الفتاتين سوى طفلة، إذ لم تكن سوى مرافقة لطيفة لأختها، كذلك الصور التي تعكس كل واحدة منها الأخرى.

وبعد أن قدمت لنا كل الرعاية والضيافة الأكثر بساطة والأكثر شاعرية، أتت هاتان الفتاتان عند ذاك واتخذتا مكاناً لهما بالقرب من أمهما على الأريكة المقابلة لنا. هذه هي اللوحة التي أريد التعبير عنها بالكلمات لاحتفظ بها في هذه المذكرات كما أرها في رأسي، فإننا نملك ما يجعلنا قادرين على الشعور بالجمال في كل درجاته ورهافته وغموضه، ولكننا لا نملك سوى كلمة مبهمة ومجردة لوصف الجمال. وهنا يكمن انتصار الرسم، فهو ينقل بضربة رشيقة، ويصون قروناً عديدة، هذا الانطباع الأخاذ الذي يحمله وجه المرأة، والذي لا يستطيع الشاعر أن يقول عنها سوى إنها جميلة، وعلينا أن نصدق كلامه، ولكن كلامه لا يرسم أبداً.

كانت الفتاة الشابة تجلس على البساط وساقاها مطويتان تحتها، كانت تتكئ بكوعها على ركبتي أمها، ووجهها يميل إلى الوراء قليلاً، فكانت تارة ترفع عينها الزرقاوين لتعبر لأمها عن دهشتها الساذجة من هيئتنا وكلامنا، وتارة أخرى تعيد نظرها إلينا بفضول ظريف ومن ثم تخفضهما تلقائياً، وتخفيهما تحت حرير رموشها السود، بينما يصطبغ خداها بحمرة جديدة، أو تلامس شفتيها ابتسامة خفيفة صعب عليها حبسها.

لقد بدأ لباسنا الغريب جديداً عليها، وأحدثت غرابة عاداتنا فيها

دهشة متجددة، وكانت أمها تشير إليها عبثا لعدم إظهار دهشتها خوفاً من إزعاجنا، وكانت بساطة وسذاجة انطباعها تتجلى على هذا الوجه ذي السادسة عشر ربيعاً، وتصطبغ ملامحها عند كل تعبير بعذوبة وشفافية كبيرتين حتى كنا نتبين الفكرة التي في رأسها قبل أن تعي هي ذاتها بها، وحتى أشعة الشمس التي تنزلق عبر الظل على الماء لم تكن تستطيع إبعاد أعيننا عنها، فكان مظهر هذا الوجه كافياً وحده لإراحتنا، هذا الوجه الذي لن ينساه أي منا على الإطلاق.

كان لمدموزيل مالاغامبا ذلك النوع من الجمال الذي لا تصادفه إلا في الشرق، إنه الشكل الناجز، كما نراه في التمثال الإغريقي، والروح المتجلية في النظرة كما هي عند ناس الجنوب، والبساطة في التعبير التي لم تعد موجودة لدى الشعوب البدائية. فعندما تتجمع هذه الشروط الجمالية الثلاثة في وجه امرأة واحدة، وتتناغم على وجه في ربيع شبابه الندي عيون تقرأ منها حتى أعماق الروح، لأن البراءة لا يخطر لها أن تخفي أي شيء، وعندما تكتشف رهافة التقاسيم والنقاوة العذرية للخطوط، وأناقة ومرونة الأشكال إلى الناظر، هذه الحساسية الشهوانية للكائن الذي ولد ليحب، والتي تمزج بقوة بين الروح والأحاسيس حتى إنك لم تعد تعلم وأنت تنظر إن كنت تشعر أو أنك تتأمل معجباً، عند ذاك يكون الجمال كاملاً، وتشعر بإزائه بهذا الرضى الكامل للأحاسيس وللقلب وهذه المتعة المتجانسة التي هي ليست ما يسمى حباً، بل لعله حب الفكر وحب الفنان، حب العبقرية للأثر الفني الكامل. وسيقول المرء في نفسه: الجو جميل هنا، وهو لا يستطيع بلا اكتراث أن يقتلع نفسه من هذا المكان الذي جلس فيه منذ قليل، طالما أن الجمال هو ضياء الروح وجاذبية القلب التي لا تقهر.

كان لباسها الشرقي يزيد من جاذبية شخصيتها، كان شعرها الطويل الأشقر الغامق المذهب خفيفاً مضفوراً فوق رأسها، في ألف من الجدائل التي تنسدل على جانبي كتفيها العاريتين، كان مزيجا مشتبكا من اللآلئ، والليرات الذهبية المنضدة، وتنتشر على شعرها زهور بيض وزهور حمر وكأن يداً مليئة بالجواهر قد انفتحت صدفة فوق هذا الرأس، وتركت لتسقط عليه كيفما اتفق هذا المطر من الورد والحلي كان كل ما ترتديه لائقا بها، فلا شيء يمكن أن يشوه رأس فتاة ذات خمسة عشر عاما. كان صدرها مكشوفاً كما هي عادة النساء العربيات، كانت تلبس رداء من الموسلين الموشى بازهار من الفضة ومعقوداً بشال حول خصرها، كان ذراعاها يمران في كمين فضفاضين ومفتوحين حتى مرفقيها، وسترة من القماش الأخضر التي كان ذيلها يتدلى بحرية على الوركين، ويكمل هذا الزي بنطلون ذو طيات عديدة، وكانت قدماها العاريتان مغلولتين عند الكاحل بحجلين من الفضة يصاحب رنينهما حركة قدميها.

Memoire de L'Orient/ Tome I

ذكريات من الشرق

○ ○ ○

القبائل

كنت ذكرت سابقاً بأن البدو ينقسمون إلى قبائل، تشكل كل قبيلة شعباً لوحده، وتستحوذ كل من هذه القبائل على مساحة من الأرض تشكل منطقة نفوذ لها، وهي لا تختلف في هذا المجال عن الشعوب الزراعية سوى أن هذه المساحات يجب أن تكون أكثر اتساعاً لتستجيب إلى حاجة القطعان خلال العام كله.

وتؤلف كل قبيلة من هذه القبائل معسكراً واحداً، أو عدداً من المعسكرات موزعة على المنطقة، وتطوف على أجزائها بالتتابع كلما استهلكتها القطعان، وهذا ما يفسر بأنك لا تجد على مسافة كبيرة أياً من السكان سوى بعض النقاط التي تتنوع بعدد ساكنيها من يوم لآخر، ولكن بما أن المساحة ضرورية برمتها إلى سد حاجة القبيلة السنوية فإن كل من يتجاوز عليها يعد مغتصبا لملكيتها، وهذا الأمر لا يختلف عن الحق العام للأوطان، لذا فإن دخلت قبيلة أو بعض أمرائها إلى أرض غريبة فتتم معاملتهم على أنهم لصوص وأعداء وتقع الحرب، ثم أن وجود علاقات النسب بين القبائل ووجود التحالف سيجر إلى تشكيل الجماعات، وإلى نشوب حروب شاملة، وسائل وقوع الحرب هي في غاية البساطة، فبعد أن يتم التعرف على الجرم يركب أحدهم الحصان ويذهب للبحث عن العدو، وعندما يلتقي به يتم التباحث بينهما، وغالبا ما يتوصلا إلى حل بينهما، وإلا فإن الهجوم سيقع بشكل مفارز راجلة أو على الخيول، فيزحف المتقاتلون على بطونهم ويخفضون الرماح وفي

بعض الأحيان يرفعونها رغم طولها على العدو الذي يهرب، ونادرا ما يتم التنازع لإحراز النصر، إذ أن الصدمة الأولى هي التي تحدده، ويهرب المغلوب على سهل الصحراء المستوي، ويواريه الليل عادة عن أنظار الغالب، وتقوم القبيلة التي هزمت بحل معسكرها وتبتعد على مضض لتبحث عن مأوى لدى حلفائها، ويدفع العدو الذي أرضى غروره بالقطعات بعيداً، ويعود الهاربون إلى مناطق نفوذهم بيد أن القتل الذي تخلفه هذه المعارك يولد بواعث على الضغينة، ويديم الفتنة.

أقرت المصلحة بالأمن المشترك لدى العرب ومنذ زمن بعيد بقانون عام ينص على أن دم كل رجل مقتول يجب أن يدفع من دم الذي قتله، وهذا ما يسمى بالثأر أو المعاملة بالمثل، يعود أمر تنفيذ هذا القانون إلى أقرب شخص من المقتول الذي سيوضع شرفه على المحك، فإن هو تخلف عن الأخذ بالثأر يناله العار مدى الحياة، ولذا فهو يتحين الفرصة للأخذ بثأره، وإن هلك عدوه من جراء سبب خارجي سوف لن يرضى ويوجه ثأره إلى أقرب فرد من الجاني، وتنتقل هذه الأحقاد كالأرث من الأب إلى الأبناء، ولا تتوقف إلا بعد انقراض أحد الطرفين، أو أن تقوم العائلات بالاتفاق على التضحية بالجاني، أو على شراء دمه مقابل مبلغ من المال يتفق عليه، أو مقابل قطعان من الماشية.

وإذا لم يتوصلا إلى التصالح فلن يتحقق سلم أو هدنة أو تحالف حتى بين القبائل المشتركة، وستبقى عبارة الدم بيننا تتكرر بينهم في كل مناسبة، وهذه العبارة هي حاجز لا يمكن تجاوزه.

Voyage en syrie et en Egypte

رحلة إلى سوريا ومصر

○ ○ ○

Gaustave Flaubert **غوستاف فلوبير**

وسط الصحراء

كانت الأرض متحركة ومليئة بالحصى والطريق وعرة، كنا في وسط الصحراء وكان ساسة النوق يغنون، وكان غناؤهم ينتهي بنغمة صفيرية وحلقية يحثون بها جمالهم، وعلى الرمل كنا نرى العديد من الطرق الصغيرة المتوازية الملتوية، إنها الآثار التي خطتها القوافل، فكل طريق هي أثر خلفه سير أحد الجمال، وفي بعض الأحيان نجد ما بين خمسة عشر أو عشرين طريقا فكلما اتسعت الطريق كلما ازداد عدد الطرق المتوازية، ومن موقع إلى آخر ما بين فرسخين أو ثلاثة تقريباً (وفي بعض الأحيان تكون المسافة غير منتظمة) كانت هنالك مساحة عريضة من الرمل الأصفر، بدت وكأنها قد طليت بلون أسود محمر صقيل، إنها الأماكن التي كانت الإبل تتوقف عندها للتبول.

Voyage en Orient

رحلة إلى الشرق

○ ○ ○

فرانسوا دو شاتوبريان Francois de Chateaubriand

وصف العربي

لقد بدا لي العرب حينما رأيتهم في جودي وفي مصر وحتى في البربرية طوال القامات أكثر من قصار القامات، وأنهم يسيرون بشكل متفاخر، وهم حسنوا الخلقة، ممشوقو القوام، لهم رأس بيضوي، وجبين عال ومقوس، وأنف أقنى، وعيون واسعة ولوزية، ونظراتهم ندية وعذبة إلى حد غريب، ولوا أنهم أبقوا أفواههم مغلقة دوماً لما دل شيء لديهم على الوحشية، بيد أنهم ما أن يبدأوا الكلام حتى تسمع لغة صاخبة وملفوظة بملء النفس، وتلحظ أسناناً طويلة فاتنة ببياضها كأسنان ابن آوى، أو النمر الأبيض، ولذا فهم يختلفون في هذا عن المتوحشين الأميركيين الذين تتجلى ضراوتهم في النظرة وتعبيرهم البشري في فمهم.

وللنساء العربيات قامة طويلة نسبة إلى قامات الرجال، ولهن هيئة مهيبة، ويذكر اتساق ملامحهن وجمال أشكالهن وطريقة وضعهن للحجاب بتماثيل الكاهنات وربات الفن، ولكن ينبغي أن يفهم هذا على نحو مطلق، فهذه التماثيل الجميلة تكون في الغالب مكسوة بالأسمال، إذ أن هيئة البؤس والوساخة والمعانات قد أتلفت هذه الأشكال النقية للغاية، وأخفت بشرتهن النحاسية اتساق ملامحهن، وبعبارة واحدة فإن أنت شئت رؤية هؤلاء النسوة كما وصفتهن لتوي، فعليك أن تتأملهن من بعيد، والاكتفاء بالمظهر العام، وعدم الدخول في التفاصيل.

Itiniraire du Paris a Jérusalem/ Troisieme et cinquieme partis

○ ○ ○

البدو

توقفنا في استراحة طويلة في الواحة، وتمددنا تحت أشجار النخيل وغمرنا أيدينا في المياه، ولم نمل النظر إلى القمم المقفرة من خلال الأوراق كانت بعض العوائل البدوية هناك تملك أكواخاً مؤلفة من سور دائري مغطى بالأغصان اليابسة وجميع هذه المساكن تقريباً هي مهجورة الآن ولا تأتي القبيلة إليها أبداً إلا وقت حصاد التمر، وفي تلك الأثناء رأينا على مسافة أبعد امرأتين محجبتين ترعيان قطعان ماعزهن السود بين الصخور، ألقى عدد من العرب التحية على رجالنا واصطحبوهم لشرب الحليب في أكواخهم.

أدهشتنا الالتفاتات الودية السائدة بين البدو، فهم يأخذونه بيد بعضهم ويتركونها عدة مرات وهم يكررون عبارة سلامات، وعندما يكونون أكثر حميمية يقبلون بعضهم البعض ثلاث مرات على الخد الأيمن، وبعد ذلك فقط يبدؤون بالحديث، وهم يتحدثون بعذوبة بالغة وبشيء من الصرامة، ويخرجون من عبهم الفواكه والشعير ويعطون لبعضهم البعض ما لديهم من الأكل، ويقدمونه لنا دون ما أية فكرة مبطنة بمثابة بقشيش، وإن كان البقشيش متبوعاً دوماً بالقشيش، وأنا لم أشعر بأمان أكبر مما كنت أشعر به بينهم، وكنت أشعر بأني محاطة بأفضل البشر. عند الظهيرة تركنا وادي فيران وأراجيحه من أشجار التمر هندي ومجموعة أشجار نوغوبس، وسحر خرير مياهه الجارية، وتعمقنا

في وادي سولاف، وعثرنا هناك على الفظائع الجميلة.

كنت أكتب جالسة على الرمل أمام حاجز في الغريز المصفر، وعلى يساري سيربال العجيب، وحولي تاج من الجبال الرمادية التي انسابت خلفها عدة إبر غيرانيتية.

غادر شيخنا مبارك الذي كنا قد رأينا لتونا خيامه السود في عمق أحد الوديان على اليمين، وهو على جمله يتبعه باهي واثنان من البدو إذ راح يقضي الليل وسط قبيلته.

عثرنا على كتابات سينائية ليس فقط في اتجاه منطقة سربال، حيث كان يعتقد بأنها موجودة جميعها هناك، مما كان يدعو إلى الاعتقاد بأن الحجاج الأوائل وكانوا يظنون بأن سيربال هي سيناء، بل عثرنا عليها أيضاً في اتجاه منطقة الحرب، حيث كان يعتقد بأنها غير موجودة، وذلك في وسط وادي سولاف الذي يدير ظهره إلى سيربال ويسير صراخه نحو سيناء، وبدءاً من وادي فيران لم يعد هناك من مرتفعات.

Journal d un voyage au Levant/ Tome III

يوميات رحلة إلى بلاد الشرق/ الجزء الثالث

○ ○ ○

لباس العربي

يلبس معظم العرب رداء معقوداً بحزام عند الخصر، وتارة ينزعون ذراعا من كم هذا الرداء فيصبح لباسهم على طراز الأقدمين، وتارة أخرى يلفون أنفسهم بغطاء من الصوف الأبيض يكون بمثابة توجه[٤٧]، إذ هم لفوا أنفسهم به، ومعطفاً إن هم علقوه على أكتافهم، ووشاحاً إن هم وضعوه على رؤوسهم، ويمشون حفاة القدمين، ويتسلحون بخنجر، أو رمح، أو بندقية طويلة.

تنتقل القبائل في قوافل، وتسير الجمال في خط واحد، فيربط الجمل الذي يترأس الجمال بحبل مصنوع من حشوة النخيل برقبة حمار يكون هو المرشد للقطيع، ويعفى هذا الحمار من حمل الأثقال نظراً لكونه الرئيس، ويتمتع بامتيازات عديدة.

وتكون هذه الجمال لدى القبائل الثرية مزينة بالسجف واليافطات والريش، وتعامل الخيول بأقل أو أكثر من الشرف تبعاً لنبل أعراقها، بيد أنها تعامل بصرامة قصوى ولا توضع الجياد في الظل مطلقاً، بل تترك معروضة لكامل حرارة الشمس، ومربوطة من أرجلها الأربع بأوتاد في الأرض على نحو يجعلها ساكنة، ولا ينزع منها السرج مطلقاً، وهي لا تشرب الماء سوى مرة واحدة، ولا تأكل سوى القليل من الشعير كل

٤٧ ـ لباس روماني فضفاض.

أربعة وعشرين ساعة، وان هذه المعاملة القاسية لا تهلكها بل تمنحها الرصانة والصبر والسرعة، ولطالما تأملت بإعجاب فرساً عربية مربوطة على هذا النحو فوق الرمال الحارقة، وكان شعر عنقها ينسدل مبعثراً، ورأسها محنياً بين ساقيها بحثاً عن القليل من الظل، وتسدد عينها الوحشية نظرة مائلة إلى سيدها، هل حررت قدميها من القيود؟ وهل وثبت على ظهرها؟ إنها تزبد وترتعش وتنهش الأرض، ويدق الطبل قائلاً:

(هيا بنا) وهكذا تتعرف على فرس جوب Job.

Itiniraire du Paris a Jérusalem

Troisieme et cinquieme partis

O O O

العربي

كنا جالسين أمام الخيمة ونرقب باهتمام بالغ حركة الساحة التي كانت كبيرة قياساً لضيعة عربية تائهة في هذه الصحارى، ومتنوعة بهذا المزيج من الشعوب، كان اليهود الغريبو الأطوار والقذرون بملابسهم الأوربية الرثة يلتقون بتواضع بالبدوي الذي كان على القدر ذاته من البؤس والقذارة ولكنه كان على الأقل يسير فخوراً عالي الرأس، وكان الشيوخ الجزائريون وجنود المتسلم التركي يمرون بعجلة على جيادهم الجميلة، وكان هنالك دائما مواكب حاملات القرب بأوشحتهن البيض عائدات من الينبوع إلى المنزل، وأمام أبواب المنازل كانت ربات البيوت يطهين في أفران صغيرة مخروطية من الطين المفخور، لها ارتفاع قدمين أقراص الخبز المسطح الخالية من الخميرة، والمصنوعة من طحين الشعير، انه الخبز البدائي الذي يؤكل في هذه المنطقة من زمن الأنبياء، فقد قال النبي إبراهيم لسارة عند استقباله للملائكة: (اطهي الخبز تحت الرماد).

كان كل منزل يتكور بقبح تحت شجرة للزيتون أو الخروب مزروعة في زاوية الشرفة، وقد ظل ظهور المدينة الرشيقة في أذهاننا بوصفه إحدى اكثر المفاجآت إمتاعا خلال رحلاتنا، فهذه المدينة قارنها شاعر المزامير بجدي ينط على كل وهادها وروابيها.

رحلة إلى بلاد الماضي Voyage au pays de passe

O O O

الفونس دو لامارتين **Alfonce de Lamartine**

خان العربي

وصلنا إلى الخان Kan أي إلى كوخ شبه مهدم، حيث يزرع العربي الفقير بعضاً من أشجار التين والقرع بين شقوق الصخور بالقرب من النبع. كان الكوخ مشغولاً من قبل بعض أصحاب الجمال من نابلس الذين يحملون القمح من سوريا إلى جيش إبراهيم، لقد أنضبت حرارة الخريف هذا النبع.

نصبنا مع ذلك خيمتنا على أرض مغطاة بالأحجار المكورة والمدحرجة، ربطنا جيادنا بالأوتاد وشربنا الماء باقتصاد، إذ لم يبق جرارنا التي ملأناها من بئر سليمان سوى القليل من القطرات، وبدأ الماء ينضب منذ أن تركنا سهل صور، وأخذت الجبال تهبط، وباتت الينابيع بعيدة عن بعضها البعض مسافة خمس إلى ست ساعات، وفي الغالب لا تجد عند وصولك، وفي قاع النبع سوى حوض جاف ومحترق وقد احتفظ بآثار أقدام الجمال والماعز التي كانت آخر من ارتوى منه.

في اليوم الحادي عشر رفعنا خيامنا على وميض ألف نجمة كانت تتلألأ في الأمواج الممتدة عند أقدامنا، واستغرق نزولنا إلى آخر الروابي التي تؤلف الرأس الأبيض ساعة دخولنا سهل (عكة Acre) وهي (بتلماس Ptolemais) قديماً.

ذكريات من الشرق Memoire de L'Orient/ Tome I

○ ○ ○

الكونتيسة دو غاسباران **Comtesse De Gasparin**

حياة البدو

كانت الأرض رملية في بعض الأماكن، وأكثر فتنة في الغالب ممتزجة بالحصى، كنا نعثر في صحراء السويس أما هنا فنحن نجتاز مناطق من الأحجار المصقولة، كان الجانب الذي تقف فيه هذه الأحجار على الأرض قد فقد من بريقه، أما ما تبقى فقد حافظ على ألوان لامعة وبدا صقيلاً، وكان من بين هذه الأحجار قطعاً دخيلة وأخرى تشبه المرمر الرقراق، إنها بزهور الصحراء في هذا المساء عند وصولنا رصد حراس القافلة غزالاً يخرج من الصحراء، وقد اجتاز الوادي في لحظتين وتاه وسط الجبال من جهة الشرق.

وصلنا إلى النبع الذي خرج منه رافد صغير كانت الأرض رطبة وكانت الأشجار الساقطة تدل على قوة دفع المياه في أوقات المطر، وقد تجلت بعض رؤوس أشجار النخيل القصيرة وسط أشجار التمرهندي، إنه عليهم الكتاب المقدس بطبيعة الحال، أن هذا الوضع يثبت الأوضاع الأخرى (عسكروا قرب المياه) وعلى الأرجح في هذا السهل الذي تشقق بقيعان السيول، والذي يمتد على أطراف وادي غورووندل.

كان هناك بعض من الرجال البدو يطحنون التمر هندي، لتأكله إبلهم، قدموا لنا حليب النوق، الذي كانوا يجلبونه في أوان من الحديد وقد طفح الزبد من حوافه، كان لذيذ الطعم واستمتعنا جميعا به وقام

باهي بطمس يديه الاثنتين فيه لكي لا يفوته شيئاً وأخذ يأكل بقبضته، ولكي نصل إلى وادي أوسيت، قطعنا قيعان السيول الجافة والهضاب المؤطرة على نحو غريب بالأعمدة واقتفينا آثار الغزلان، وانطلقنا نعدو صوب خيمنا المقامة قرب ثلاثة من أشجار النخيل، واتخذت الإبل الحاملة للحقائب أماكنها قرب النار، وكانت النباتات الشوكية تلمع والقمر عاليا، فياله من نهار أخاذ! أثنتا عشرة ساعة من السير على الأقدام أو على الجمل.

○ ○ ○

الحكايات عند العرب

إن كل ما يقال عن ولع العرب بالحكايات هو صحيح، وسوف أورد مثلاً على ذلك:

أثناء الليل الذي قضيناه على رمال البحر الميت، كان رجال بيت لحم جالسين يحيطون بكومة الحطب، وبنادقهم موضوعة على الأرض إلى جانبهم، وكانت الجياد مربوطة بالأوتاد، وقد تشكلت حلقة ثانية في الخارج، وبعد أن شربنا القهوة، وتحدثنا كثيراً مع بعضنا، سكت هؤلاء العرب باستثناء الشيخ، كنت أرى على وميض النار إيماءاته المعبرة، وشاربه الأسود وأسنانه البيض والأوضاع المختلفة التي تتخذها ملابسه، وهو يواصل سرد حكايته، فكان رفاقه يصغون إليه بانتباه عميق، وقد انحنوا جميعهم إلى الأمام، ووجوههم ممدودة صوب اللهب، مطلقين تارة صيحة إعجاب، مرددين تارة وعلى نحو مفخم إيماءات الراوي، وأن عدداً من رؤوس الجياد المشرئبة فوق القطيع، والمرتسمة في الظل تمنح هذه اللوحة طابع الأصالة المحلية، ولا سيما عندما نلحقها بمشهد البحر الميت وجبال جودي.

Itiniraire du Paris a Jérusalem

Troisieme et cinquieme partis

○ ○ ○

بيير لوتي **Pierre Loti**

ملابس العربي

ومن ثم حققنا متعتنا الطفولية عندما ارتدينا الملابس العربية، وهو أمر جديد نسبة إلى رفيقي رحلتي، ولكنه لم يكن كذلك نسبة لي.

صحيح أن هذه الملابس لم تكن ضرورية جدا لا سيما في هذا الجزء الأول من صحراء سيناء، حيث سبق وأن مر الكثير من الأوربيين من هنا، ولكنه يوفر راحة أكبر تحت الشمس الحارقة، ومثلها في الأمسيات الباردة، فضلاً عما ينطوي عليه هذا اللباس من هيئة جمالية لا يختلف عليها اثنان، عندما تراه وهو يزين صاحبها السائر في الصحراء فوق جمله، فعندما لا يكون المرء وحيدا فهو يدين للآخرين بفضل إزاحته للطخة اللباس الإنجليزي من لوحة صحرائه. إنها مسألة حسن تصرف تجاه القريبين منا، عندما يرتدي المرء ما يتواءم وحلم الفنان الذي بداخله.

ها نحن قد تخلصنا لعدة أيام من ملابسنا الغربية، وأمسينا أحراراً، وربما أكثر جمالاً في برانص وأوسمة طويلة تشبهاً بالشيوخ العرب، ونحن نتحرق للمغادرة صباح الأحد.

de Senai Le désert

صحراء سيناء

○ ○ ○

مقارنة العربي بالأميركي

وإني وإن سبق لي أن درست باهتمام بالغ الأثر، الأقوام الأميركية التي تعيش على حافة البحيرات، إلا أن ما تأملته هنا هو جنس آخر من الأقوام البرية، إن ما أراه تحت ناظري هم أسلاف العرق البدائي للرجال، وإني أراهم بالعادات ذاتها الموروثة من أيام هاجر وإسماعيل، وإني لأراهم في الصحراء ذاتها التي أورثها لهم الله، كنت التقي بهم في (وادي الأردن)، وأسفل جبال (السامرة)، على طرق (حبرون)، في الأماكن التي أوقف فيها Josue حركة الشمس في حقول (عامورة) التي بقيت تستشيط من غضب يهوا، حتى هدأتها معجزات يسوع المسيح برحمتها، إن ما يميز على الأخص العرب من شعوب العالم الجديد هو أنك تشعر على الرغم من فظاظتهم بنوع من الرقة في سلوكياتهم، فالمرء يشعر بأنهم قد ولدوا في هذا الشرق الذي خرجت منه كل الفنون وكل العلوم وكل الأديان، فأمام الكندي القابع في أقاصي الغرب في منطقة معزولة عن العالم، والذي يقطن في الوديان المظللة بالغابات الأزلية والمروية بالأنهار الواسعة، هناك العربي المرمي إن جاز القول على الطريق الرئيس من العالم بين أفريقيا وآسيا، ويتجول في مناطق الفجر اللامعة على أرض بلا شجر ولا ماء، وينبغي أن يكون بين الأقوام المنحدرة من إسماعيل أسياد وخدم وحيوانات أليفة وحرية خاضعة للقوانين، أما إنسان الأقوام الأميركية فهو لا يزال يعيش وحيداً

للغاية، مع استقلالتيه الفخورة القاسية، فبدلاً من غطاء الصوف يستعمل جلد الدب، وبدلا من الرمح يستخدم السهم، وبدلاً من الخنجر يستخدم الهراوة، ولا يعرف أبداً بل ويأنف من التمر والرقي وحليب البعير، ويطلب ولائماً من اللحم والدم وهو لا يملك وبر الماعز ليعطيه الدفء في خيامه، ويستمد من خشب الدردار البالي كساء لكوخه، وهو لا يروض الفرس لمطاردة الغزال، بل يطاردها بنفسه، وهو لا ينتمي بذاته إلى الأوطان العظيمة المتحضرة، وأنت لن تصادف ذكرا لاسم أجداده في سجل الإمبراطوريات التاريخي، أما معاصرو أجداده فهم أشجار البلوط التي لا تزال واقفة، وقبور آبائه صروحا للطبيعة، وليس لتاريخ تقف غير معروفة في الغابات المجهولة، وبعبارة أخرى فان كل شيء لدى الأميركي يعلن عن البري الذي لم يصل بعد إلى حالة الحضارة وكل شيء لدى العربي يدل على الرجل المتحضر الذي انتكس إلى الحالة البرية.

Itiniraire du Paris a Jérusalem

Troisieme et cinquieme partis

O O O

زراعة البدو

عند الطريق القصي من الوادي ينفتح السهل الذي يهبط إلى بحيرة طبريا، هذه البحيرة التي لا نكشف وجودها إلا عند المستوى الأخير.

كانت الأرض غير مزروعة ولكن خصوبتها تدعو إلى الدهشة، وقد جعل البدو منها منطقة نفوذ خاصة بهم، لم يكن هنالك سوى قريتين على ضفة البحيرة وهما طبريا ومجدلة Magdala وقد زرعت أطراف من الأرض من حولها، أما ما تبقى فكان مرعى واسعاً. يبذر البدو أحياناً أجزاء من هذه الأرض، وفي الغالب يتركونها مستريحة حيث يهبط السهل ويصبح مغطى بأدغال العشب والزهور. ثمة هضبة من الأحجار اجتاحتها النباتات البرية، وهنالك من وقت لآخر علامات على وجود العديد من القرى التي كانت مشيدة هنالك في الماضي.

وعند مغادرتنا للمضيق، أشار انطونيو إلى أطلال خان بدوي وكأنها أطلال قلعة، وكان هذا الخان يستخدم في السابق للبهائم، وكان التجار الذي يتجمعون فيه عدة مرات في العام، يتركون جيادهم وبقرهم فيه، ثم قال انطونيو:

(إذن لا يزال هناك لصوص والحمد لله وهم باقون حتى اليوم، وهذا هو السبب الذي جعلهم يحصنون الخان).

وإن لم يعد الخان موجوداً، فإن السوق ما يزال هناك، حيث يتجمع

البدو والعرب كل أسبوعين حول هذه الأسوار التي تجتاحها الأحراش، ليتبادلوا فيها قطعانهم، لقد كان السهل مهجوراً، واختفت تابور خلف إحدى الثنايا، بينما استمرت جبال الجليل برسم قاع اللوحة.

كان جبل الشيخ بقاعدته الشاسعة الزرقاء وقمته المبتورة المغطاة بالثلج يهيمن على مدرج الجبال التي تتكور بين جذوره والبحيرة، وكنا نرى بعض الأحيان بدوياً على فرسه وقد ألقى برمحه الطويل على كتفه، وأخذ يعدو عبر الأعشاب، أو يقتفي بمهل مرتسماً على الأفق الصافي، قمة اللوحة التي تنثني نحو البحيرة.

Journal d un voyage au Levant/ Tome III

يوميات رحلة إلى بلاد الشرق/ الجزء الثالث

○ ○ ○

أوجين ميلشيور دو فوغويه **Eugen Melchior de Vogue**

مباريات الجري عند عرب الصحراء

إن هذه المتعة الرجولية التي انحدرت منها مبارياتنا في العصر الوسيط تنطوي على أهمية أخرى غير تلك التي تكتسبها سباقات الخيول لدينا، والحقل المغلق الذي جرى فيه السباق هو الساحة الحجرية المتربة المسورة ببساتين الصبار الهندي، وهي تمتد أمام خيامنا، فانقسم اللاعبون والذين ارتدوا أفخر ثيابهم إلى معسكرين، وأخذ كل جانب يدفع مطيته التي أدمى خواصرها الركاب الواسع الحاد في حركة تحد نحو الآخر.

وما لبث الفرسان المهتاجون المنحنون على جيادهم المذعورة أن اختلطوا واصطدموا ببعضهم البعض، وهم يسعون إلى بلوغ بعضهم بواسطة رماح طويلة من الخشب متقاطعة في الهواء، ويمضون لضرب الهاربين في ظهورهم، أو يتعرضون على نحو خاطف لضربة المحاربين الماهرين، وسط التصفيق الحاد للمتفرجين، فعصفت غيمة في التراب تحت حدوات الخيول، وزركشت بالخضرة المصفرة لأشجار التين البري الستر المطرزة بالذهب، والمخططة بالأسود والأبيض، والكوفيات البراقة، والجزم الحمر العالية التي كان اللاعبون يرتدونها.

هرع حشد كبير من المشاهدين حول الملعب الصغير، وتمم حضورهم اللوحة، وقد احتجبت النساء تحت أوشحتهن الطويلة البيض

المتهدلة على تنوراتهن الوردية والبنفسجية، وثمة عدد لا باس به من الأطفال يرتدون اللون البرتقالي والأخضر التفاحي من الرأس حتى القدمين.

Voyage au pays de passe

رحلة إلى بلاد الماضي

O O O

بلد اللصوص

أي بلد بلا امتداد أو أفق، بلا وديان أو سهول، بلا أشجار ولا ماء، أي أرض تطغى عليها الكثبان الرمادية أو البيض، حيث يختبئ العربي اللص في عتمة المسالك لسلب المارة ـ وكان هذا ربما حال الطريق من أورشليم إلى يافا ولكن هذه هي جودي كما رأيناها في اليوم الأول من أعلى الروابي التي تحف بسهل عكة، وكما وجدناها من الجانب الآخر لروابي زابولون Zabulon أو الناصرة Nazareth، ومن أسفل جبل وردة هيرمون la Rosee de l Hermon أو من جبل الكرمل mono Carmel، وكما طفنا بها، بامتدادها وتنوعها، بدءاً من المرتفعات التي تشرف على صور وصيدا حتى بحيرة طبرية، ومن جبل طابور Thabor حتى جبال السامرة Samarie ونابلس، ومن هنا حتى جدران صهيون.

هذا أولاً سهل زابولون أمامنا، ونحن نقع الآن بين تموجين طفيفين للأرض، ولا يستحقان أن نسميهما رابية، أما القاع الذي يتوسطهما والمنحصر أمامنا فيشكل الممر الذي نمشي عليه، وقد خطته أقدام الجمال وهي تسحق غباره منذ أربعة آلاف عام، وأشرته الحفر العريضة والعميقة التي داسها ثقل أقدامهم الموضوعة على المواقع ذاتها فوق الصخور البيض الهشة، وهي الصخور ذاتها التي نجدها من رأس جبل صور حتى الصحراء الليبية Libyque. وعلى اليمين واليسار نرى السفوح المكورة للرابيتين وقد ظللتها من هنا وهناك مجاميع بمسافة

عشرين قدماً من الشجيرات المتنوعة التي لا تفقد أوراقها أبداً، وعلى مسافة أبعد تنتصب أشجار بجذور معقودة وتفرعات عصية متشابكة وأوراق ساكنة معتمة، كان معظمها من أشجار البلوط الأخضر من فصيلة خاصة، يكون ساقها أكثر خفة ورشاقة من سيقان البلوط في أوربا، أما أوراقها فهي مخملية ومدورة ولا تمتلك تخريم أوراق البلوط المعتادة، وتكمل أشجار الخروب والبطم وعدد أقل من الدلب والجميز الكساء الذي يغطي هذه الروابي.

ولا أعرف الأشجار الأخرى بأسمائها، فلبعضهن أوراق شجرة التنوب أو الأرز، وتشبه الأخريات (وهن أكثر جمالاً) أشجار الصفصاف بلون قشرته وخفة أوراقه ولونها الرقيق المصفر. بيد أنها تتفوق على الصفصاف إلى حد كبير بالامتداد والسمك والارتفاع، إذ بمقدور القوافل الكثيرة العدد أن تتجمع حول جذوعها الضخمة وأن تعسكر معاً بأمتعتها وجمالها وتحت ظلالها، وفي الفضاءات الواسعة العديدة التي تتركها هذه الأشجار المتنوعة عارية على سفوح الروابي، وتخترق الأرض طبقات صخرية بيض، وفي الأغلب رمادية تميل إلى الزرقة، وتبرز أمام السماء مثل عضلات متينة لهيكل بشري قوي، وتتمفصل بارزة في الشيخوخة وكأنها متأهبة لاختراق الجلد الذي يغطيها.

وعلى الرغم من هذا فهناك بين هذه الطبقات أو الكتل الصخرية أرض سوداء هشة وعميقة، كانت ستثمر بلا انقطاع وتنتج على الدوام الحنطة والشعير والذرة، لو قام أحدهم على تقليبها، أو غابات من الأدغال الشوكية والرمان البري وورود جرش Jericho، والأشواك الضخمة التي تصل سيقانها حتى رأس الجمل.

إن وصف إحدى هذه الروابي يمكن أن يمنحك فكرة عن كل الأخريات، ويمكن للمخيلة أن تتصور ما لهذه الروابي من تأثير حالما تراها وقد ورد ذكرها في مشهد الأرض المقدسة.

Memoire de L'Orient/ Tome 1

ذكريات من الشرق

○ ○ ○

بيير لوتي **Pierre Loti**

البدويات

... عند ذاك سمعنا أصواتاً نسائية، تلك الأصوات التي كنا نسيناها منذ أيام عديدة هي الأخرى، كن ثلاث بدويات يجلسن القرفصاء فوق الحمير، يجتزن المعسكر وهن يضحكن، ولم يكن أكثر برية من نساء الصحراء الحقيقيات، وعندما كن يرفعن أوشحتهن الزرق الغامقة التي انتشرت قطرات المطر عليها وذلك لرؤيتنا على نحو أفضل، كن يبدين وكأنهن علب، كانت وجوههن متوارية تحت شبكات من المحار والفضة، حيث كن ينظرن إلينا من خلالها، تلك الشبكات التي كانت تتدلى لامعة فوق رقابهن.

ثم سرنا بدروب حقيقية محفوفة بزهور التوليب وشقائق النعمان، وسط حقول الشعير التي سرعان ما غطت بحملها السهول. وعسكرنا مساء على العشب الرطب تحت السماء الرمادية وسط سهول الشعير الشاسعة، أقمنا بجوار قبيلة غنية للغاية، جاء شيخها في الحال لزيارتي في خيمتي ودعاني لتناول العشاء معه، وكان رائع الجمال له أنف قصير وعيون طويلة واسعة مليئة بالدعابة، كانت كوفيته من الحرير المموج والمحزز ة بالألوان العديدة، مربوطة إلى جنبيه بخيوط من الذهب، وكان يرتدي برنصين الواحد فوق الآخر الأول أبيض والثاني أسود وكان يلتحف بهما برشاقة ملكية.

وافقت على أخذ القهوة التقليدية معه لا غير، وذهبت إليه ساعة غروب الشمس وبرفقتي الشيخان حسن وآيات الله الذين أصبحا صديقي اللذين لا يفارقاني، كان الطريق إليه بعيداً نوعاً ما، وكان مقامه ينام تحت ريح المساء الباردة على العشب اللامع الذي كان لونه الذهبي أكثر شحوباً من اللون الذهبي للصحراء، وكانت خيمة الاستقبال من وبر الإبل على غرار جميع خيم القبيلة مفتوحة باتساع وكانت خالية إلا من عدد من الأسلحة الجميلة معلقة هنا وهناك.

de Senai Le désert

صحراء سيناء

O O O

فرانسوا دو شاتوبريان **Francois de Chateaubriand**

العرب والاستبداد الشرقي

ترتبط القدس ولا أدري لماذا بـ(الباشاليق)[٤٨] في دمشق، ولعل السبب يعود إلى السياسة التهديمية التي يتبعها الأتراك على نحو طبيعي وغريزي، ولأن القدس مفصولة عن دمشق لوجود الجبال، فضلاً عن وجود العرب الذين يغزون الصحارى، فلم يكن بمستطاعها على الدوام أن ترفع شكواها إلى الباشا عند تعرضها إلى قمع حكامها، وكان من الأيسر لها الاعتماد على (هفتلك عكا) الواقعة في الجوار، وكان بمقدور الإفرنج والآباء اللاتين طلب حماية القنصليات المقيمة في موانئ سوريا، وبمقدور الإغريق والأتراك سماع التهم، بيد أن هذا هو ما كان الأتراك يسعون إلى تجنبه تحديداً، فقد كانوا يريدون عبودية خرساء، وليس مسحوقين حلفاء يجرؤن على الوشاية بمن يسحقهم.

كانت القدس إذن تابعة إلى حاكم مستقل تقريباً، بإمكانه القيام بما يحلو له من الشرور بلا عقاب، إلا أمر تصفية الحساب مع الباشا التي ستكون فيما بعد، والكل يعلم أن كل مسؤول في تركيا له الحق تفويض سلطاته إلى من هو أدنى منه، وأن سلطاته واسعة على الدوام، وتشتمل على أملاك ومصائر التابعين، ويمكن لأي إنكشاري ـ مقابل بعض أكياس من المال ـ أن يصبح أغاً صغيراً، وبوسع هذا الأغا الصغير أن

٤٨ ـ ولاية الباشا في دمشق في العصر العثماني.

يقطع رأسك، أو يسمح لك أن تشتريه منه. وهكذا تضاعف عدد الجلادين في كل قرى جودي، الشيء الوحيد الذي تسمعه في هذه البلاد والعدالة الوحيدة المعمول بها هي:

شخص يدفع عشرة أو عشرين أو ثلاثين كيساً، وشخص سينال خمسمائة ضربة عصاً، وشخص سيقطع رأسه، فأي عمل غير عادل يدفع إلى عمل غير عادل أفدح منه، فان حدث سلب أحد الفلاحين فإن الفاعل سيشعر بضرورة سلب الجار أيضاً. فهو لكي يتخلص من النزاهة المزيفة للباشا يتحتم عليه امتلاك ما يكفي من المال يأتيه من جريمة ثانية، فيدفعه إلى الباشا ثمناً للإفلات من قصاصه.

وربما يظن البعض أن الباشا عند تجواله في ولايته يعمل على معالجة هذه المصائب ويثأر للشعب، إلا أن الباشا هو بحد ذاته مصيبة كبرى لسكان أورشليم، فكانوا يخشون وصوله كما لو كان وصول قائد عدو، فتغلق الحوانيت، ويختبئ الناس في السراديب، ويتظاهر بعضهم بالاحتضار فوق حصرانهم، ويهرب البعض الآخر إلى الجبل، وبإمكاني أن أشهد على هذه الوقائع، لأني كنت في أورشليم لحظة وصول الباشا.

يتصف عبد الله كما هو حال جميع الأتراك ببخل معيب، وكان يظن أن من حقه الإفراط في أعماله الابتزازية، بحجة كونه قائد القافلة إلى مكة، وأنه بحاجة للحصول على المال ليحمي به الحجاج على نحو أفضل.لم تكن هناك من وسيلة إلا وابتدعها، وهنالك واحدة غالبا ما كان يستخدمها وهي وضع تعريفة منخفضة للغاية على أسعار المواد الغذائية.

فيطير الشعب فرحاً، لكن التجار يغلقون محلاتهم، وتبدأ المجاعة،

ويتواطأ الباشا سراً مع التجار، فيعطيهم مقابل عدد من أكياس النقود إجازة بالبيع بالأسعار التي يريدونها، ولكي يستعيد التجار ما أعطوه من مال إلى الباشا يعملون على رفع أسعار موادهم إلى حدود غير محدودة، فيضطر الشعب الذي يموت جوعا للمرة الثانية ولكي يعيش إلى التجرد من آخر ما يملك من ثياب.

وقد رأيت عبد الله وهو يرتكب جريمة أدهى، فقد ذكرت في موضع آخر، بأنه أرسل فرسانه لسلب العرب المزارعين عند الجانب الآخر من نهر الأردن، إذ تفاجئ هؤلاء الناس الطيبون الذين لم يكونوا يعتقدون بأنهم في حالة حرب لأنهم دفعوا (الميرة)، وذلك بالهجوم عليهم وسط خيامهم وقطعانهم، وقد سرقت منهم ألفان ومائتا معزة وخروف، وأربعة وتسعون عجلا، وألف حمار، وستة جياد أصيلة، ولم يفلت منهم سوى الجمال، وإن كانت قد سرقت منهم ستة وعشرين منها، إذ صاح عليهم شيخ من بعيد فتبعوه، وكان هؤلاء الأطفال الأوفياء للصحراء ذهبوا لإعطاء الحليب لأسيادهم في الجبل، كما لو أحسوا أن هؤلاء الأسياد لم يكن لديهم من قوت آخر غير هذا الحليب.

ولا يتخيل الأوربي ماذا فعل الباشا بهذه الغنيمة، لقد حدد لكل بهيمة سعراً يتجاوز مرتين قيمتها الحقيقية، فقد قدر ثمن كل معزة وكل خروف بعشرين قرشاً، وأرسل البهائم بعد تحديد أسعارها إلى الجزارين، وإلى مختلف الخاصة من أورشليم وإلى رؤساء القبائل المجاورة، وكان ينبغي على هؤلاء جميعا شراؤها وإلا دفعوا الموت ثمنا لمعارضتهم، واعترف بأني لو لم أكن قد شهدت بأم عيني هذا الظلم المضاعف، لما بدا لي هذا الأمر معقولاً على الإطلاق، أما الحمير والجياد فقد بقيت بحوزة الخيالة، وذلك بموجب اتفاق غريب بين هؤلاء اللصوص ينص:

على أن تعود الحيوانات المجتزة إلى الباشا، وأن تكون البهائم الأخرى من قسمة الجنود.

وبعد أن أنهك الباشا أورشليم انسحب منها، ولكن لكي لا يدفع أجرة حراس المدينة، ولكي يقوي موكب حراسة قافلة مكة، اصطحب معه الجنود، فبقي الحاكم وحيدا مع عشرة من الجلاوزة غير الكافين لحراسة المدينة الداخلية، فما بالك بحراسة البلد برمته.

وفي السنة التي سبقت رحلتي إلى هذا البلد، اضطر الحاكم نفسه إلى الاختباء في منزله ليفلت من عصابات اللصوص الذين كانوا يمرون من فوق جدران القدس وأوشكوا على نهب المدينة، وما أن غادر الباشا حتى حلت مصيبة أخرى كنتيجة لطغيانه، إذ انتفضت القرى المنكوبة وأخذت تهاجم بعضها البعض تصفية لأحقاد قديمة، فانقطعت جميع الاتصالات، وهلكت المزروعات، فكان الفلاح يذهب أثناء الليل ليدمر كرمة وشجرة زيتون عدوه، وعندما عاد الباشا في العام التالي، طلب الإتاوة نفسها، إلا أن عدد سكان المدينة انخفض، فاضطر إلى مضاعفة جوره، وقرر أن يقضي على مجموعات سكانية بأكملها، فاتسعت الصحراء شيئاً فشيئاً، وأصبح مشهد الأكواخ المهدمة يمتد بعيداً، وأمام هذه الأكواخ عدد متعاظم من القبور، وسيشهد كل عام خراب كوخ وعائلة، ولم يبق بعد ذلك سوى المقبرة إشارة على المكان الذي كانت تقع فيه القدس.

Itiniraire du Paris a Jérusalem

Troisieme et cinquieme partis

○ ○ ○

أوجين ميلشيور دو فوغويه **Eugen Melchior de Vogue**

العربي

يجلس الشيخ العربي القرفصاء النهار كله على حصيرة في إحدى زوايا الصالة العارية، حيث يعلق أسلحته ويدخن السجائر، ويطهو على نار المنقل الخفيفة العديد من أكواب القهوة المعطرة بالكمون وبالأعشاب العطرية، هذه هي حياته، علاوة على الزيارات التي تتعاقب بلا انقطاع، أي أن ساكن المدينة أو بدوي الصحراء يدخل ويحيي سيد المنزل، ويجلس القرفصاء، يشعل غليونه أو سيجارته، ثم يخرج بعد نصف ساعة دون أن يكون قد تفوه بأكثر من عشرين كلمة، ولا يمكنني منع نفسي من الإعجاب مرة أخرى بذوق هذه المجالس وتحضرها، فهؤلاء الناس هم في النهاية قرويون وذوو وضع اجتماعي متواضع، وكم هو كبير هذا الاختلاف بين رصانة حديثهم ونبل تصرفهم وبين لا مبالاة شعوبنا وصخبها.

Voyage au pays de passe

رحلة إلى بلاد الماضي

○ ○ ○

الكونتيسة دو غاسباران **Comtesse De Gasparin**

ماء وصحراء لا ترحم

ليس من عادة العرب إعطاء الباقلاء إلى الإبل، بل كانوا يكتفون باصطحابها للرعي فجراً ومساء أيضاً، فقد كان الطوارق يسيرون النهار بأكمله، وكان هؤلاء القوم لا يسيرون على أقدامهم بل يقرفصون خلف متاعهم، ويسوسون دوابهم وهم على هذا النحو، كانت الصحراء أكثر حركة واخضراراً وازدهاراً من المعتاد، وكانت الوديان الضيقة والمغطاة بالرمل الناعم مرصعة بالزهور البنفسجية والصفر والوردية الشاحبة، وكانت الصيوانيات (فصيلة من ذرات الفلقتين) التي يبست أوراقها تنمو في الهضاب الواسعة، وكانت زهور الكوكليكو الحمر تتفتح هنا وهناك بين السيقان الجدباء للعشب، والذي كانت سنابله تتموج مع هبوب الريح، وثمة أوركاسيا صفراء وحامول عملاق يخرج من الأرض مليئا بالزهر، لم تكن هذه الأشياء تمثل نباتات لامعة فقد كانت التربة تتجلى من خلال هذه السيقان البائسة، ولم يكن للأحراش بعد سوى أوراق رمادية، ومع ذلك يشعر المرء بأن تلك الأرض كانت قد انتعشت مع نفحات الربيع، فقد كانت هناك عصافير تغني وهي تطير ملامسة الأرض، وهناك أرانب برية، وكنا ندوس بأقدامنا الآثار التي خطها البدو في العام الماضي، وتستريح الأرض هذا العام، بيد أن عمل الإنسان ترك عليها الماضي، وهناك آثار أخرى تعلمنا كيفية التعرف عليها في الصحراء والتي تؤشر

حوادث الزمن، فهناك أثر الغزال على الرمل، أربع حفر صغيرة متباعدة تدل على خفة القوائم الرفيعة التي شكلتها، وأثر قوائم الأرنب البري التي لا تتسم بالخفة دائما، ولكنها رعديدة مدفوعة بالخوف، وأثر قوائم الذئاب التي كانت أكثر صلابة، وتتبع الأخرى عن قرب، وأثر قوائم الضبع العريضة الثقيلة المجوفة والمحتالة، وأثر العصافير بتخريم رائع مليء بالنزق، فهنا ينط العصفور وهو يحفر بمنقاره هناك، وعلى مسافة أبعد حط ثلاثة أو أربعة عصافير وهو أمر بالإمكان التعرف عليه بفضل ما تخلف من رسوم مبرقشة متقاطعة على الرمال، وثمة أثر للنملة الكبيرة السوداء ذات السيقان الطويلة، إنه خط ممشوق متجه إلى هدف، وخط لألف من السحالي التي غطت السهل، لقد وقع نظرنا اليوم على إحدى هذه السحالي شبيهة بتلك التي رأيناها بالأمس، إلا أن لها رأساً أحمر.

توقفنا في الساعة الحادية عشرة عند حفرتين مليئتين بالمياه البيضاء تجمع فوقها مليونان أو ثلاثة من الحشرات التي انهمكت بألعابها المائية، شربت إبلنا الماء، وشربنا كذلك، ثم أصبح الماء أسود فملأنا اثنين من براميلنا، ووصلنا إلى شتلات كثيفة من القصب الأسمر الغابية، وتحيط بتلك الينابيع المائية إنه وادي أبو رتمات.

كان الجو لطيفاً، وللسماء لون أزرق يفيض ضياء أسرنا صامتين، ونحن نقرأ ونفكر ونستدير إلى الخلف متجنبين الارتماء بأنفسنا إلى الأمام، بل نرتقي إلى الأعلى في كل مرة يحملنا فيها الرب، كان الطائيون يرسلون عبر الصحراء بأصداء أصواتهم الفجة، لقد كانوا يتأتئون أكثر مما كانوا يغنون، كانوا متحدثين جسورين، وكانت

الجمال تتقدم بخط فوق الهضاب الرملية، وينتشرون في الوديان، ويشربون غير مبالين من برك المياه.

كان انطونيو يردد غالباً مثلاً عربياً أحبه كثيراً وهو: (اليوم الحمد لله... وغداً الله أكبر).

Journal d un voyage au Levant/ Tome III

يوميات رحلة إلى بلاد الشرق/ الجزء الثالث

ooo

بيير لوتي **Pierre Loti**

عطور الصحراء

مررنا من المنطقة المحيطة بالميرة، والآن صارت الصحراء برمتها تضوع شذا، إذ كانت هناك نباتات هزيلة صغيرة مبعثرة، تدوسها إبلنا فتفوح منها روائح شذية غير معروفة.

بدت أرض مسارنا ترتفع شيئا فشيئا وبدرجات بالكاد نحس بها صوب الهضبة المركزية، وستستمر بالصعود هكذا ليومين قادمين حتى ارتفاع العين حيث سنلتقي بسيناء. لم تصل التغيرات الجيولوجية في المنطقة التي كنا فيها إلى نهايتها، وبدا لنا بعض الجبال قد انهارت مؤخراً، وتفتت على الأرض محدثة أصواتا جليلة، وذلك لأن أطلالاً عملاقة ذات شقوق حديثة كانت لا تزال تشهد في كل مكان على وقوع المصيبة في الأمس، تابعنا صعودنا فوق تهشمات من الغيرانيت الأزرق أو الغيرانيت الوردي بين شكلين بائسين من الأحجار، والتي كانت متصدعة في الغالب حتى قاعدتها، وبدت وكأنها تتأهب لانهيار قريب، وفي الليل كنا نعسكر بين سورين شرسين ومخيفين من الغيرانيت الأحمر في واد عال، حيث للهواء برودة الثلج.

وفي اليوم الثالث كان هنالك رعد وبرق وغيمة ضخمة على الجبل وصوت بوق قوي أرعب شعب المعسكر برمته، وعند منتصف الليل استيقظنا على صوت فرقعة الرعد وكان صوته فخما مرعبا، هنا في هذا

الوادي المصوت المليء بالأصداء حركت رياح العاصفة منازلنا الهزيلة المصنوعة من قماش الكتان مهددة إيانا بإزاحتها، وكانت إبلنا تئن من حولنا تحت سيل المطر المفاجئ.

إن الريح هي أكثر عداوة للحياة البدوية من المطر فعند هبوبها ينبغي النهوض ودق أوتاد الخيام بضربات الحجر، إذ أن هذه الخيام تنفتح مثل الأشرعة وتقلع وتتمزق، ومن ثم يجب الانتظار والتأهب لفقدان ملاذنا ضد البرد القاسي، إنها محنة العجز والضعف اللامتناهي أمام انفلات القوى العليا.

وفي الخارج، في الوادي المظلم، حيث تسطع ومضات متكررة، كان يخيم رعب جليل، وكان الوادي كما لو أنه يهتز حتى قيعانه بأصوات مطرطقة أو صماء، كما لو كان يرتعش وينفتح وينهار، ومن ثم تقل الضربات وتتباعد وتتحول إلى شيء يخرج من الأعماق والمغاور، فكنا كمن يصغي إلى تدحرج العوالم من أعماق الهاويات البعيدة، وأخيراً يهدأ الصوت ويسكت وشيئاً فشيئاً يعود الصمت والأمان والنعاس إلينا.

وعند انتعاشة الصباح الهادئ، وعند شروق الشمس، وحينما افتح خيمتي تردني نفحة من العطر مع الهواء، وهي من النفاذ بمكان بدت وكأن أحد قد أتى وكسر قارورة عطور أمام بابي، وكان ذلك الوادي الحزين من الغيرانيت يضوع عطراً هو أيضاً كما لو كان معبداً شرقياً، وقد استعادت نباتاته الشاحبة التي أنهكها الجفاف الحياة بفعل مطر الليل، وصارت تنشر روائح لا تحصى، وظننا بأن الهواء قد امتلأ بالبنجوان والجيرانيوم، في البداية نظرت إلى الوادي المهجور الذي كان في غاية الغرابة والروعة تحت أشعة الشمس الصباحية، وكان يلوح بحافاته المشتعلة من الغيرانيت الأحمر، على خلفية الغيوم السود الممزقة

المتسارعة والشاردة نحو الشمال، كانت العاصفة لا تزال مستمرة هنالك في حين كان الهواء في الأسفل ساكناً يستريح، ومن ثم نظرت إلى الأرض حيث تصاعدت كل هذه العطور وكانت مغطاة بالبذور البيض مثل البرد بعد زخات المطر.

كان ذلك يشبه اللمان وهو ما حملته الريح والمطر في هذه الليلة، وعملت على تراكمه أمام خيمنا، جمعت هذه الأشياء الممتلئة والمستديرة بذوراً بيضاً قاسية جداً، لها مذاق قريب من الفرمونت، ثماراً يابسة من هذه النباتات الشوكية التي كانت تكسو بعض الأماكن، وعند جمعي لهذه الثمرة لامست عطور الأرض، واحتفظت بيدي ولأمد طويل برائحة زكية.

de Senai Le désert

صحراء سيناء

○ ○ ○

عبور الصحراء

عبرنا من سهل زابولون بعد أن تسلقنا تلالا صغيرة أكثر وعورة من الأولى إلى قرية سيفورا Sephora. كان هناك عدد كبير من الكتل الصخرية التي حفرت لتكون مقابر وقد خطت لنا الطريق حتى القمة التي جلست عليها سيفورا Sephor'a وعند وصولنا إلى المرتفع الأخير رأينا عاموداً منعزلاً من الغرانيت لا يزال منتصباً، ويؤشر موضعاً لمعبد وثمة تيجان لأعمدة منحوتة ممددة على الأرض أسفل العامود، وهناك بقايا ضخمة لأحجار مقطعة مأخوذة من بعض الصخور الرومانية العظيمة، كانت مبعثرة في كل مكان، تستخدم كحدود للحقول العربية، تمتد حتى مسافة ميل تقريباً من سيفورا Sephora حيث توقفنا للاستراحة عند منتصف النهار، ثمة ينبوع من الماء الرائق الذي لا ينضب يجري في هذا المكان يروي سكان اثنين أو ثلاثة من الوديان، وهو محاط ببضعة بساتين التين والرمان التي جلسنا تحت ظلها، وانتظرنا اكثر من ساعة قبل أن نتمكن من إرواء قافلتنا لكثرة عدد قطعان البقر والجمال التي كان يصطحبها الرعاة العرب القادمون من كل جانب في الوادي ـ وكانت هناك أنواع عديدة من الماعز الأسود والبقر تجوب السهل وسفوح الروابي الصاعد نحو الناصرة.

لقد نمت ملتحفاً بمعطفي في ظل إحدى أشجار التين على مسافة قصيرة من الينبوع، وتأملت طويلاً في هذا المشهد الذي يعبر عن الأيام

الماضية. كانت جيادنا مبعثرة حولنا وأرجلها مربوطة، وسروجها التركية على ظهورها، وكان شعر عنقها يتدلى وهي تطأطأ رأسها باحثة عن الظل.

كانت أسلحتنا من السيوف والبنادق والمسدسات معلقة فوق رؤوسنا على أغصان أشجار الرمان والتين، وهناك عرب بدو يلفون أنفسهم بقطعة واحدة من القماش مخططة بالأسود والأبيض المصنوعة من وبر الماعز، يجلسون حلقة غير بعيدين عنا، ويتطلعون إلينا بعيون الكواسر.

كانت النساء ترتدي ملابس تشبه ملابس نساء إبراهيم وإسحاق، رداءاً أزرق معقودا عند الوسط، وتنسدل بخفة عليه الطيات المقببة لرداء أبيض آخر، ويحملن على رؤوسهن جراراً فارغة يحملنها مليئة ومستقيمة على رؤوسهن، ويمسكنها باليدين كما هي تماثيل الكرياتيد في الاكروبوس، وهناك فتيات أخريات يرتدين الملابس ذاتها ويغسلن عند النبع، ويضحكن مع بعضهن وهن ينظرن إلينا، ومن ثم هناك من كن يرتدين أثواباً أكثر ثراء، ويضعن على رؤوسهن شرائط من الفروس أو الليرات الذهبية، ويرقصن تحت شجرة رمان كبيرة على مسافة قريبة منا ومن الينبوع، وكان رقصهن المتراخي البطيء يدور في حلقة رتيبة، تصاحبها من أن لآخر بضعة خطوات تفتقر إلى الفن، ولكنها لم تكن تخلو من الرشاقة ـ خلقت المرأة رشيقة وليس بمقدور العادات والتقاليد أن تغير من جاذبية الجمال الذي تملكه، ومن الحب الذي يكتنفها والذي تفصح عنه جميع أجزاء جسدها، لم تكن النسوة محجبات مثل جميع اللواتي رأيناهن حتى الآن في الشرق، وكانت تقاسيم وجوههن، على الرغم مما فيها من وشم طفيف، تملك من الدقة والاتساق ما يجعلهن يتميزن عن العرق التركي.

استمر الرقص والغناء طوال الوقت الذي امضيناه هناك للاستراحة، ولم يظهر عليهن الانزعاج لما أبديناه من اهتمام برقصهن وغنائهن ولباسهن. وقيل لنا بأنهن كن مجتمعات هناك بانتظار هدايا العرس التي ذهب أحد الشبان العرب لجلبها من الناصرة لخطيبته التي كانت واحدة من هذه الفتيات، وقد صادفنا في ذاك اليوم بالفعل هذه الهدايا ونحن في الطريق، كانت تشتمل على منخل لفصل الطحين عن النخال، وعلى قطعة من قماش الكتان، وقماش من نسيج أغلى ثمناً لعمل ثوب للخطيبة.

في ذلك اليوم، بدأت تتكون في داخلي انطباعات جديدة ومختلفة تماماً.

Memoire de L'Orient/ Tome 1

ذكريات من الشرق

O O O

فرانسوا دو شاتوبريان **Francois de Chateaubriand**

وحشة الصحراء

لا أظن أن أديرة سيته Scet كانت تقع في أماكن أكثر اكتئاباً وعتمة من المكان الذي كان يقع فيه دير القديس سابا[٤٩]، قد كان مشيداً في الوهاد حيث يقع مجرى سيل قيدرون، والذي كان على عمق ثلاثة أو أربعة أقدام، وكان هذا السيل في طريقه إلى الجفاف، ولا ينقل في الربيع سوى ماء موحل ومحمر، وكانت الكنيسة تقع على ربوة صغيرة عند قاعه، وترتفع هناك أبنية الصومعة عبر سلالم عامودية، وممرات محفورة في الصخر على سفح مجرى السيل، وتؤدي إلى ربوة الجبل، تنتهي ببرجين مربعين يقع أحد هذه الأبراج خارج الدير، وكان يستخدم في السابق كمركز لمراقبة العرب، ومن أعلى هذه الأبراج يمكن رؤية القمم القاحلة لجبال الجودي، وفي الأسفل تعرق بنظرك في الوهد الجاف لسهل قيدرون، وحيث ترى المغارات التي كان يقطنها في السابق الزهاد الأوائل.

وفي يومنا يعشعش الحمام الأزرق في هذه المغارات، كما لو إنه يريد أن يذكرنا بهديله وبراءته ورقته، يا للقديسين الذين كانوا يعمدون هذه الصخور في السابق.

ينبغي أن لا ننسى نخلة كانت تنمو عند أحد الجدران فوق أحد

٤٩ ـ يقصد دير المار سابا.

سطوح الدير، وأني متيقن بأن جميع المسافرين قد لاحظوها مثلي، إذ أن المحيط القاحل المخيف يجعلك تشعر بقيمة أية باقة من الخضرة.

أما فيما يخص الجانب التاريخي لدير القديس سابا فبإمكانك أن تستعين برسالة الأب نيريه، وبكتاب حياة الأباء في الصحراء، واليوم يرينا أهل هذا الدير ثلاثة أو أربعة آلاف رأس لرهبان ذبحهم الكفار.

تركني القساوسة مدة ربع ساعة وحيدا برفقة القديسين، ويبدو أنهم حزروا بأنه كان في نيتي أن أصف الحالة النفسية للمتوحدين في (طيبة) Thebaide، بيد أني ما زلت أذكر بألم بان أحد الرهبان اليونانيين أراد أن يحدثني عن السياسة، ويروي لي أسرار البلاط الروسي، فقلت له:

(وا أسفاه يا أبتي أين يمكنك أن تعثر على السلام إذا لم تجده هنا؟)

Itiniraire du Paris a Jérusalem

Troisieme et cinquieme partis

○ ○ ○

الكونتيسة دو غاسباران **Comtesse De Gasparin**

ساحل البحر وضفة الصحراء

أمضينا ساعتين على الضفاف ونحن نجمع القواقع، وأقدامنا العارية مغمورة في المياه الفاترة، كلما كانت أمواج البحر تنسحب كانت تترك عند الساحل نباتات بحرية ترتعش عندما نمسك بها، وهنالك أيضاً إسفنج وأغصان ومحار، كانت تتشكل مثل كتلة لامعة براقة، هنالك كنوز من القواقع، كان بعضها يلتف بشكل حلزوني وبعضها الآخر كان مفتوحاً، في صفائح مصقولة، بعضها مطلي بألوان براقة، وأخرى بيض مثل اللآلئ، وكانت ثمة رقائق من الصدف.

كنا نسير على أربعة قوائم فوق الرمل، نحك الأرض، ونجمع ما نراه في طريقنا، وكل لحظة تضعنا أمام شكل أكثر غرابة من سابقه، آه يا لها من ثروات خلقها الله. إن البحر ليس عميقا بجوفه فحسب، بل عميق على الأخص بهذه الكتلة الهائلة من المخلوقات والنباتات التي هي ليست مخلوقات ولا نباتات بل هي ربما الاثنين معاً.

إن ذكاء كل إنسان فائق الذكاء، وعلم كل إنسان أكثر علما ليجنحان أمام هذه القطعة الجيلاتينية الصغيرة التي ترتعش وتنكمش عندما نلمسها بأصابعنا.

Journal d un voyage au Levant/ Tome III

يوميات رحلة إلى بلاد الشرق/ الجزء الثالث.

○ ○ ○

بيير لوتي **Pierre Loti**

خبز الصحراء

كانت قافلتنا هناك في استراحة طويلة، وكان البدو يجلسون جماعات صغيرة حول النيران، واجتمع عدد من الأتراك معنا، فهنا مجموعة من بدو البتراء، وهناك جماعتنا من العرب الآشوريين، وهناك أيضاً المسافرون الأربعة المجهولون، أما الإبل وكان عددها يقارب الثلاثين فقد جثت غافية على ركبها وسط الرجال، كانت هناك جماعات متقاربة وأخرى متباعدة تتوزع حتى مدخل ألوان الظل الذي يلج المرء منه إلى هذا المكان، وهناك أيضاً مساحات صاعدة ذات ارتفاعات مختلفة فوق صخور ذات قواعد رائعة، وكان اللهب البهيج يضيء الوجوه الحالكة والأسنان البيض والسيوف اللامعة والبرانص الطويلة والأوضاع المهيبة والجلسات المقرفصة المحاكية للقرود، واختلاط الأعضاء العارية.

كان ذلك هو يوم طهي الخبز، بما يلزم لأسبوع، فوق الرماد، إنه الخبز الخالي من الخميرة، الخبز الذي له صلابة الحجر، مما كان يتطلب إضرام نار أكبر من العادة، نيران رائعة من أغصان الأشجار العطرة. كان ينبغي الكثير من اللهب لطهي هذا النوع من الخبز، لهب يكون من الارتفاع والاحمرار بمكان يجعل صخور الغيرانيت التي تعلوه تشتعل وتضطرم، متخذة لون الجمر نحو هذه السماء التي كانت حتى ساعة قريبة لامعة، وأصبحت الآن شبه سوداء وخالية من النجوم، وأشبه ما تكون بثقب

ظليل واسع، تراجعت في أعماقه بعيدا أكثر الأقمار شحوبا، وصار محتضراً، مزرقاً.

لقد ملأنا هذا الركن المتوحد الذي بدأ هواؤه قبل حلولنا به بكرا بأريج بدوي معقد، رائحة الإبل المسكية، رائحة الرجال الوحشية، رائحة الشبوق، ورائحة الأغصان المحترقة الشذية، عند ذاك نضج الخبز، وذوت النار، وانطفأت أحجار الغيرانيت هي الأخرى، واسودت، فاستعاد القمر الشاحب حضوره، واستعاد نوره الذي كان بلون الفضة والذهب، كان تغير المشهد مباغتا، كان استشباحا آخر حصل ليمنع أبصارنا التي سيغمضها التعب المقدس عما قريب. وصدر عن الحشرات المختبئة في الأحراش الهزيلة وفي النباتات غير المرئية موسيقى ربيعية سمعناها للمرة الأولى في الصحراء العربية، وبما أن وقت صلاة العشاء قد حان فقد وقف الرجال جميعهم: بدو البتراء، البدو القادمون من الأماكن الأخرى، ويمموا وجوههم شطر مكة القريبة جداً، وبدءوا يبتهلون سوية إلى إله الصحراء، عند ذاك تلاشى كل شيء أمام عظمة وهيبة تلك الصلاة، وسط هذه الصخور حيث تساقط شعاع القمر.

de Senai Le désert

صحراء سيناء

○ ○ ○

صحراء

كنا نرى هنا وهناك رأساً جبلياً حالكاً يتقدم إلى وسطه، أو فجوة تتغلغل عميقاً في السفوح المحطمة للجبل، كان سهل صور يمتد خلفنا، وبإمكان المرء أن يميز على نحو مشوش الأهداب الرملية الصفر والمذهبة التي ترسم حدوده الفاصلة بين البحر واليابسة، كنا نرى عتمة صور عند الطرف القصي لأحد النتوءات، والصدفة وحدها التي أضاءت بلا ريب النور على أطلالها، هذا النور الذي يخاله المرء من بعيد فنارا، ولكنه كان فناراً يدل على وحدتها وهجرتها، وهو فنار لا يرشد أي مركب، ولا يضيء إلا عيوننا، ويدعونا لإلقاء نظرة رثاء على أطلالها.

إن هذا الطرف فوق الهاوية مع كل الحوادث المتنوعة والرائعة والمهيبة الليل، والقمر والبحر، والهاويات، دام حوالي الساعة ـ ولكنها ساعة من اكثر الساعات رسوخاً في ذاكرتي، فيا لها من أشياء تلك التي سمح لي الرب برؤيتها على أرضه، إنها باب سامية أدخل منها في اليوم التالي إلى أرض المعجزات، على أرض الشهادة التي ما زالت مطبوعة بالقديم وبالجديد من الصلات بين الرب والإنسان.

ووقعنا عند نزولنا في هذا الرأس على المشهد ذاته الذي أدهشنا عند صعودنا. فها هي هاويات بالقدر ذاته من العمق، والصوت، وبياض الزبد، والمرقشة بكرات صخرية، كبيرة، بيضاء، وحية، وتنفتح تحت

أقدامنا وأنظارنا، ويتكسر البحر عليها بالدوي ذاته الذي رافقنا على امتداد الساحل الصاخب لسوريا كما تسميها القبائل البحرية القديمة، وكان القمر الذي زاد من تقدمه في السماء يضيء على نحو أفضل هذا المشهد الصاخب والمتوحد في آن معاً، وينفتح أمامنا سهل عكا الواسع.

كان الوقت هو التاسعة مساءً وكنا في شهر تشرين الأول، وكانت جيادنا المرهقة بعد مسير ثلاثة عشر ساعة، تضع ببطء أقدامها المحفورة بالحدوات على الصخور الحادة واللامعة التي تشكل وحدها الطريق إلى سوريا، وهي عبارة عن تدرجات غير منتظمة من الحجر، لا يمكن لأحد من أوربا التجرؤ على السير عليها بأية دابة مهما كانت، أما نحن، فكنا مثقلين بالفتور، ومندهشين من عظمة المشهد والذكريات المتسارعة للنهار.

كنا نسير بصمت على الأقدام، ممسكين بجيادنا من اللجام، نلقي تارة نظرة على هذا البحر الذي سيكون علينا اجتيازه لرؤية أنهارنا وجبالنا، وتارة على القمة السوداء الطويلة والخالية، فوق تعرجات جبل الكرمل الذي بدأ يرتسم عند الحدود الأخيرة للأفق.

Memoire de L'Orient/ Tome 1

ذكريات من الشرق

O O O

ملكة الصحراء

تركنا الدير عند الساعة الثالثة بعد الظهر، وعدنا لصعود سيل قيدرون، ومن ثم عبرنا مجرى السيل واستأنفنا طريقنا إلى بلاد المشرق، واكتشفنا القدس في شق في الجبال، ولا أعلم ماذا كنت أبصر، وأظن أني كنت أرى كومة من الصخور المحطمة، فقد كان للرؤية المفاجئة لمدينة الأحزان وسط زينة معزولة وقع مخيف، فقد كانت بحق ملكة الصحراء.

وتقدمنا في سيرنا، وكان مظهر الجبال على حاله دائما، أي أنه كان أبيض متربا خالياً من الظل والشجر والعشب والطحالب، وعند الساعة الرابعة والنصف، هبطنا من أعلى هذه السلسلة الجبلية إلى سلسلة أقل ارتفاعاً، وسرنا على هضبة مستوية إلى حد ما، لمدة خمسين دقيقة، وأخيرا وصلنا إلى الصف الأخير من الجبال التي تحف من جهة الغرب وادي الأردن، ومياه البحر الميت.

كانت الشمس على وشك الغروب، وترجلنا من على جيادنا لندعها ترتاح، وأخذت أتأمل على مهل البحيرة والوادي والنهر.

عندما يجري الحديث عن الوادي، فان ما يتصوره المرء هو واد مزروع أو غير مزروع، وهو عندما يكون مزروعاً يكون مغطى بالطحالب والكروم والقرى والقطعان، أما عندما يكون غير مزروع فإنك

تجد فيه المروج أو الغابات، وإذا كان يجري نهر يرويه، فان لهذا النهر تعرجات، وتملك الروابي التي تشكل هذا الوادي انعطافات يجذب مشهدها الأنظار ويمتعها.

أما هنا فليس هناك شيء من هذا القبيل، وليس من شيء هناك سوى سلسلتين طويلتين من الجبال الممتدة على نحو متواز من الشمال إلى الجنوب، بلا تعرجات أو انعطافات، وهنالك سلسلة الشرق والمسماة بالجبل العربي وهي الأكثر ارتفاعاً، وبالإمكان رؤيتها على بعد ثمانية أو عشرة فراسخ وكأنها جدار عامودي كبير يشبه تماماً جبال الجورا بشكله ولونه اللازوردي، ولا يميز المرء قمة أو ذروة، وكل ما يلاحظه هو انحناءات هنا وهناك، كما لو أن يد الرسام الذي رسم هذا الخط الأفقي على السماء قد ارتعشت عند مواضع منه.

أما السلسلة الغربية فتعود إلى جبال جودي، وهي اقل إرتفاعاً وأكثر تعرجاً من السلسلة الشرقية، وتختلف عنها بالطبيعة، وتشتمل على أكوام طباشيرية ورملية ضخمة، وتحاذي هيئتها حزماً من الأسلحة أو الأعلام المطوية، أو الخيم الجاثمة، أما من جهة الجبل العربي فهنالك على العكس صخور عامودية سود تلقي بعيداً بظلها على مياه البحر الميت، وقد لا يجد أصغر عصفور على هذه الصخور عشاً من العشب ليقتات عليه، فكل ما هنالك يعلن عن وطن لشعب منبوذ، ويبدو أن كل شيء يوحي بالرعب والمحارم الذي خرج عنها عامون وموآب Ammon et Moab ويكشف الوادي المحصور بين هذين السلسلتين من الجبال عن أرض شبيهة بقاع بحر انحسرت مياهه منذ أمد طويل، وسطوح من الملح، وبوتقة جفت، ورمال متحركة كما لو حززتها السيول، ونرى هنا وهناك شجيرات هزيلة نمت بصعوبة على هذه الأرض المحرومة من

الحياة، وأغصانها مغطاة بالملح الذي اقتاتت عليه، ولقشرتها طعم رائحة الدخان.

نلاحظ وسط القرى بقايا عدد من الأبراج، ويمر وسط الوادي نهر بلا لون، ويجر بنفسه على مضض نحو بحيرة نتنة تقوم بابتلاعه، ولا يمكن تمييز مجرى النهر وسط هذا المنبسط الرملي إلا من خلال أشجار الصفصاف والقصب التي تحف به، ويختبئ العربي في هذا القصب كي يهاجم المسافر أو يجرد الحاج من ماله.

هذه هي الأماكن الشهيرة ببركات السماء ولعناتها، تبدو وكأنها قد سممت أمواجها، فليس بوسع أغوارها المتوحدة أن تغذي أي كائن حي، ولم تدفع أية سفينة أمواجها أبداً، إن رمالها خالية من العصافير أو الأشجار والخضرة، وإن مياهها ذات المرارة المخيفة هي من الثقل بمكان حتى صار من الصعب على الرياح الأكثر عتواً أن تحركها.

Itiniraire du Paris a Jérusalem

Troisieme et cinquieme partis

O O O

بيير لوتي **Pierre Loti**

حدائق الصحراء

إنه الصباح، الصباح المشع، فاكتشفت لا على التعيين الواحة الجذابة حيث ستبقى مدينتنا الصغيرة المصنوعة من الكتان الأبيض ليوم أو ليومين، وفي الوادي كانت تجري مياه حية، صافية في أحواض من الغيرانيت الوردي المصقولة كالرخام والخالية من النباتات أو الطحالب، والتي كانت قيعانها الشفافة تشبه قيعان أحواض وضوء السلاطين.

كانت المياه تجري، تلك المياه النادرة، المياه الثمينة، المختبئة أحياناً عن آخر الثنايا الوردية للأحواض، وتارة تتدفق على طريق الأحواض مكونة مستنقعات رملية صغيرة، حيث ينمو القصب والتمر الهندي وأشجار النخيل الرائعة بأغصانها المنتشرة كالريش الأزرق.

كنا نتوقف أمام كل من هذه الحدائق البرية لنتأملها بإعجاب، ومن ثم وفجأة تحجب أحد الأركان الفردوسية عنا كتل الغيرانيت الضخمة، فلا نرى الأحجار المصقولة، ويدوم هذا حتى بدء المعجزة من جديد عند أحد المنخفضات، وحتى ظهور واحدة من الرياض الغناء.

كان من الطبيعي أن تكون شفافية السماء كريستالية، كما ينبغي لسماء عدن أن تكون، كانت العصافير تغني على سعف النخيل، والحشرات ترتجف جاثمة على أغصان الخيزران، وكانت انعكاسات الشمس تنساب إلينا رغم الصخور التي تعلونا، وتأتي لتتراقص على

بعض المواقع من سيل المياه المتحركة، وعند أحد الأحواض العميقة ذي الجوانب الناعمة الشبيهة بقبر ملك ما، أوقفت نزهتي لأستحم فيه، ومن ثم لاحظت وأنا أرفع عيني حيوانات ضخمة لها أشكال حيوانات عصر ما قبل الطوفان، كانت تنحني من حافة المنحدرات العالية، تنظر إلي وتنم عن هيئة حميمية بي، إنها إبلنا التي كانت تمعن التفكير بالوسيلة التي تمكنها من النزول إلى المياه المشتهاة، والتي كانت كذلك تتذوق ربما وعلى طريقتها عذوبة الصباح، في الواحة كان بإمكاننا الطواف في جميع الأرجاء ببابوج خفيف أو في أقدام عارية، إذ كانت كتل الغيرانيت قد بليت بفعل تقادم العصور الهادئة عليها، وهي اليوم تفتقر إلى الرؤوس الحادة، وأصبحت ثقيلة ناعمة، وكان هنالك الرمل الناعم الذي كنا نسير عليه كما لو كان مخملا، فأضفنا عليه آثاراً إنسانية زيادة على ما تركته النمور والغزلان، فضلاً عن هذه البقعة من العالم حيث ينعدم المطر والدخان والتراب والعرق ولا يتسخ المرء فيها أبداً، وبإمكان أي كان من أن يسير عليها أو الاضطجاع على الأرض اليابسة النظيفة دون أن تتسخ الأوشحة الطويلة البيض التي كنا نرتديها، والتي كانت الشمس والأنسام الحية تتسرب إليها من تحتها كي تجعل الصعود أكثر صلابة وأكثر سمرة.

كان هنالك سلام من نوع خاص، سلام لا يضاهيه سلام في تلك الواحة غير المدنسة، والتي كانت الصحراء الشاسعة الميتة تحيط بها من جميع الجهات وتحميها، فقضينا هناك وبلا تعجل ساعات انتظارنا.

de Senai Le désert

صحراء سيناء

O O O

غوستاف فلوبير **Gaustave Flaubert**

رياح الخماسين

كان الجو حاراً وكانت رياح الخماسين تتقدم على يسارنا آتية من جهة النيل الذي كنا بالكاد نرى بعضا من النخيل الذي يحف به، اتسعت دوامة الرياح، وتقدمت نحونا، وكانت غيمة عامودية شاسعة، فكانت قبل أن تلفنا تحوم فوق رؤوسنا، بينما كانت قاعدتها الواقعة جهة اليمين لا تزال بعيدة عنا، كانت بلون أسمر محمر ذات حمرة شاحبة، ثم أصبحنا في قلبها، فالتقينا بإحدى القوافل، كان الرجال متشحين بالكوفيات، والنساء متحجبات بصرامة، وينحنون على رقاب الإبل، مروا قربنا ولم نتبادل شيئاً من الحديث، كانوا مثل أشباح في الغيوم، شعرت بأن إحساساً من الرعب والإعجاب الغاضب ينساب على امتداد ظهري، ضحكت بعصبية، لا بد أني كنت شاحباً جداً ومستمتعاً جداً على نحو غريب، فقد بدا لي أثناء مرور القافلة بأن الإبل لم تكن تلامس الأرض، وبأنها كانت تتقدم عند مستوى الصدر بحركة مثل حركة المركب. وبأنها كانت مدعومة هناك، وجد مرتفعة فوق الأرض كما لو أنها تسير في الغيوم، وكانت منتظمة فيه حتى بطنها.

كنا نلتقي بين الفينة والأخرى بقوافل غيرها، في البدء رأينا في الأفق خطاً منبسطاً بالكاد يتميز عن خط الأفق، ومن ثم ارتفع هذا الخط الأسود فوق الآخر، ثم لم نلبث أن رأينا من فوق هذا الخط نقاطاً صغيرة، ثم ارتفعت هذه النقاط الصغيرة، إنها رؤوس الجمال التي تسير

في المقدمة بتأرجح منتظم يمتد على طول الخط، وكانت تلك الرؤوس تشبه أحمال رؤوس النعام.

كانت الرياح الحارة تهب من الجنوب، وكان للشمس هيئة قرص من الفضة المسمرة، فاجتاحتنا عاصفة ثانية، وتقدمت مثل دخان الحريق، لها لون السنام مع تلوينات سود تماما عند القاعدة، إنها تسير، وقد لفتنا الستارة المنتفخة الملولبة عند الأسفل، بحواشيها العريضة السود، وبعدما غلفتنا أصبحت الريح تضرب بقوة جداً، حتى أننا تعلقنا بسروجنا كي لا نسقط، وعندما مر الجزء الأعنف من العاصفة والذي كان مطراً من حصى صغير دفعت به الرياح نحونا، أدارت الإبل مؤخراتها وتوقفت وهوت.

واصلنا الطريق مرة أخرى عند الساعة السابعة والنصف مساء، وغيرت الإبل طريقها فجأة واتجهت نحو الجنوب، وبعد لحظات لاحظنا من خلال الليل عدداً من الأكواخ عند مستوى الأرض، تنام الإبل حولها، إنها قرية، وكان هناك بئر ماء صالح لإرواء الإبل، وكان هناك ما يقارب الاثني عشر كوخاً لها أشكال خالية من الاتساق، مكونة من أكواخ من حجر يابس، ومن حصر القش يسكنها العبيدية، وثمة عدد من الماعز كانت تبحث بين الأحجار عن قليل من العشب، وهنالك الحمام الذي ينقر ما تبقى من قش الجمال، وهناك gypaetes من يطوف بمبخرته حول الأكواخ وقد امتنعت من إعطائنا الحليب، كانت حلمة إحداهن، وكانت سوداء، تتدلى حتى أسفل الصرة، وقد كانت مرتخية كالجلد، وهي عندما كانت تقف على قوائمها الأربعة، كانت الحلمة تنسحب على الأرض.

Voyage en Orient

رحلة إلى الشرق

○ ○ ○

ألفونس دو لامارتين Alfonce de Lamartine

مشهد الصحراء العربية

كان الخط الأخضر الحالك يبرز على خلفيته السماء ذات الزرقة الغامقة والمموجة بالأبخرة الحارة، كالتي تخرج من فوهة الفرن. كانت سفوحه الوعرة مرصعة بنباتات قوية جدباء، فترى في كل مكان طبقة مزدحمة بالشجيرات، تغطيها هنا وهناك الرؤوس المتوحشة لأشجار البلوط، وتخترق هذه الخضرة صخوراً رمادية نحتتها الطبيعة بأشكال غريبة وضخمة، وتنعكس أشعة الشمس الساقطة عليها. هذا هو المنظر الذي كنا نراه على امتداد البصر، عن شمالنا أو عند أقدامنا، وكانت الوديان التي نسلكها تهبط في منحدرات خفيفة، وتبدأ بالانفتاح على السهل الجميل. وتسلقنا التلال الأخيرة التي كانت تفصلنا عن هذا السهل الذي ما أن يغيب عن نظرنا حتى يعود في الحال، وهذه التلال الواقعة بين فلسطين وسوريا البحرية، كانت واحدة من اكثر المواقع التي شاهدناها رقة ونهاية في آن معاً.

وكانت غابات البلوط المنتشرة هنا وهناك بنباتاتها البرية تشكل فرجاً ممتدة، مغطاة بالمرج المخملي مثل المروج في الغرب، وترتفع خلف قمة جبل طابور Thabor مثل معبد فخم متوج بالأكاليل الخضر في سماء من النار، وعلى مبعدة منه ترتعش القمة الزرقاء لجبال جيلبوه Gelboe وروابي السامرة في موج الأفق.

Memoire de L'Orient/ Tome 1

ذكريات من الشرق

○ ○ ○

بيير لوتي Pierre Loti

دير وسط الصحراء

انتهى الأمر بالمصباح الصغير الذي كان يرتجف أمام الأيقونة إلى الانطفاء، في تلك اللحظات أيقظتني النواقيس التي دقت باعثة ارتجافات قصية في الصمت المطلق، ومن ثم فقدت من جديد وعيي بكل الأشياء حتى اللحظة التي رأيت فيها تسرب شعاع الشمس من خلال نافذتي الخشبية، كان فتح الباب يمثل لحظة مفاجئة قريبة إلى الإنسحار لشدة غرابة المكان، كانت الأشياء العجيبة التي لمحناها بالأمس عند وصولنا في الصباح موجودة هناك في ذلك الصباح البارد منتصبة وحقيقية جداً وواضحة إلى حد غريب تحت الضياء الأبيض الساطع، متراكمة على نحو لا يصدق، كصفائح وضعت بعضها فوق بعضها الآخر بلا أفق لشدة ما كان الجو نقياً، وصامتة كما لو أنها ماتت أثر شيخوخة ألفية، فكانت هنالك كنيسة بيزنطية ومسجد وبيوت صغيرة وحواجز وسلالم متشابكة، وأروقة وأقواس صغيرة تهبط إلى المنحدرات، كل ذلك في أشكال مصغرة متناضدة في فضاء جد صغير، ومحاطة جميعها بالأسوار الضخمة، لها ارتفاع ثلاثون قدماً، ومعلقة على جوانب جبل سيناء العملاق، كانت الشرفة التي تنفتح عليها حجراتنا تشكل جزءا من مجموع الأبنية هذه التي لا عمر لها، والمنحنية البالية والتي أصبح البعض منها خرائب، واستعادت اللون الأحمر للون الغيرانيتي الأصلي، واكتسى البعض الآخر لون الكلس الأبيض، وما أن كنا نستنشق الهواء

الطلق جداً حتى أدركنا وجودنا على ارتفاع شاهق جداً، مع ذلك فقد كان هنالك ما يعلونا من جميع الجهات، كما لو كنا في قاع بئر، فقد كانت جميع القمم القصوى لجبل سيناء تنتصب في الهواء متسلقة السماء شبيهة بأسوار عملاقة مقولبة ومحززة جميعها من الغيرانيت الأحمر ـ بلون أحمر دموي بلا لطخات أو ظلال عامودية ـ وتصعد إلى الأعلى فتصيبك بما يشبه الدوار والرعب. والقليل الذي كنا نراه من السماء كان ذو زرقة رقراقة عميقة، والشمس كانت تضيء على نحو رائع، وكان شيء من الثلج البراق لما يزل يغطي كل هذه الأشياء ويتوج بالمخمل الأبيض أعالي الأسوار العتيقة، ويشير هنا وهناك وبخط أبيض إلى جميع الحزوز العظيمة التي كنا نتبعها، ونحن نرفع رؤوسنا عاليا أثناء صعودنا نحو سمت السماء المدهش، تحت الشمس، وهذا الثلج كنا نحس فعلاً بوجوده في هذا المقام المتوحد وقد أحاط بالصحراء من كل الجهات.

de Senai Le désert

صحراء سيناء

O O O

سراب في الصحراء

وتتتابع أمامنا عند الجنوب الجبال الصغيرة والوديان، وعند هذا المستوى الجنوبي حدثت هذا الصباح آثار عجيبة من السراب، فقد رأينا صفا من الأشجار المزروعة بانتظام تمتد أمامنا لها جذوع مستقيمة ورؤوس مدورة، عملت هبة ريح على مسحها، ولحظة هدوء على إعادة انتصابها، وقد اختفت وعند اقترابنا منها لم تجد في موضع جادة القصور سوى بعض من النباتات العجفاء وحصل مشهد آخر، إذ شاهدنا رصيفا ضخما محطم عند بعض من أماكنه، غطست قدماه في البحر واجتاز الخليج برمته، لقد كان مشهداً ساحراً، وقد افترضنا أن هذا الرصيف العملاق قد استمد وجوده من أحد أسوار الرمال الضخمة المحيطة للوديان التي انعكست في الهواء.

Journal d un voyage au Levant/ Tome III

يوميات رحلة إلى بلاد الشرق/ الجزء الثالث

O O O

فرانسوا دو شاتوبريان Francois de Chateaubriand

الصحراء خرسانة من الرعب

عندما يسافر المرء على جبل الجودي فإن ضجراً كبيراً يستحوذ أولا على قلبه، ولكن ما أن ينتقل من عزلة إلى أخرى، حتى يتسع الفضاء أمامه بلا حدود، ويتلاشى الضجر رويداً، رويداً، ويشعر برعب خفي عوضاً عن أن يهدئ نفسه، ويمده بالشجاعة ويرتقي بالذكاء، ويكشف مظاهر خارقة من كل جانب عن أرض صنعتها المعجزات، فالشمس الحارقة والعقاب المندفع، وشجرة التين العقيمة وكل الشعر وكل لوحات الكتاب السماوي موجودة هنا، فكل اسم ينطوي على لغز، وكل مغارة تعلن عن المستقبل، وكل قمة ترجع صدى عبارات تلفظ بها نبي الرب بعينه، تحدث عن هذه الحافات، فالسيول التي جفت والصخور التي تشققت والقبور التي تصدعت تشهد على المعجزة، وما تزال الصحراء تبدو وكأنها خرسانة من الرعب، وكأنها لم تجرؤ على كسر الصمت منذ سماعها لصوت الأبدية.

Itiniraire du Paris a Jérusalem

Troisieme et cinquieme partis

O O O

الكونتيسة دو غاسباران Comtesse De Gasparin

ركوب الجمل

نغادر أنا وجانيت وزوجي على أقدامنا، ونكون أول المغادرين، ويتبعنا جمّالنا أو تأتي القافلة بعدنا، وبعد ساعة أو ساعتين يجعل حمد الأبل تجثو، ويضع السرج العربي عادة على سنام الجمل مباشرة، ثم تضاف إليه الوسائد والبسط وجلد الخروف حيث كنا نجلس، وبعد ثلاث حركات ينهض الجمل، فنكون قد غادرنا، وكان بإمكاننا أن نتبين ونحن على دوابنا شعورهم بفقدان الصبر، فلم يكن التعب يتأتى من حركة النهوض بل من عدم القدرة على الاتكاء، وسرعان ما كنا نشعر بألم في الكتفين تزداد حدته مع الحر والإعياء، ويقال بأن هنالك ثلاثة أوضاع أو أربعة للجلوس على الجمل وحيد السنام بإمكانها أن تمد الراكب بالراحة، كنت أجد أنه من السهل علي أن أتخذ إحداها طوال النهار، ومن ثم أجلس قبالة رأس الجمل وقد تصالبت قدماي الواحدة فوق الأخرى، أو أن أمررهما في الركائب المتدلية على يمين أو على شمال رقبة الدابة، وطالما لا يضطر الراكب إلى حمل المظلة فإنه سيكون بمأمن من التعب، ولكنه إذا اضطر إلى أن يمسك بها عكس الريح، فسيصبح التعب غير محتمل.

وكان كل واحد من إبلنا يحمل على جانبه المظلل قربة من الجلد (الزمزمية) والتي كانت في الأمس مملوءة، بيد أنها تحتوي اليوم على ربع الكمية اللازمة لارواء عطشنا، ولم تكن هناك من متعة حسية تضاهي ما

كنا نشعر به ونحن نمسك بين يدينا الاثنتين هذه القربة، لنسكب منها في جوفنا سيلا من الماء المنعش.

وعند الظهيرة نقضي ساعتين نضطجع خلالها عند إحدى المحطات تسبقنا حقائبنا مع انطونيو الذي يذهب لنصب الخيام، وفي المساء وبعد مسيرة ثلاث أو أربع ساعات نجد المعسكر معداً لنا وكم يكون يومنا لذيذا على الأرض تحت قماشة الكتان التي ترتعش عند هبوب الريح، والتي يتخللها ضياء النجوم، وعلى مقربة منا هذه الوجوه البدوية السمر المتجمعة حول النار، وتحيط بنا الجمال الستة عشر وهي تمضغ حبات الباقلاء، وعند المساء كنا نتناول العشاء في الهواء الطلق تحت ضياء القمر، وثمة مصباح من الكتان معلق على الأوتاد، والرياح الخمسينية يتواصل هبوبها.

Journal d un voyage au Levant/ Tome III

يوميات رحلة إلى بلاد الشرق/ الجزء الثالث

○ ○ ○

ليل الصحراء

كان الليل ساخنا ولم أستطع البقاء تحت الخيمة فنهضت، ذهبت لأجلس قرب عين الماء تحت شجرة الزيتون، كان الليل يضيء كل سلسة جبال الجليل التي تتموج برشاقة من الأفق وعلى امتداد فرسخين تقريباً من المكان الذي عسكرنا به.

كان ذلك هو أجمل خط أفق رأته عيني حتى الآن. حتى أن أغصان الزنابق الفارسية الغضة التي تتدلى عناقيد في الربيع لا تملك لونا بنفسجياً أكثر طراوة وعمقاً من هذه الجبال التي كنت أتأملها حينذاك. كلما صعد الفجر واقترب من هذه الجبال، أصبح لونها أكثر قتامة وأكثر قرمزية، وصارت أشكالها أكثر حركة كأشكال الموج العالي الذي نراه في انعكاس غروب الشمس فوق عرض البحر. فضلاً عن أن كل جبل كان يحمل اسماً وله حكاية كنا قرأناها في طفولتنا ونحن مضطجعين على ركبتي أمنا.

كنت أعلم أن جبال جودي كانت هناك بمعجزاتها وأطلالها، وأن القدس كانت تجلس خلف إحدى هذه التلال التي لم يعد يفصلني عنها سوى بضعة ساعات من السير، وإني موشك على الوصول إلى النهاية المنشودة لرحلتي الطويلة.

رجعت إلى الخيمة ونمت، وما أن نمت ساعة حتى أيقظتني ضجة

خافتة، فنهضت مستنداً على مرفقي، ونظرت حولي كانت إحدى ستائر الخيمة مرفوعة فدخل منها نسيم الليل، كان القمر يضيء الداخل تماماً، ورأيت ابن آوى ضخماً وهو يدخل بحذر وينظر صوبي بعيون من نار، أمسكت بندقيتي فأرعبته حركتي ومضى على عجلة. وعدت إلى نومي، واستيقظت مرة ثانية، فرأيت ابن آوى وهو عند قدمي يبحث بأنفه في ثنايا معطفي، وكان متأهبا للإمساك بكلبي السلوقي الجميل الذي ينام معي على الحصيرة ذاتها. هذا الحيوان اللطيف الذي لم يفارقني يوماً واحداً منذ ثمانية أعوام، والذي كنت سأدافع عنه كما لو كان جزءاً من حياتي، ولو كلفني ذلك عمري، ولحسن الحظ كنت قد وضعت عليه طرفاً من معطفي، وهو ينام عميقاً حتى انه لم يسمع أو يشم شيئاً، ولم يكن يشك بوجود خطر يحدق به، وبعد لحظة خطفه ابن آوى وذبحه في عرينه، فأطلقت صرخة استيقظ على إثرها رفاقي، وخرجت خارج الخيمة وأطلقت رصاصة من بندقيتي ولكن ابن آوى كان قد ذهب بعيداً، وفي اليوم التالي لم يكن هناك أي اثر للدم يشهد على انتقامي. ورحلنا مع أول إشعاعات الشمس التي أضاءت روابي جودي.

Memoire de L'Orient/ Tome I

ذكريات من الشرق

O O O

عبور الصحراء

انحرف الطريق إلى اليسار، نزلنا من جمالنا، كانت الجبال الكلسية المحيطة بهذا السهل تذكرنا بالمقطم، سماء مثقلة بالغيوم، وكان الهواء رطبا، وكنا نشعر باقترابنا من البحر، وأرديتنا مشبعة بالرطوبة، كانت لدي رغبة حارقة إلى الوصول كما هي حالي كل مرة اقترب فيها من هدف معين، فلدي صبر على جميع الأمور حتى تشارف نهايتها.

سقطت بضعة قطرات من المطر، وبعد ساعة من مغادرتنا للبئر وصلنا إلى مكان مليء بالقصب والأعشاب العالية الخاصة بالمناطق السبخة، وفي وسط المكان كانت هنالك الجمال والحمير التي تأكل، وكان هناك الكثير من الروافد الصغيرة للمياه المتدفقة التي تجري على الأرض تحت الأعشاب وتلقي بالكثير من الملح على الأرض، وهي ما تسمى البادية وهو المكان الذي توجد فيه المياه.

أصبحت الجبال أقلّ ارتفاعاً فاستدرنا يميناً. كان أحد جوانب هذه الجبال من الصخور الحمر، وعلى اليسار تل يقع عند مدخل الوادي الفسيح الذي يقودنا أولاً على الحصى ومن ثم على الرمل، وخلال لحظات نفاد صبري صرت أسير على قدمي، راكضاً على الحصى متسلقا الروابي لأرى بأسرع وقت ممكن البحر. كم من مرة عشت لحظات الصبر هذه غير المجدية التي نهشت قلبي خلالها! وأخيرا

شاهدت الخط الأسمر للبحر الأحمر، على خلفية الخط الرمادي للسماء، إنه البحر الأحمر!

عدت لامتطاء الجمل، فقادتنا الأرض الرملية حتى الأقصر، من الواضح أن الريح قد دفعت برمال البحر إلى هذا الوادي الواسع، كان أشبه بأرض خليج مهجور، ورأينا من بعيد الصواري الأمامية للمراكب الخالية من أشرعتها كما هي أشرعة مراكب نهر النيل، استدرنا يساراً وكان هناك كواسر تطير وتحط على الكثبان الرملية، كان البحر والسفن على اليمين وكانت (الأقصر) وبيوتها البيض قبالته، وعلى اليمين وقبل أن نستدير كان هناك عدد من أشجار النخيل المحاطة بالأسوار البيض، كانت تلك حديقة، وكم كان مشهدها مريحاً للعيون.

Voyage en Orient

رحلة إلى الشرق

○ ○ ○

حياة الرحالة في الصحراء

تنتظم نهاراتنا على النحو التالي: في الساعة الرابعة صباحاً يمرر انطونيو ذراعه الحاملة للمصباح العربي عبر فتحة خيمتنا، ونسمع حينذاك أصوات صراخ واعتراض، فكنا ننهض، وما أن ننهض نعمل على ترتيب ما في الخيمة حتى لا يبقى أمامنا سوى أن نضع الفرش والأغطية والشراشف في الكيس، ثم نتناول الإفطار المكون من الفاصولياء البيضاء والرز مع القهوة المبيضة بمنقوع اللوز، محاولين التعويض به عن الحليب، وبينما يكون المرافقون منشغلين بتناول الإفطار بدورهم، نأخذ توراتنا ونذهب لنجلس على مبعدة خطوات أمام الشمس التي تخرج من الصحراء مثل كرة مشتعلة أمام معسكرنا الذي تتهاوى خيمه الواحدة تلو الأخرى، كنا نقرأ ونصلي، إنها لحظة مراسيمية وعذبة، تتركنا في غبطة عميقة، عند ذاك يأتي (حمد سائس) جملنا وحيد السنام، بهيئة وقورة ويقبل أيدينا.

Journal d un voyage au Levant/ Tome III

يوميات رحلة إلى بلاد الشرق/ الجزء الثالث

○ ○ ○

بول لنوار **Paul Lenoir**

الصحراء

وكنا كلما ابتعدنا في الصحراء كنا نترك على يسارنا البلد الذي كان يزداد اخضراراً، كانت الأعشاب العالية والأزهار المتنوعة الألوان تخفف من التلوينات الصفر والحمر للصخور، وكانت الشجيرات ذات الأغصان الفضية تكتسي مظهراً أكثر فولاذية على الرمال التي سبق لنا وأن مررنا بها.

وفي الطريق على يميننا ينتصب جبل زاخر، فأقمنا مخيمنا في هذا المدرج الطبيعي المكون من الصخور، ووجدنا هناك مجموعة من قطعان الخراف والإبل والماعز التي كانت تبحث مثلنا عن ملاذ لها من الريح العاصفة، وكان بإمكاننا أن نختار من بين حيوانات سفينة نوح تلك جملاً فتياً، كانت أمه قد تركته، و كان يشبه بهيئته معزة كبيرة، ويفسر لنا سنه الفتي نقص تربيته، لأنه سرعان ما أصبح أليفاً معنا ألفة غريبة، فكان يدخل تحت الخيام ولا يأنف من المجيء للتمرغ فوق أسرتنا، وأطلقنا اسم ياسين على هذا الطفل اللقيط تيمنا بالشاب ياسين الذي كان معنا.

كان ذاك المزار الطبيعي المحفور على الجبل ملائما للتصوير، وشرعنا في ذلك اليوم برسم سائس الإبل الرئيس في موكبنا، وازداد البلد خضرة شيئاً فشيئاً حتى شكل محيطاً من الأحراش المتباعدة على نحو متساو،

وكانت أغصانه المرتجفة ـ نظراً لوجود تلك الخضرة الوفيرة ـ توفر لجمالنا الكلأ، وكانت تلك الشجيرات تجذب انتباه هذه الحيوانات على الدوام، فأصاب المرض بعضها، لسوء الحظ، فقد كانت المعلومات التي يملكها طبيبنا ناقصة، لأنه لم يكن يتوقع هذه الحالة غير المألوفة من الشراهة لدى حيوانات عرفت بصبرها، وهي من جانبها لم تتوقع النتائج الكارثية لسوء الهضم لديها، وتطلب الأمر منا براميل من مياه الكولونيا لمقاومة الروائح المبهمة التي نجمت عن توعكها.

سلكنا الوادي سائرين بين حائطين أبيضين شقهما سيل المياه الطبيعي، كان ذلك الجانب الطباشيري يشبه إلى حد كبير الأراضي المستوية الواقعة في إقليم شمبانيا، وكانت طيور الحجل العديدة هي وحدها التي تزور هذه الصخور المزدحمة بالنباتات والأعشاب والشجيرات، حيث كان صيادو القافلة يتكالبون على ذبحها، وعند كل منعطف، وكل منحدر، تظهر لنا قطعان بلا راع، هائمة على وجهها، وما كان يثير اهتمامنا حقا هي قطعان الجياد، ولا سيما المهاري المحاطة بجيادها الصغيرة، ولم يكن بوسع أحدنا مقاومة الرغبة بشراء واحدة من هذه الحيوانات الجميلة التي كانت تبدو تتمنى ذلك، بيد أن الصعوبة كانت في إمكانية العثور على مالكيها الذين لم يسبق لنا الالتقاء بأحد منهم أثناء اجتيازنا أراض بعيدة...

Le Fayoum - Le Senai et Petra - 1871

رحلة إلى الفيوم وسيناء والبتراء

○ ○ ○

فرانسوا دو شاتوبريان **Francois de Chateaubriand**

عبور الصحراء

عند الساعة العاشرة صباحاً امتطينا الجياد وغادرنا بيت لحم، وكان هنالك ستة من عرب بيت لحم يسيرون على الأقدام مسلحين بالخناجر والبنادق الطويلة ذات الأنصال، وهم موكب حراستنا وكنا قد أضفنا إلى خيولنا حماراً لحمل الماء والمؤونة، أخذنا الطريق إلى صومعة القديس سابا، ومن هناك كان علينا أن نهبط إلى البحر الميت والعودة عبر نهر الأردن.

اتبعنا أولا وادي (بيت لحم) الذي يمتد إلى الشرق كما ذكرت، وهنالك مجموعة من الجبال، كنا نرى من عليها كرمة غرست حديثا، وهو أمر نادر الحدوث في هذا البلد، ثم وصلنا إلى مغارة كانت تسمى مغارة الرعاة، ويسميها العرب قرية الرعاة، ومن الممكن أن إبراهيم كان يرعى قطعانه في هذا المكان، وأن رعاة جودي قد ورد إليهم في هذا المكان بالذات خبر مولد المخلص:

حينما كان الرعاة في الأطراف يمضون الليل في الحقول، ويسهر كل بدوره على حراسة قطعانهم، فجأة تجلى لهم ملاك الرب وأحاط بهم ضياء رباني غمرهم بخشية بالغة، وعند ذاك قال له الرب الملاك بأن لا تخاف أبداً لأنه أتى إليه بنبأ سيكون مصدرا لفرح عارم للشعب برمته، وهو أن قد ولد له اليوم في مدينة داود مخلص هو المسيح الرب، وهذه

العلامة التي سيتعرف من خلالها عليه: سيجد طفلا مقمطا ينام في مذود، وفي اللحظة ذاتها انضمت إلى الملاك مجموعة كبيرة من حراس السماء وهم يحمدون الله، ويقولون: حمداً لله في أعالي السماء، والسلام على أرض الرجال ذوي الإرادة الحسنة الأعزاء إلى الله.

وقد حول ورع المؤمنين هذه المغارة إلى مصلى، ويبدو أنها كانت في السابق مزينة للغاية، إذ لاحظت وجود ثلاثة تيجان للأعمدة من الطراز الكورنثي، وأثنين آخرين من الطراز الأيوني، وقد مثل اكتشاف هذين الأخيرين معجزة حقيقية، إذ لم يتم العثور في عصر هيلين، إلا على آثار من الطراز الكورنثي المعروف.

وعند خروجنا من هذه المغارة سرنا إلى الشرق مع ميل قليل نحو الجنوب، ثم تركنا الجبال الحمر لندخل في سلسلة من الجبال المائلة إلى البياض، حيث غاصت خيولنا في أرض رخوة وطباشيرية، مكونة من بقايا صخور كلسية، وكانت هذه الأرض قاحلة على نحو مخيف، حتى أنها خلت من قشور الطحالب، وكل ما كنا نراه ينمو هنا وهناك هو بعض من باقات النباتات الشائكة تضاهي في شحوبها الأرض التي أنتجتها، والتي كانت تبدو مغطاة بالتراب مثل الأشجار على طرقنا الواسعة في الصيف، وعند انعطافنا على واحدة من هذه التلال الجبلية لاحظنا معسكرين للبدو، يتكون الأول من سبع خيم مصنوعة من جلد النعاج الأسود، مرتبة على شكل مربع طويل مفتوح عند طرفه الشرقي، ويتألف الآخر من اثنتي عشرة خيمة منصوبة على نحو دائري، وثمة عدد من الجمال والجياد الأصيلة تتجول حولها.

كان الوقت متأخراً جداً وليس من سبيل إلى التراجع، وكان ينبغي إظهار رباطة جأش وأن نعبر المعسكر الثاني، مر كل شيء بسلام أول

الأمر، إذ لامس العرب (جماعة بيت لحم) بأياديهم لحية علي أغا، ولكن ما أن عبرنا آخر الخيام، حتى أوقف البدو الحمار الذي كان يحمل مؤننا، فأراد جماعة بيت لحم إبعاده، ثم نادى العربي على أخوته لإسعافه، فقفز هؤلاء على الجياد وحملوا سلاحهم وأحاطوا بنا، ونجح علي على تهدئة هذه الضجة ببعض المال. كان هؤلاء البدو يطالبون بحقوق من المارة، أو يعتبرون على ما يبدو الصحراء كما لو كانت طريقاً عاماً، إذ أن كل فرد هو سيد في بيته، ولم تكن هذه الحادثة سوى مدخل لمشهد أكثر عنفاً.

على مبعدة فرسخ من هناك، وعند نزولنا في أحد سفوح الجبال، رأينا قمتي برجين ينتصبان داخل واد عميق، كانا يخصان دير القديس سابا، وبينما كنا نقترب من الوادي انقضت مجموعة جديدة من العرب، كانت تختفي في عمق الوادي على حراسنا، وهم يطلقون صراخا، وفي لحظة رأينا الحجارة تطير، والخناجر تتلامع، والبنادق تتهيأ. سارع علي إلى المعترك، وهرعنا لمساعدته، فأمسك برئيس البدو من لحيته وجره تحت بطن فرسه، وهدده بأنه سيسحقه إن لم يضع حداً لهذه المعركة.

أثناء هذه الضجة، كان هنالك راهب يصيح من أعلى البرج، ويسعى عبثا لإحلال الهدوء، كنا قد وصلنا جميعنا إلى باب القديس سابا، كان الأخوة في الداخل يدورون المفتاح على مهل، إذ كانوا يخشون أن يقوم أحدهم بنهب الصومعة مستغلين هذه الفوضى، وبعد أن أعيا الإنكشاري هذا التمهل، دخل وصب جام غضبه على الرهبان والبدو معاً، وأخيراً أخرج سيفه وذهب ليطيح برأس رئيس البدو الذي كان لا يزال يمسكه من لحيته بقوة مدهشة، عند ذاك انفتح باب الدير واندفعنا بلا نظام داخل فنائه، وأغلقت الباب علينا فأصبح الأمر أكثر خطورة، إذ لم نكن بعد داخل الدير، فقد كان أمامنا فناء آخر لنجتازه، ولم يكن

باب هذا الفناء الآخر قد فتحت بعد، ولذا كنا محبوسين في هذا الفضاء الضيق، حيث كانت أسلحتنا تصيب بعضنا البعض بجروح، وأصاب الهيجان جيادنا بعد أن أثارتها الضجة، وادعى علي بأنه قد ابعد عني ضربة خنجر صوبها نحوي عربي من الخلف، وأراني يده الدامية، بيد أن عليا الذي كان رجلاً شجاعاً، يحب فضلاً عن ذلك المال كما هو حال جميع الأتراك. بعد ذلك انفتحت الباب الأخيرة للصومعة، وظهر رئيس الرهبان وتلفظ ببضع كلمات، وتوقف الصخب، أدركنا آنذاك موضوع الخلاف.

كان هؤلاء العرب الذين هاجمونا ينتمون إلى قبيلة تدعي أنها الوحيدة صاحبة الحق بقيادة الغرباء إلى القديس سابا، ولم يرغب رجال بيت لحم الذين كانوا يطمعون بثمن الحراسة والمعروفين بشجاعتهم الخضوع لهذا الادعاء، وكان رئيس الصومعة قد أعطى وعداً بأنه سيرضي البدو، وأن الأمر قد سوي، ولم أكن أريد إعطاءهم شيئاً عقاباً لهم، وصور لي علي أغا إن أنا تمسكت بهذا القرار فإنه سوف لن يكون بوسعنا الوصول إلى نهر الأردن، وسيلجأ هؤلاء العرب إلى طلب المعونة من القبائل الأخرى، ويصار إلى ذبحنا لا محالة، ولهذا السبب فانه لم يرغب بقتل رئيسهم إذ ما أن يسيل الدم فلن يكون لنا من خيار سوى العودة مسرعين إلى القدس.

Itiniraire du Paris a Jérusalem

Troisieme et cinquieme partis

○ ○ ○

الكونتيسة دو غاسباران **Comtesse De Gasparin**

ينابيع الصحراء

ينبغي علينا أن نقلع أنفسنا من ضفة البحر لنعبر الساحل المخطط بطبقات من القواقع، صعدنا هضبة من الرمل، أحرقتنا شمس الظهيرة، تجمعت ثلاث غابات صغيرة عند الأفق، ذهبنا للاستراحة عند اقترابنا منها إنها ينابيع موسى، أنا لا أدري لماذا لم يرد ذكر واحد منها في سفر الخروج، فكان نبع الماء ينبجس من بركة وهو بلون أبيض ترابي مغطى بحطام من مائة نوع، ولكن المرء في الصحراء لا يأنف من الأشياء بسهولة، ولذا فإننا شربنا منه باستمتاع كبير، ونحن ممددون تحت أشجار التمر الهندي في هذه الحديقة البدائية التي يقوم بزراعتها اثنان من العرب، ذهبا ليقطعا لنا البصل والفجل، فقضمناها كلها وأكلنا حتى الورق الذي كان فوقها، كانت العصافير تغني والحشرات تطن، وكنت جالسة أسفل سياج مصنوع من قصب الذرة، وقبالتي أرض مربعة مزروعة بالبصل الأخضر، وعلى يساري كان هنالك نبات مغطى بالزهور، وكان هناك أمامي وقرب يدي عصفور أصفر ينط، وكان زوجي يقرأ وهو ممدد على حافة البركة، وكان هنالك أيضاً حمل أسود يأكل من يده، وما أن أكمل الحمل لقمته حتى نطحه بقرنه، أما إبلنا التي عادت من جولة حول الخليج، فقد وصلت في

صف طويل، ثم نصبنا الخيام بين مجموعتين من النخيل في الوسط من فردوسنا، أسعدتم مساء، إن الاستمتاع بالشيء أفضل من وصفه.

Journal d un voyage au Levant/ Tome III

يوميات رحلة إلى بلاد الشرق/ الجزء الثالث

○ ○ ○

غوستاف فلوبير **Gaustave Flaubert**

الصحراء

نمنا على الأرض فوق أغطيتنا واستيقظنا عند الساعة الثالثة، وغادرنا في الساعة الخامسة، في البداية سرنا على الأقدام لمدة ساعة، وعند منتصف النهار توقفنا لمدة أربع ساعات في gamse - shems في مغارة صغيرة داخل صخرة منهارة، فنمت هناك مضطجعا على الأرض وكنت أمط يدي عند استيقاظي من النوم، تعمل الريح على تسخينها كما لو أنها نفحات فرن، وكنا نضطر إلى لف مقابض سروجنا بمناديلنا، وعند الساعة الرابعة مساء وجدنا على اليمين داخل صخرة سوداء لوحات هيروغليفية وهي عبارة عن نذور قدمها آمون إله الخصوبة إلى هوروس، ثم أصبحت الجبال تضيق ونحن نسير في ممر عريض، وعند المساء كان القمر بدراً وظلال رقاب جمالنا تتأرجح على الرمل، وعند الساعة التاسعة والنصف مررنا بالقرب من بناء ضخم محاط بالأسوار المربعة، إنه بئر الحمامات الذي حفره الإنجليز، وبعد مسيرة إحدى عشرة ساعة نمنا لمدة نصف ساعة.

الاثنين غادرنا في الساعة الرابعة والنصف وسرنا بين الجبال فصعدنا ونزلنا، وعند منتصف الطريق شاهدنا على فسحة بين الجبال gazis ميت وقد أزيلت قشرته وعلى مبعدة منه عثرنا على أعداد أخرى من هذا النبات صغيرة ومزهرة أخذ واحد من ساسة إبلنا جرة فارغة وركض أمامنا، وبعد ساعة التقينا به في بئر الجب (البئر المغلق) وكان البئر عبارة

عن تجويف طول محيطه ثلاثة أقدام داخل الأرض، فنزلنا تحت إحدى الصخور لنصل إليه، كان فيه قليل من المياه إلا أنها كانت طينية، ثم وصلنا إلى مكان ضيق جدا قادم من قانه، ثم بدأ الطريق بالصعود، وكان هناك عند أسفل البئر قبل الوصول إليه بعشرة أقدام مسلم عجوز يجلس ساكنا مع خدمه ونسائه على السجادة، وبالقرب من البئر جمل يئن ممددا على جانبه لقد انكسر ظهره بعد أن سقط في البئر وبعد أن سحبه صاحبه بقي هناك ليموت، منذ ثلاثة أشهر وصاحبه يعطيه الطعام عندما يمر، وكذلك يعطيه العرب الماء، كما أن العدد الكبير من المارة من هذا المكان يفسر عدم إقدام الحيوانات الضارية على افتراس هذا الجمل.

بينما كنا هناك مرت إحدى القوافل من أمامنا كانت الطريق جد ضيقة وازدحم فيها الناس والجمال، فاضطررنا إلى النزول والسير على الأقدام وإلى سحب جمالنا من مقودها، سرنا على الأقدام لبعض من الوقت بسبب صعوبة الطريق التي كانت مرصعة بهياكل الإبل وجلودها بعد أن أفرغت أحشاءها من الداخل تماماً، إنها الفئران التي تولت هذه المهمة فقد بقي الجلد على حاله بعد أن نهشت الأحشاء، وكان رقيقا مثل قشرة البصل أيبسته الشمس مسحوبا مثل جلدة الطبل، وكان بعض الهيكل ممسوحا، وقد كان هنالك العديد من ثقوب الفئران في الصحراء.

عادت الطريق إلى الاتساع، ومررنا بالقرب من خان مهدم، وهو الخان البنفسجي.

لم تكن هناك أدنى ضجة، وكانت الحرارة قاتلة، تقرص أيدينا التي كنا نحس بها كما لو أنها وضعت في فرن جاف، كان الكاربون يلقي بظلاله المتموجة على بعد عشرين خطوة منا، كان الدخان فوق الأرض

على ارتفاع ثلاثة أقدام، وفي الساعة الحادية عشرة وثلاثة أرباع الساعة، وجدنا ملاذا تحت إحدى الصخور الغيرانيتية الوردية اللون حيث كانت تقف مجموعة من طيور الحجل الصحراوية، يسمى هذا المكان بأبي ضرام.

التهمنا بطيخة اشتراها لنا جوزيف في ذلك الصباح من بئر السبع، واضطررنا إلى التخلي عن الدجاج بعد أن فسد لحمه من اليوم السابق، وفي الوقت ذاته كنا قد اضطررنا إلى رمي قطعة لحم الفخذ التي كانت معنا، وما أن رميناها على الأرض حتى هوى gypaete عليها وشرع بافتراسها، ورأينا في ذلك النهار الكثير من طيور الحجل.

في المساء جمح حصان جوزيف ورأيته على يساري مذعوراً يطلق الصرخات قفزنا لنجري وراءه ولا سيما أن إبلنا بدت وكأنها تريد الاحتذاء بحصانه، رجع جوزيف على أقدامه ومررنا الجبال في مناخير جمالنا التي كانت ترتعش مهتاجة توقفنا بحذر واضطجعنا في مكان مكشوف وجميل جداً وكأنه سهل صغير ينبسط على يسارنا في الجبل الضاوي، أي المضيء والمكشوف.

الثلاثاء، غادرنا في الساعة الرابعة صباحاً وكان الطريق تنحدر باستمرار وازداد عدد القوافل وابيضت الجبال التي كانت تحززها الخطوط العريضة السمر، وفي الساعة الثامنة وصلنا إلى بئر البيضة (البئر الأبيض بسبب الجبال المجاورة له) أو بئر الإنجليز وهو بئر حفره الإنجليز، وكان هناك معسكر للعبادية يحيط بهذا البئر، شاهدنا أكواخاً من القش والطين، كان المكان فسيحاً ومنبسطاً وسط الجبل، كان هناك شاب عار لا يرتدي سوى سروال من الكتان الذي أصبح لونه رماديا بفعل الوساخة والغبار، أخذ جملي (وكان يرفع ذراعه في حركة صاعدة

هابطة)، فقاده هذا الشاب ليسقيه الماء، فأخذ الجمل ينهل الماء في إناء ربط طرفه بحبل، وعندما كان يسحب الإناء المملوء بالماء كان الإناء ينضح من جميع جهاته، كان البئر محاطاً بالأحجار اليابسة وكان مائلاً وواسعاً عند القاعدة. كان الشاب يقدم الماء والإبل تشرب ببطء، وبكميات كبيرة. ونحن لم نشرب الماء منذ ثلاثة أيام، وكنا عطاشى كثيراً، بيد أن تلك المياه كانت منفرة، ولم يرغب أحد من العبادية أن يبيعنا الحليب، وكان هذا هو الغذاء الوحيد الذي يملكونه.

Voyage en Orient

رحلة إلى الشرق

ooo

الكونتيسة دو غاسباران **Comtesse De Gasparin**

نزهة الصحراء

لا شيء يعادل عذوبة نزهتنا الصباحية، سرنا لمدة ساعتين الواحد جنب الآخر، وقد أحال الفجر الأفق أبيض، وقد أشرقت الشمس، بينما كانت القافلة بعيدة خلفنا، وكان الجو بارداً وفي الساعة الخامسة كانت درجة الحرارة ست درجات، وكان وادي أوسيت الذي كنا نسير فيه مليئا بالزهور، وثمة شجيرات بيض وصفر ومذهبة، نباتات صغيرة رقيقة تتفتح في الرمل، وهنالك عصفور يغني على الغصن الأعلى والأكثر يبوسة من شجرة الميموزا، لم تكن أغصانها قد نبتت بعد، فاستدار نحو الشمس وترك من منقاره مطراً من الماس، كان هذا اللون الأخضر ـ مع أنه لم يكن أخضر جداً ـ وهذه الزهور، وهذه الزقزقة تبدو كفردوس وسط الصحراء، والصحراء بحد ذاتها جميلة، فالروح تتسع فيها، فكما هي الحال على الجبال الكبيرة عندما تتصل الروح بربها مباشرة، حيث لا وجود لمشاكل الحياة وحيث يبدو أن الحجاب قد أزيح، وأن الأبدية موجودة هناك، وكانت الجبال الطباشيرية المتفجرة البياض والجبال الأخرى المنتصبة مثل كتلة جيرانيت والتي اسودت بفعل النار تؤطر السهل، وعند خروجنا من الوادي سمعنا أغنية عصفور آخر، وكان هذا العصفور يقف وحيداً يحط على صخرة، وكان غناؤه يشبه صفير الشحرور في وقت الربيع.

سلكنا وادي طيبة الذي يؤدي إلى ممر المكاتب، وقد ولجنا عبره إلى

غابة سيناء، فكان هنالك عدد من أشجار النخيل، فتوقفنا تحتها وكانت زاخرة بالزهور، وكانت العناقيد المتجمعة في حزمة من الأغصان البيض مثل الشمع، مزينة ببراعم الزهور وتخرج من غمد أخضر، وكان بعضها ينفرش كالريشة، ففي قلب النخلة ووسط أغصان الجريد المتينة المعقوفة تنتصب هذه الشمعة الشذية، وعثرنا في مكان أبعد بقليل على السحلب العملاق، بسمك الذراع، وقد كان مثقلاً بالزهور، وكان هنالك قليل من الماء الراكد في عدد من التجاويف، قال العرب عنه بأنه بطال! ولا يساوي شيئاً، وقد صدقتهم بسرعة، حيث أن الأرض مغطاة بالورود، وبأزهار من نترات البوتاسيوم والملح.

Journal d un voyage au Levant/ Tome III

يوميات رحلة إلى بلاد الشرق/ الجزء الثالث

○ ○ ○

أوجين ميلشيور دو فوغويه Eugen Melchior de Vogue

التوراة بنت الصحراء العربية

كانت هناك طريق متعرجة مكسوة بالبلاطات الكبيرة على الطراز الروماني تقودنا بنصف ساعة إلى سطح يتقاسمه ديران للعائلتين المسيحيتين: الإغريقية واللاتينية، وكان يمكننا أن نصل من تابور إلى الناصرة في المساء ذاته، إذا ما أسرعت جيادنا خطاها عبر الطرق المتموجة المشجرة الضاحكة، مقارنة بمرتفعات الجليل الشمالية، بدت المنازل الأولى في ثنية الأرض ملحقة بسفح رابيتها مثل عناقيد نبات كار الحجر، لاحظت من جديد هذا المظهر الغريب للمدن العربية التي تمتزج شرفاتها وأسوارها الرومانية إلى حد كبير مع اللون الطبيعي للأرض، حتى أننا غالبا ما نقترب منها دون أن نراها، وكانت الناصرة مع ذلك من أكثر الضياع التي صادفناها نظافة وأروع بنيانا، فقد أضفت عليها الأبنية الدينية الأوربية مظهراً مترفاً ومحترماً.

عسكرنا عند مدخل المدينة تحت أشجار الزيتون قرب الينبوع، فبعد زيارتنا للمعابد التي كرستها الأساطير الدينية آثرت أن اجلس عند هذا الينبوع وسط الأحجار المتيبسة حيث تأتي النساء لينهلن الماء، كما هو الحال في فلسطين القديمة، إذ ينبغي البحث في المظهر العام عن الأماكن، وفي العادة المحلية المستقرة عن الملامح الأولية للازمة لترميم أطر الحكاية الإنجيلية وفهمها على نحو افضل، فالينابيع لا تبدل أماكنها، ومعها لا تتعرض التقاليد للضياع، وأن ندرة هذه الينابيع وأهميتها

الخاصة في عادات أهل الشرق جعلت منها شواهد طبيعية على كل الحوادث التي أشرت الحياة في المدينة، اقرأ التوراة من أوله إلى نهايته، سترى أن كل المؤسسات البدائية وكل المشاهد البطرياركية تحتشد حول أحد الآبار والينابيع، ومنها تتابع حكاياتها عبر العصور، وهي ما تزال حتى اليوم ملتقى القرية العربية، وهي المكان الوحيد الذي فيه من القوة ما يكفي لربط التجمعات التي تكون عادة عابرة إلى الخارج منه، إذ أن أدنى مصدر للماء هو أرث تتناقله بأمانة الأعراق والأجيال المتعاقبة، وهو في الوقت ذاته المؤمن لوثائقهم البدائية.

ولا ريب فان مريم كانت تأتي إلى هذا المكان صباح كل يوم، واضعة برشاقة جرتها على رأسها على غرار هؤلاء الشابات الجميلات اللواتي يمررن أمامي، وكانت ترتدي مثلهن القميص الأبيض الطويل المفتوح عند الصدر، وتتحدث بلغة قريبة من لغتهن، ولها ملامح إحداهن، وبالتالي ما أن ننظر إلى الأرض التي ولدن عليها حتى تنبعث الحكايات المؤثرة التي تعلمناها في طفولتنا من جديد بكامل واقعها الحي.

Voyage au pays de passe

رحلة إلى بلاد الماضي

O O O

ألفونس دو لامارتين **Alfonce de Lamartine**

عاصفة في الصحراء

فوجئنا بعاصفة في منتصف النهار، لم أر بمثل عنفها إلا قليلاً، فقد ارتفعت الغيوم عامودياً مثل أبراج فوق جبل الكرمل، وغطت سريعا ذروة هذه السلسلة الجبلية بطولها، وما لبث الجبل الذي كان هادئا ومتألقا قبل قليل أن غرق شيئاً فشيئاً في أمواج متواترة من العتمات التي شقتها من هنا وهناك ذيول النار. وفي لحظات قليلة انخفض كل الأفق وضاق علينا، ولم يكن للرعد من بريق، بل كان هزيمه واحداً مهيباً متصلاً ومصمماً مثل صخب الأمواج عند ساحل البحر خلال عاصفة قوية. كان البرق ينهمر حقيقة مثل سيول من النار من السماء على السفوح السود لجبل الكرمل، وكانت أشجار البلوط في الجبل والروابي تنحني مثل القصب، وكادت الريح التي تخرج من شعب الجبال والمغاور أن تطيح بنا لو ما نكن قد ترجلنا عن جيادنا، ووجدنا ملاذاً صغيراً لنا خلف جدران إحدى الصخور في القاع الجاف لأحد السيول، كانت الأوراق الجافة التي انتزعتها العاصفة تدور فوق رؤوسنا مثل الغيوم، وتمطر أغصان الأشجار من حولنا.

تذكرت التوراة ومعجزات إيلي Elie، هذا النبي الذي هلك فوق جبله، في مغارته التي لم تكن بعيدة من هناك.

لم تدم العاصفة سوى نصف ساعة، وشربنا من مياه مطرها الذي

جمعناه في أغطية جيادنا المصنوعة من اللباد، استرحنا دقائق قليلة عند منتصف الطريق بين الناصرة وحيفا، واستأنفنا طريقنا بمحاذاة جبل الكرمل، إذ كان الجبل على يسارنا، وهناك سهل واسع ونهر على يميننا، وكان جبل الكرمل الذي كنا نسير عليه لمدة أربع ساعات يحمل عند كل جوانبه الوجهة الصارمة والمهيبة ذاتها. فهو كالحائط العملاق، يسقط عامودياً تقريباً ويكتسي كل مكان فيه بطبقة من الشجيرات والأعشاب العطرة. ولا تجد عليه صخرة واحدة عارية، وهناك بعض الحطام الصخري المنفصل عن الجبل، لقد انزلقت حتى السهل ناضحة كقلاع، وهيبتها الطبيعية تستخدم قاعدة وملاذاً لقرى المزارعين العرب. ولم نر في طريقنا سوى واحدة من هذه القرى، وذلك قبل ساعتين تقريبا من رؤيتنا لمدينة حيفا، كانت منازلها منخفضة بلا نوافذ، ومغطاة بردم الصخور لحمايتها من المطر، وفوق المنازل شيد العرب من أوراق تدعمها جذوع الأشجار طابقاً ثانياً من الخضرة يسكنونه خلال الصيف، كانت هذه السطوح مزدحمة بالرجال والنساء الذين كانوا ينظرون إلينا ونحن نمر، ويلقون علينا الشتائم، كانت هيئة هؤلاء السكان ضارية، لم يجرؤ مع ذلك أحد منهم على النزول من التل ليشتمنا عن قرب!.

وفي الساعة السابعة اقتربنا من حيفا التي كانت قببها ومناراتها وحيطانها البيض تحمل، ككل المدن في الشرق، هيئة براقة ومرحة، وأنت تراها من مسافة معينة.

Memoire de L'Orient/ Tome 1

ذكريات من الشرق

○○○

بيير لوتي **Pierre Loti**

مشهد الغيوم

حملنا ماء نهر النيل معنا في براميل وقرب وذهبنا إلى الصحراء، كنا نسير طوال النهار عبر المساحات الرملية الوعرة، نتبع تلك الآثار الممحوة التي تشكلت عبر القرون، المسالك النادرة التي خطتها أقدام الرجال والدواب، وجعلت منها طرق الصحراء ـ وكنا نرى من بعيد الآفاق الرتيبة المرتعشة، إنها رمال مرصعة بالأحجار الرمادية، كانت رمادية كلها، الرمادي المورد، أو الرمادي مصفر، وهنالك على مسافات متباعدة ثمة نباتات بلون أخضر شاحبة تحمل زهوراً سوداً غير واضحة ـ فكانت الإبل تخفض أعناقها وتمدها محاولة أكل هذه الأزهار، كان الأفق يرتعش من الحرارة، كنا نأمل أحياناً أن نلتقي بظل غيمة فوق رؤوسنا، غيمة شاردة من السماء اللامتناهية، شاردة فوق الرمال اللامتناهية، بيد أن هذه الغيمة كانت تمر وتهرب. كانت تلك الغيوم تغادر ولا تنعش ظلالها الباهتة العديمة الجدوى سوى الأحجار القديمة المبيضة.

وأما الغيوم الأكثر كثافة والتي كنا نراها في تلك اللحظة وهي تنسل من وضح النهار فقد كانت عديمة الجدوى هي الأخرى، وقد بدأت تتكوم هناك على الجبال الميتة حاملة وشاح الطراوة والغرابة فوق أشياء لا قيمة لها، ثم أخذت هذه الغيوم تتكاثف باضطراد مغلفة بالأبخرة هذه السمافات البعيدة الخالية من الحياة، وبدا وكأن شيئاً من اللاواقع المتغير يحيط بنا وإن الرمال التي كنا نسير عليها قد غرقت من جميع الجهات

في سماء أكثر انخفاضاً، وأكثر عتمة، ثم شحبت الشمس هي الأخرى كما لو كانت تنطفئ، ثم كنا نتبين بين الفينة والأخرى من خلال تمزق في ستائر الظل هذه العتمة الرمادية العادية لواحد من الجبال، وقد اتضحت بالقرب منا تحت خرق ما حيث سقط عدد من الأشعة على ربوة من الرمال، لها حزوز من الميكا وهي تلتمع مثل أحجار الفضة.

وعند توقفنا الثقيل في منتصف النهار سبقتنا جمالنا المحملة بالأمتعة كما هي العادة لدى القوافل، وحملت معها في الأغوار البعيدة حقائبنا وخيامنا، وذلك كي تهيء لنا معسكرنا قبل وصولنا إلى محطتنا الليلية، وبالتالي فقد استأنفنا وحيدين سيرنا لفترة ما بعد الظهر وشيئاً فشيئاً رقدت نفوسنا داخل المسير المتباطئ المتأرجح للدابة العظيمة التي لا يطالها التعب، والتي تسير على قوائمها الطويلة، وهنالك عند المستوى الأولي للأشياء الرمادية لا نرى سوى التموج الممتد لعنق الجمل الذي له اللون الرمادي الأصفر للرمال ذاتها، وقفا رأسه المغطى بالشعر والذي يشبه رأس أسد صغير وقد أحيط بزينة برية وقواقع بيض ولآلئ زرق وحلقات من الصوف الأسود.

عند المساء دخلنا إلى منطقة مرصعة، وعلى امتداد البصر، بنباتات هزيلة، وكما لو أنها حديقة بلا حدود مرئية، كانت الريح التي تهب تغطيها وتضببها بطبقة رملية رقيقة. وكانت الريح التي لا يوقفها شيء تزداد اشتداداً، وعندما بدأ الضياء بالزوال لم نعد نر الأشياء إلا من خلال هذه الغيمة الصفراء الغريبة ذات الشفافية الشاحبة.

de Sinai Le désert

صحراء سيناء

○ ○ ○

الكونتيسة دو غاسباران Comtesse De Gasparin

طبيعة الصحراء

قادتنا عدة وديان أو بالأحرى عدة تجاويف أرضية مقفرة إلى البحر، فتجلى لنا فجأة بلونه الأزرق الحاد، مؤطراً بصخرتين بيضاوتين ضخمتين.

وصلنا إلى المعسكر في الساعة الرابعة والنصف، وشرعت الإبل الطليقة من أحمالها بقضم نباتات الوادي اللذيذة، كان المساء هادئا ولم يكن هناك من أحياء سوانا وحيواناتنا.

وصلنا عند امتداد جبل من الكلس يهبط إلى البحر على نحو حاد، كان الوقت وقت جزر، ودخلت الجمال بي إلى الماء الذي كان يضرب ركبها، وعلى يسارنا كانت الصخرة تهبط حادة مستقيمة بقممها وأهراماتها الناصعة البياض.

وكانت كل خطوة تخطوها جمالنا تفجر الموجة في رشقات لامعة.

أمامنا وعلى امتداد البصر مساحة من السافير، ولم نكن نسمع سوى وقع الأقدام العريضة للجمال التي كانت تتقدم في صف، يشوبها نوع من الاشمئزاز وسط الأمواج المرتفعة بتراخ، كان هنالك في تلك اللوحة سمة للعظمة والاكتمال والسعة، تمسك بالروح معلقة، إذ أن في كل مرة يلقى المرء فيها باللامتناه، ويتوقف تفكيره حتى نبضات القلب.

كانت جبال الكوارتز تتوج تارة الغرانيت الذي يرفعها والذي

يحملها على أكتافه، وتارة تبقى متراكمة حول صواريخ الغرانيت العريضة التي شقتها، كان لجميع هذه الجبال اللون الذي طبعته الشمس عليها، فهي سوداء هنا ومغطاة بقشرة هزيلة، وهي خضراء هناك بلون أخضر معدني وشاحب كلون العفونة، ومعرق في منطقة أخرى بلون أحمر قان، تكتسي الأصابع عند ملامستها له بصبغة لا تزول، وهي صفراء صلصالية، صفرة كبريتية برتقالية بيضاء شبحية، ومن وقت لآخر تقع عيناك على شجرة الميموزا وقد شذبها البدو بعناية وهي تمد في هذا المشهد الحزين أغصانها السود، وأوراقها الرمادية، ونحن لا نرى من الأفق سوى هذه الأبراج الغرانيتية، وهذه المستويات الثلاث، أو الأربعة من الكوارتز الفضي.

وليس هنالك من تفاصيل كثيرة فثمة أرض رملية مرصعة بكتل أو أجزاء من الغرانيت انطبعت عليها هنا وهناك خطوات الضباع أو الغزلان وهناك على مسافات متباعدة شتلات شوكية نصف متيبسة تقبل جمالنا الجوعى على أكلها بنهم وأنا لم أر في حياتي ما يضاهي هذه الألوان بقوته أو مثل هذا التناغم الرهيب.

وفي بعض الأحيان تعطينا قشرة من الكوارتز الأبيض موجودة في أعماق أحد الوديان الانطباع بأنها من الثلج الأبدي، وفي واقع الأمر فإن المناطق الأكثر وعورة من جبال الألب هي التي تختفي فيها أشجار المالیز، ونحن هنا لا نرى سوى أشجار نورين الوعرة النابتة في الكتل الثلجية للكوارتز، والحافات الصخرية، والمناطق القشرية والمنزلقة وحدها.

هذه المناطق تشبه جبال الألب، وتنطوي على مثل ما نراه الآن من مظاهر مع أن لجبال بلادنا على الأقل حرارة الألوان، فضلاً عن وجود المياه المتدفقة من مغارة الثلج، ونباتات صحراوية بأزهارها البراقة، وزهرة

الجنطانيا الزرقاء، ونبات كاسر الحجر بأجراسه المفككة والمتفتحة على حبب المنحدرات الثلجية، آه يا بلدي يا بلدي المحبوب بروائح أشجار الأرز العطرة.

سرنا لمدة ساعتين في المشاهد الجدباء ذاتها وكان الوادي الرملي محصوراً بين جدارين من الغرانيت الأزرق التي كانت تبدو في مساء الأمس صاعدة نحو السماء لتخف بطريق مرصع بالنجوم هناك، وكان الغرانيت في هذا الموضع يكتسي ألواناً تشبه تلك التي كانت يكتسبها الكوارتز، وثمة مجاميع منه تميل ألوانها إلى الأبيض، والأزرق، والبنفسجي، والوردي الناعم، خشخاش أحمر. وكانت تسير أمامنا على الرمل حشرة كبيرة تشبه بشكل ما نحلة بلا جناحين مصبوغة هي الأخرى بألوان الغرانيت، ومغطاة برسوم زرق وحمر غامقة على خلفية بلون البشرة.

وفي أعماق الوحدة انطلق من الأرض سرب من الدرغلات وحط في ثقوب الصخر حيث قمن بجدل السيقان الرقيقة لبعض النباتات على نحو فني، وشكلن أقواسا صغيرة أمام أعشاشهن:

(يا حمامتي من الذي يمسك بك في شقوق الصخرة، وفي خفايا الأماكن المنحدرة، دعيني أرى نظرتك، واجعليني اسمع صوتك، لأن صوتك عذب، ونظرتك ناعمة).

وفجأة تظهر بعض من أشجار الميموزا الضخمة على طول الحاجز الغيرانيتي ومن ثم مجموعة من أشجار النخيل، وبعدها أشجار النابل التي تشبه أوراقها أوراق أشجار الكورميه، وثمارها تشبه ثمار العنابة المثقلة بالثمار، ومن بعدها أشجار النخيل مرة أخرى، وكل الوادي بمنعطفاته يدور مثل غابة صغيرة ممتدة، وتؤطر جبال الغرانيت بأشكالها

القوية ودرجات ألوانها الحارة هذه الواحة الساحرة، وتنتصب حصون سربال في أعماق كل مضيق في الجبل، وكانت معظم هذه الحدائق تعود إلى دير سيناء الذي كان يملك زيادة على ذلك ممتلكات في قبرص، وفي شبه الجزيرة، وفي الأماكن الأخرى.

وكانت أطلال فيران وهي مدينة مسيحية تعود إلى العصور الأولى تغطي الجبال، وهي أطلال بائسة مؤلفة من أكواخ صغيرة في الحجارة الجافة، وكانت تدل بالأحرى على أنها قرية صغيرة أكثر منها مدينة، وثمة بقايا أبراج مربعة، ترتبط ببعضها بجدار وتتبع حدود القمم المحيطة أنها حصن مدينة فيران.

وبدا لنا أن محطة لوسج كان لا بد وأن تكون في هذا المكان تحت هذه الأشجار الجميلة للنخيل، والتي تركت أغصانها الطويلة تنساب إلى جانب كتل الغرانيت الحجرية، تحت هذه صبار الهندي، التي مدت على الرمل ظلاً عريضاً بالقرب من هذا الجدول الرقراق الذي يجري تحت أشجار التمر هندي.

Journal d un voyage au Levant/ Tome III

يوميات رحلة إلى بلاد الشرق/ الجزء الثالث

O O O

بول لنوار **Paul Lenoir**

قلعة في الصحراء

استثمرنا أيام أقامتنا على نحو جدي، وأمنا هناك بمجموعة من الدراسات في غاية الأهمية، وفي يوم وصولنا عثرنا على معسكرين إنجليزيين مقيمين هناك، ولكن الإنجليز اضطروا لمغادرة المكان في اليوم التالي، وهؤلاء السادة رغم مرورهم على كل الأماكن إلا أنهم لم يقضوا من الوقت ما يلزم ليروا شيئاً ما، وعشية مغادرتنا إلى معسكرات أخرى للالتحاق بنا مما ألهى قليلاً زوارنا عنا أو الذين بعد أن استنفدوا كل ما لدينا تهاووا تحت خيم جيراننا لينفذوا هناك un nouvelle curee ولم يطل هؤلاء الرحالة إقامتهم في هذا المكان فقد غادروا في النهار ذاته بعد أن عبروا لنا بأدب عن رغبتهم بالذهاب إلى البتراء وقد أبدوا اهتماما كبيرا بلوحاتنا وصورنا متحسرين على افتقارهم إلى مثل هذه الوسائل الأكيدة في حمل البلد معهم.

ألحقت القبائل الأكثر أهمية في هذا الجزء من الصحراء العربية الخسائر بجيوش محمد علي الذي قام بالانتقام بقطع كل أشجار النخيل الموجودة في الخليج، وفي تلك البقعة، مما أحال ثروة البلد إلى العدم خلال سنوات عديدة.

إن سرقة الإبل وقطع أشجار النخيل هما أساس الحرب القائمة بين هذه القبائل، إذ أن هؤلاء الأنذال على المستوى الفردي، نادرا ما كانوا يتواجهون في الحرب، بل هم يتبادلون القنص من بعيد،

خلف إحدى الصخور، أو أنهم يدحرجون قطعاً من الجبال على رؤوس بعضهم، وهذه هي ستراتيجيتهم في انتظار البوتاس، ومضخات البترول.

دعانا حاكم القلعة لزيارة قلعته الصغيرة التي كانت محاطة بالخنادق الواسعة الواقعة في الجزء الجنوبي الغربي من المدينة، كانت أسوارها العالية مدعمة بالأبراج، حيث كان هنالك أربعة مدافع عاطلة وضعت لإخافة القبائل بمظهرها، وشرح لنا رئيس المشاة نظام دفاعه في حالة الهجوم، ولكننا لم نكن عبيطين بالقدر الذي كان يظنه بنا، فقد لاحظنا صدفة بأن حجم القبائل كان أكبر ثلاث مرات عما يلزم للدخول في الغرف التي كان عدداً منها يفتقر إلى النور.

كانت الملاجئ المحصنة والأروقة الداخلية للقلعة تتميز بلمح متوحش أعجبنا كثيراً، وكان يذكر ديكورها بالوصف الأكثر غرابة والمذكور في رواية سلامبو، كان هناك انتشار رائع للقضبان الحديدية والأوتاد والرماح الكبيرة والسيوف الصدئة التي كان يعود تأريخها، ولا بد إلى نشوء الخليقة نظراً لأشكالها البدائية البربرية، فكما الحال في أجمل فترات العصر الوسيط، فقد شاهدنا مجاميع الأحجار المرتبة بعناية قرب المتاريس والتي تقدم لرمي المهاجمين، وأرونا كذلك طشت الزيت المغلي والفتائل المخصصة لحرق القرية إذا اقتضت الحاجة لذلك.

ولم يكن ينقصهم سوى النار كي يكتمل متحف آلات التهديم.

كانت سجون القلعة هي الأخرى بالقدر ذاته من الأهمية، ولكي لا يزعجوننا فقد امتنعوا عن أن يرونا أدوات التعذيب المخصصة

للسجناء، كما كان هناك صف من المشانق التي لم ندرك جدواها في البداية، ثم علمنا إنها لم تكن سوى أعمدة مخصصة لأرجحة متمردي الثكنة الصغيرة في الهواء، لم يكن حاكم العقبة هناك سوى مندوب عن حكومة القاهرة، وكان هذا المنصب غير المرغوب به عادة من قبل الدبلوماسيين المصريين الشباب، فقد كانت هذه المهمة التي تستلزم الثقة تتمخض عن إحدى فورات الغضب، أو عن استبعاد يتطلبه الجهد.

ولم نتمكن من استيضاح الحالة الخاصة لمضيفنا، فقد بدا أن ذلك المنفى يثقل عليه كثيراً نظراً للتنهدات التي كان يطلقها في كل مرة كنا نتحدث فيها إليه عن القاهرة أو عن باريس.

وتعبيراً منا عن امتناننا لضيافته الطيبة فقد قمنا بتصويره مرتين، ودعوناه لتناول العشاء هو وزميله محمد جاد، وفي تلك المرة كذلك كان من دفع الثمن هو شرشف الطعام، بعد أن شهدنا عملية مشبوهة مروعة قامت بها الأصابع من أجل الأصابع، وكاد الاثنان أن يبترا بعضهما البعض بالأشواك التي حاولا في البداية استخدامها، ومع أن الملاعق كانت أقل عصية منها، بيد أن ألذ أنواع الطعام في مطبخنا لم ترق لأذواقهم، سوى الخردل الإنجليزي و الفلفل والبصل فقد حققت هذه المجموعة نجاحاً لا يوصف، وكان الشيخ يأكل منها ملء فمه وأشبع منها لحيته بل وحتى بطنه المكورة، بيد أن اللطخات التي تركتها والتي كانت تمثل الدليل الفاضح على شراهته لم تحرك خجله، فبعد أن شطط قنينة الخردل الأولى طلب مبتسماً واحدة أخرى مثل طفل سمين يطلب المزيد من المربى، حينذاك بدأ عزف فموي وحنجري معبر عن الرضا، وكان يؤشر من ناحيتهم الاعتراف بالفضل

الذي كانت بطونهم تطفح به إزاءنا، ولخوفنا من الموت فقد توجب علينا الامتناع عن الضحك وبفضل موهبة التقليد التي ميزت الزمرة الصغيرة فقد...

وأثناء فترة الإقامة جعلنا ابن الشيخ مقبول أي ابن أخ الشيخ محمد جاد ذاته صديقاً لنا وهو الذي كان من المفترض أن يصحبنا حتى البتراء.

كان ذلك الطفل البالغ من العمر العاشرة تقريباً يتمتع بوجه رقيق ومعبر وبشكل ملحوظ، ودفعتنا شخصيته اللطيفة إلى محبته، وخففت علينا من وقع المظهر الضاري لآبائه، ولم يكن يتناول القهوة أو الخمرة، وكان ذلك باعث كبير لتقديرنا له، وكان من المفترض أن يتبع أبيه في جولته معنا حتى المعسكر الرئيس لقبيلته وحسب، وفي اليوم التالي حين كان علينا المغادرة نحو البتراء تركنا نوعاً من الألم على جمالنا وحيدة السنام لنمتطي جمالاً بسيطة كانت أقل حذقاً وأقل عذوبة بكثير من الأولى.

كانت كلمات الوداع التي تبادلناها مع سائس إبلنا من سيناء وحراس جيادنا مؤثرة، وبتلك المناسبة استلم الجنديان اللذان رافقانا بقشيشا تجاوز إلى حد بعيد أمنياتهما حتى كادا أن يصاباً بالجنون من شدة الفرح، إذ صمم الكلونيل إعطاء كل واحد منهما مائة فرنك من القطع الذهبية، فكانت عيونهما تتسع دهشة عند رؤية كل قطعة، وبعد أن انتهى الدفع بقي العربي فاتحاً يده وفاغراً فمه لا يستطيع تصديق امتلاكه لهذه الثروة لوحده فقط، فهو لم ير بالتأكيد في حياته كلها كل هذا القدر من الذهب مرة واحدة، ولا حتى في لوحات الرسم، كانت قرحة أولئك الناس اللطيفين لا توصف، وكان من

الصعب عليهم إيجاد التعبير الذي فيه ما يكفي من الفخامة والشرقية ليستشهدوا به على مقدار أسفهم لتركنا.

وبعد آخر عملية شد الأيدي وآخر نظرة حزن ابتعدنا عن بعضنا متعاهدين مرة أخرى على اللقاء وفي مكان آخر.

Le Fayoum - Le Senai et Petra - 1871

رحلة إلى الفيوم وسيناء والبتراء

○ ○ ○

بيير لوتي **Pierre Loti**

الواحة

كانت الواحة العربية بمنازلها الصغيرة المصنوعة من الطين المفخور بعيدة عنا قليلاً، خلف القلعة، وكانت مدينتنا الصغيرة المصنوعة من الكتان (الخيام) جاثمة على الرمل الناعم قرب البحر، وكان اللاج مرصعا بالمحار الأحمر، وبأشجار الأبنوس الضخمة، وبالقواقع الكبيرة بألوانها اللحمية، أو بألوان زهور أشجار الخوخ الشاحبة.

أتى المساء فاكتست مياه الخليج الساكنة لون العاج الأخضر، ولمعان الفولاذ، وانعكاسات أعناق الطيور النادرة، وفوق تلك المياه كانت هناك كتل الغيرانيت الوردية، والمنتشرة في الصحراء، وكان لونها الوردي من ذلك النوع الذي لا يسع الكلمات التعبير عنه، وكانت تنتصب وسط سماء رقراقة خضراء، تتخللها قطعات صغيرة من الغيوم البرتقالية، فلا يمكن لأي من الأشياء الرائعة المضيئة التي كانت عيناي قد رأتها على الأرض حتى ذلك اليوم أن تضاهي تلك.

توارت الشمس عنا خلف جبال الضيعة التي كنا عليها، ولكن الصحراء الكبرى التي كانت قبالتنا، ما زلنا نراها، لأنها كانت شمساً

ملتمعة مثل نار البنغال، وسديما من الجمرات الحية والكاربون الوردي المتناضد كالسور في السماء المظلمة، حينذاك بدا البحر الواقع عند أقدامها وكأنه استحال إلى شيء يضيء ذاته، أو ربما سهل من الزمرد مضاء في أسفله.

وفي الأمام من هذا المشهد الاستشباحي الهائل الذي يمتد على نحو متساو مثل قطاع لا نهاية له، وحتى الأعماق البعيدة، كانت هناك أشجار النخيل الرشيقة القوام مطلقة أغصانها الخفيفة الرشيقة.

وصل حراسنا الصارمون الوسيمون وبدت وجوههم شبه إلهية من أسفل الأوشحة البيض وأحزمة الصوف السود، كانوا صامتين بسبب اقتراب ساعة المغرب المقدسة، كانوا يجلسون جماعات على الرمل أمام أكوام الأغصان التي سيشعلونها خلال الليل وينتظرون، عند ذاك ارتفع فجأة من أعلى القلعة الصغيرة المتوحدة صوت المؤذن، كان صوتاً واضحاً ويملك تلك اللذعة الحزينة العذبة الباعثة على الارتجاف، وعلى القيام إلى الصلاة، وكانت تحلق في الهواء في طيران عال، ولها ارتعاشة الأجنحة، مقابل روعة الأرض والسماء، كان الصوت ينشد لرب الإسلام الذي كان هو رب الصحارى الواسعة.

ثم هبط المساء على الفضاءات الشفافة الزرق حيث كانت كتل الغيرانيت في الصحراء العربية، والتي تأخرت على الانطفاء، واشتعلت النار في أكوام الأغصان الصغيرة من حولنا، فأضاءت أسفل أشجار النخيل التي كانت موجودة هنا وهناك، وأضاءت ظهور أغصانها

وسهرات العرب الذين جلسوا حلقات تحت القبة العالية الليلية المتلألئة بحبات الذهب.

وأخيراً ارتفع صوت المؤذن مرة ثانية أكثر جمالاً وأكثر ارتفاعاً من أعلى صلاة محلقة، وفي تلك اللحظة كنا سنفقد إحساسنا بالحياة مضطجعين في الخارج تحت الكوكب اللامع وعلى الرمل الغافي.

لقد استحوذت الصحراء علينا مرة أخرى، وكل ما كان يشتعل أحمر بالأمس انطفأ وتغير وتراجع جبل الصحراء العربية، تراجع إلى الأعماق البعيدة اللامتناهية، فبعدما اشتد اشتعاله بالأمس ارتاح اليوم في ظل الطراوة الصباحية اللذيذة نصف مختبئ في الأبخرة الرطبة، ولم يعد يكتس إلا باللون الرمادي اللؤلؤي أو الرمادي الكتاني أو بكل تلويناته الخفيفة الغامضة الشفافة. وحدها ذروته وتخريماته العالية كانت ترتسم بنوع من الوضوح، وقد بقيت قطعان من السحب عالقة عليه مثل القطن المندوف، ومرتسمة بوضوح، كانت قطعان صغيرة بلون أبيض ذهبي لامع للغاية، وبدت كما لو أنها قد ركزت في داخلها كل ضياء هذا الصباح الخفي، وأطيافه المغشية، وبالتقابل مع هذه الأشياء السديمية الرمادية كانت الضفة التي تتجه صوبها بين الصحراء الرتيبة والبحر، وقد بدأت تبهر أعيننا وتلتمع بلاجاتها.

كان استنشاق الهواء يسكرنا وكانت الصور تتسع لتستزيد امتلاء، فكنا كما لو أننا قد تشبعنا بحياة أكثر نضارة وببهجة جسدية بالوجود. كنا نسير بمحاذاة البحر على رمل ناعم مرصع بالعقيق الأحمر، كان خالياً من المرافئ، وبلا أشعة على كامل

اتساعه، فقد كان بحراً مهجوراً محاطاً بالصحراء، ومع علمنا بفراغه اللامتناه فإننا نقترب منه غريزياً كما لو كان نبعاً للحياة الحية، لأنك بالقرب منه لا تجد الخواء الحزين والميت للصحراء على اليابسة.

de Senai Le désert

صحراء سيناء

○○○

فرانسوا دو شاتوبريان **Francois de Chateaubriand**

مغادرة الصحراء

في الثاني من تشرين الأول امتطيت حصاني وانطلقنا علي أغا وجون وجوليان والترجمان ميشيل وأنا، وخرجنا من المدينة عند شروق الشمس من باب الحجاج وقطعنا معسكر الباشا وتوقفت قبل نزولي إلى وادي تربينت Terebinte لأستزيد النظر إلى ألق أورشليم.

سوف لن يحجها الحاج بعد لأنها لم تعد موجودة أما ضريح يسوع المسيح فهو معرض الآن إلى عاديات الزمن، لو كنا في الزمن الماضي لهرعت المسيحية بأكملها لترميم القبر المقدس، أما اليوم فلا أحد يفكر في هذا، كما أن أقل حسنة تنفق على هذا العمل الفاضل سيبدو نوعا من المعتقدات المضحكة، وبعد أن أمليت النظر إلى أورشليم بعضاً من الوقت، توغلت في الجبال، كانت الساعة السادسة وتسعة وعشرين دقيقة عندما اختفى مرأى المدينة المقدسة في عيني، هكذا يسجل البحار اللحظة الأخيرة التي تختفي فيها عن عينه ارض نائية لن يراها بعد ذلك أبداً، وجدنا في أعماق وادي تيربينت قادة عربا أبو غوشه وجابر وكانا في انتظارنا، ووصلنا إلى ارميا عند منتصف الليل، وكان لا بد من أكل الحمل.

كان أبو غوشه قد هيأه لنا، أردت أن أعطيه بعضاً من المال فرفضه، ورجاني فقط أن أرسل له ملء قفتين رزاً من دمياط عند وصولي إلى

مصر، فوعدته بصدر رحب أن افعل ذلك، ومع ذلك لم افطن إلى وعدي إلا في اللحظة الأخيرة التي كنت أغادر فيها إلى تونس، فما أن استأنفت الاتصالات مع بلاد المشرق، سيستلم أبو غوشه حتماً ما طلبه من رز دمياط، وسيرى أن بمقدور الفرنسي أن ينسى، ولكنه لن يتراجع عن كلمته أبداً، أملا أن يقوم الشبان البدو الصغار في ارميا بتأمين الحراسة لي يوماً وأن يقولوا إلى الأمام سر:

(En avant Marche).

Itiniraire du Paris a Jérusalem

Troisieme et cinquieme partis

○ ○ ○

مغادرة

تركنا هذا الصباح حقلنا المحاط بأشجار الصبار، وستبقى حقائبنا في انتظارنا في الناصرة، بينما ننزل نحن إلى بحيرة طبرية.

سرنا في الوادي الضيق الذي يفصل جبل الطابور Thabor عن جبال الجليل، وكان ممتلئاً بالعشب العالي وبالحصاد الأخضر وبأشجار البلوط التي تنمو في مجاميع وسط السنابل، وكنا نصغي كما هو الحال في كل منطقة التابور إلى هديل الحمائم المنبعث من أوراقها الكثيفة، فلم تكن الشمس قد أشرقت، وما زال الندى يلمع وكان الجو منعشا والأوراق طرية، وتهبط السكينة من السماء إلى القلب:

يا جبال سوريا ووديانها، ويا قطعان الماعز الممتدة صوب المستودعات، ويا نباتات الجنوب والشمال، ويا ضيعات توراتية مستلقية على سفوح الروابي، سوف لن أغادرك إلا والدموع في عيني.

Journal d un voyage au Levant/ Tome III

يوميات رحلة إلى بلاد الشرق/ الجزء الثالث

○ ○ ○

أوجين ميلشيور دو فوغويه **Eugen Melchior de Vogue**

الينبوع

أوقفنا جيادنا عند ينبوع وسط الأحجار البيض تحت أشجار الزيتون الجميلة، فأتت إليه فتيات جميلات يتمتعن بنقاء مثير للإعجاب لينهلن منه الماء عند طلوع النهار، ويمسكن بأذراعهن المثنية جرارهن الكبيرة الموضوعة على رؤوسهن، ويرتدين وشاحاً، مثل وشاح النساء في العصور القديمة، ولهن أشكال منحوتة تشبه أشكال حاملات القرابين.

إنها التوراة وقد تجلت فيها معبرة، فالأخلاق البدائية التي يحكى عنها لم تتغير، وما زال يتم استقبال الغرباء عند النبع، حيث يتبادلون رواية الأخبار، وحيث تعقد الزيجات كما كان الحال في عصر ربيكا وألينور(٥٠).

شرعنا في السير مقتفين الوادي الصغير إلى المدينة حتى وصلنا إلى الساحة الكبيرة، حيث تلتحم، بعد أن تهبط بسفوح ثلاثة من الكثبان، وتؤلف الأحياء الثلاثة: حي المسلمين، وحي اليهود، وحي الجزائريين، وقد جاءت قبيلة من مستعمراتنا في أفريقيا لتقيم هنا منذ حوالي (١٢ عاماً) بعد وقوع حركة عصيان.

أقمنا خيمنا هناك، كان بالإمكان أن نرى خلال شق على جهة اليمين زاوية من بحيرة طبريا. كانت البحيرة المبجلة تنام بهدوء بين

٥٠ ـ ربيكا هي رفقة بنت بتوئيل في التوراة، زوجة اسحق.

حوافها المنحدرة وفي بوتقة من الصخور ذات الألوان الذهبية المسمرة، كانت الطبقة الزرقاء تسحر النظر ثم ينتهي الأمر بها إلى أن تسيل إلى ماء مثل الشعب في هذه الجبال المحترقة في فلسطين، وكيف لنا أن نبين لأولئك الذين لم يغادروا أوطاننا أبداً والذين أفسدتهم الخضرة جاذبية ونعمة الماء في الشرق؟.

Voyage au pays de passe

رحلة إلى بلاد الماضي

O O O

الكونتيسة دو غاسباران **Comtesse De Gasparin**

وادي أبو وردان

كنا أول من وصل، لذا فقد جعلنا جمالنا تجثو بمكان ليس ببعيد من البحر، جعلناها تجثو وسط تلال رملية صغيرة، حيث نبتت نباتات شوكية، ونوع من نبات البوص التي لم تكن الجمال تحب أكلها، ثم سرعان ما وصلتنا حقائبنا، فقمنا بحلها، وهرع الجمالون الذين كانوا معنا وغرسوا أوتاد خيمنا بالأرض.

كان حبيب الأنيق دائماً بجواربه المسحوبة جيداً، ونعليه الراقيين، وبنطلونه العريض، الأزرق، المربوط تحت ركبتيه، وبسترته السمراء، وبمنديله الدمشقي ذي النقوش البارزة يهيء على عجلة موقده، ويحاول أن يحميه من الريح بواسطة كومة من الأحجار، ويحرص على أن يكون الكوم متينا، لأننا سنقضي يوم الأحد هناك.

لم نكن متعبين.

لقد قطعنا تسع ساعات ونصف في المسير، تخللتها استراحة لنصف ساعة في قاع وادي صدر، وكان بإمكاننا وبلا أسف أن نذهب إلى أبعد من ذلك.

هبت ريح الشمال، إن الرياح في الصحراء هي مسألة حياة أو موت، فإن هبت من الجنوب قتلت، وإن هبت من الشمال أنعشت. ولن يكون لنا بدءا من اليوم محطات أو طرق فهناك بالكاد اثنان أو ثلاث من

الممرات المتوازية، والتي حفرتها أقدام الإبل التي تسير في صف واحد، وهناك من جهة الشرق كتلة الجبال الواقعة في شبه الجزيرة، والتي يطل عليها جبل كبير ويهبط منها عدد من الوديان التي تحمل معها أوقات الأمطار المياه إلى البحر الأحمر، ولم يعد حاليا في هذه الوديان التي تجري فيها السيول شتاء سوى منخفضات أرضية طفيفة تنمو فيها من مكان إلى آخر الأحراش الرملية، وعلى جهة الغرب يرتسم شريط بنوعين من اللون الأزرق: الأول فضي والآخر نيلي، إنه البحر الأحمر الذي تسوره سلسلة ضخمة من جبال أتاكا وتحد أمامنا الأفق.

Journal d un voyage au Levant/ Tome III

يوميات رحلة إلى بلاد الشرق/ الجزء الثالث

○ ○ ○

بيير لوتي **Pierre Loti**

الصحراء في الغسق

وما لبث الفراغ اللامتناهي أن أحاطنا، والصحراء في الغسق وقد كستها الرياح القوية الباردة، وانبسطت بلونها الباهت الميت تحت سماء أكثر ظلمة منها، والتي كانت تبدو عند تخوم الأفق الدائري وكأنها قد انضمت إلى هذه الصحراء وسحقتها.

عند ذاك وعند رؤيتنا لها اجتاحنا نشوة ثملة، رعشة الوحدة، ورغبة في التوغل فيها، ورغبة غير واعية، رغبة جسدية إلى الجري في الريح نحو موقع قريب، لنرى من على بعد الامتداد الواسع الجذاب.

وكنا من على الهضبة التي قادنا إليها جرينا نرى من بعيد انسحاب آخر ضياء للنهار على الصحراء المتزايدة الاتساع يهبط من السماء الصفراء عبر تمزق يحدث ببطء في حجابها.

وها نحن أمام هذه الرياح القوية الشتوية، كان المكان من الحزن حتى أن سوداوية من أصل عريق وبعيد قد انضمت فجأة إلى جاذبية الفراغ، مما ولد لدينا إحساس بالندم على المجيء، ورغبة بالهرب، وشيء يشبه الخوف الغريزي الذي يجعل حيوانات البلاد تعود على أعقابها أمام مشهد هذه البقاع، حيث يحوم الموت، ومن ثم عدنا، وعندما كنا جالسين في خيامنا وفي منأى عن الريح وتحت الضياء وأثناء تناولنا

الأول عشاء بدويا، عادت البهجة الخالية من الهم إلينا، مع إحساس بالتعود على رؤية هذه العتبة الواسعة الصامتة حيث ينهي الغسق عملية انطفائه.

de Senai Le désert

صحراء سيناء

○ ○ ○

الفونس دو لامارتين **Alfonce de Lamartine**

العبور نحو الصحراء

عند شروق الشمس غادرنا ونحن في أتم استعداد دير جبل الكرمل وراهبيه الرائعين الاثنين، وسلكنا دروباً وعرة تنحدر من القمة إلى البحر. وهناك ولجنا الصحراء الممتدة بين بحر سورية التي كانت سواحلها عند هذا المكان منبسطة وترابية، تتخللها الخلجان الصغيرة، وبين الجبال التي تعقب جبل الكرمل، وتأخذ هذه الجبال بالانخفاض على نحو تدريجي غير محسوس كلما اقتربنا من الجليل، فتصبح صخورها سوداء جرداء، وغالباً ما تخترق الصخور قشرة الأرض وما بقي عليها من شجيرات، وأما هيئة الجبال فهي كئيبة معتمة، ولا تملك سوى غطاء من الضياء الساطع وعظمة الماضي المثالية التي تحيط بها.

وفي بعض الأحيان نجد السلسلة بعد ما يقارب العشرة فراسخ تقريباً قد انكسرت، وظهر للعيان واد صغير قليل العمق، وفي قاع هذا الوادي أو على سفحه يمكنك أن تميز على نحو واضح بقايا قصر محصن وقرية عربية كبيرة، حيث تنبسط أسفل جدران القصر، حين يرتفع دخان المنازل ويتعرج على امتداد سفوح الكرمل، ثمة صفوف طويلة من الجمال والماعز السود والأبقار الحمر تمتد من القرية إلى السهل الذي كنا نعبره، وهناك رجال عرب يمتطون الجياد مسلحين بالرماح، وملثمين بغطاء من الصوف الأبيض، كانت سيقانهم وأذرعهم عارية، وهم يسيرون على رأس قوافل الرعاة وجوانبها،

ويقتادون القطعان إلى عين المياه الوحيد الذي صادفناه منذ أربع ساعات.

كان سكان المدن الواقعة على ساحل البحر في الماضي هم الذين اكتشفوا وحفروا العيون، أما اليوم فقد هجر العرب كل هذه المدن منذ قرون، ولم يبق فيها سوى هذا الينبوع، وهم يقطعون هذه الرحلة التي تدوم ساعة أو ساعتين للحصول على الماء الكافي لإرواء قطعانهم.

سرنا النهار بأكمله على حطام الجدران وعلى الموزاييك الذي ينقب الرمل، وكانت الأطلال شواخص على الطريق، وتشهد على روعة وكثرة عدد سكان هذه السواحل في الأزمان الغابرة.

كنا نرى أمامنا منذ الصباح عاموداً ضخماً ينتصب أمامنا في الأفق على حافة البحر، تنعكس عليه أشعة الشمس، وكنا كلما تقدمنا يبدو وكأنه يكبر ويخرج من الأمواج، وعند اقترابنا منه علمنا أن هذا العامود كان كتلة غير واضحة الأطلال، ورائعة تعود إلى عصور مختلفة، فميزنا أولاً جداراً ضخماً يشبه بشكله ولونه وحجم بحارته أحد جوانب الكوليزة Colisee في روما. وكان هذا الجدار ذو العلو الشاهق ينتصب وحيداً مقوراً على كتلة من أطلال أخرى ذات عمارة إغريقية ورومانية، وما لبثنا أن اكتشفنا وراء هذا الجدار بقايا أنيقة مسننة بإتقان كما لو كانت دانتيلاً من الحجارة، تعود إلى صرح موريسكي، وهي إما كنيسة أو مسجد، أو لعلها الاثنان معاً، ومن ثم سلسلة من بقايا أخرى منتصبة، وفي وضع جيد لأبنية قديمة أخرى.

كان الطريق الرملي الذي نسلكه يقودنا قريباً من هذه البقايا العجيبة للماضي، ونحن الآن نجهل وجودها واسمها وتاريخها تماما. وعلى مبعدة نصف ميل من هذه المجموعة من الصروح، يرتفع ساحل البحر

ويتحول الرمل إلى صخور. وكانت هذه الصخور منحوتة في كل مكان بيد الإنسان على مسافة يبلغ محيطها ألف متر تقريباً، وكان ما نراه هو مدينة بدائية محفورة بالصخر قبل أن يتعلم الإنسان فن اقتلاع الحجارة من الأرض، وتشييد المساكن على سطحها. لقد كانت في الواقع واحدة من المدن الواقعة تحت الأرض التي يتحدث عنها التاريخ الأول، أو لعلها واحدة من المقابر الكبيرة، أو مدينة للأموات التي كانوا يحفرونها في كل اتجاهات الأرض أو الصخور على مشارف المدن الكبيرة للأحياء، ولكن الأشكال الصخرية، أو المغاور التي تخلو من الرقم المحفور على جوانبها كانت تدل حسب رأيي على مساكن الأحياء، وتكون هذه المغاور واسعة وأبوابها عالية، وهناك سلالم عديدة وواسعة تقود إلى هذه الأبواب، كما أن هناك نوافذ محفورة في هذه الصخور تسمح بدخول النور إلى هذه المساكن، وتطل هذه الأبواب وهذه النوافذ على شوارع شقت بعمق في أحشاء الرابية.

سلكنا العديد من هذه الشوارع العميقة الواسعة، حيث كانت الأخاديد تدل على آثار سير العجلات عليها.

كانت أسراب العقبان والكواسر وجموع لا تحصى من الزرازير تنطلق عند اقترابنا من مناطق الظل في هذه الصخور المحفورة، وهناك جنان مستقلة وأزهار حشيشية، وباقات من الآس والتين مدت جذورها في تراب هذه الشوارع الصخرية، وكست هذه الجادات الطويلة. وكنا نرى في بعض الأماكن سكانا من الأقدمين قد شقوا الرابية بالإزميل، وحفروا القنوات التي سمحت لمياه البحر بالمرور، ويمكن للعين أن ترى جزءاً من الخليج الذي كونته هذه الرابية خلف المدينة. إنه مشهد ذو طابع في غاية الجدة، فهو صارم وقاس

كالصخرة، وهو ضاحك ولامع مثل هذه الفجوات الجوية على زرقة البحر، ومثل هذه الغابات النباتية التي نمت من تلقاء نفسها في شقوق الغرانيت.

سرنا بعضا من الوقت في هذه الدهاليز العجيبة، وأخيراً وصلنا إلى أسفل الجدار العظيم والصروح الموريسكية التي كانت تنتصب أمامنا، وعند ذاك توقفنا للتشاور لحظة.

Memoire de L'Orient/ Tome 1

ذكريات من الشرق

○ ○ ○

بيير لوتي **Pierre Loti**

رياح الصحراء

بقيت الريح وحتى الساعة الثانية صباحاً تعصف بلا هوادة بمعسكرنا الصغير المتوحد وسط الفضاءات الفارغة، وتحركت خيامنا كما لو كانت أشرعة تطرطق، وفي الظلام كنا نشعر فوق رؤوسنا بقماش الخيمة يتحرك، وأفرشة المنام تهتز كما لو كنا في البحر خلال ليال رديئة الأحوال، وكانت الجمال تصرخ جميعها معاً على غرار الحيوانات المتوحشة.

ورغما عنا صرنا نفكر كم هي بلا قيمة المنازل البدوية المصنوعة من الكتان أمام لصوص الليل، وأمام جميع مفاجآت الصحراء، ففي وسط هذه الضجة واضطراب العتمات كم هو جائز أن تنقض أياد عليك، أو أن تحز رقبتك شفرة دون أن تكون قد سمعت بقدوم أحد إليك، ودون أن يكون أحد من رفاق طريقك الجالس في الخيمة المجاورة قد شك في أمر ما.

صعدت الشمس وأصبحت حارقة تضيء ناراً بيضاء تزداد جمالاً، وعلى الأرض نبت حصى صغير أسود وشرار من الميكا، إلا أننا لم نعد نعثر بعد ذلك على أي من المزروعات أو أي شيء، وبدأت المنطقة تصبح وعرة شبه جبلية، فكانت هناك أكوام من الحصى والأحجار قاحلة بلا فائدة، بدت وكأن أشكالها معقدة، وهي موجودة هنا على

حالها لم تتغير منذ قرون في الصمت ذاته، وفي روعة الضياء ذاتها، وكنا نغمض عيوننا عنوة تحت ضياء الشمس الباهر وللحظات طويلة جداً، وعندما عدنا لفتحها بدا الأفق القاسي مثل دائرة سوداء على الخلفية المضيئة للسماء، بينما احتفظ المكان الذي كنا فيه على بياضه المدهش، حيث كانت تتموج على شظايا الميكا المفضضة أقدام الدواب الضخمة المتأرجحة على الدوام.

وفي المساء اقتربنا من منطقة ذات قمم عالية، وفي اللحظة الحزينة كانت شمس الشتاء تمط فيها بظلالنا على نحو فاحش، وفي سيرك الرمال والأحجار نشرت الجبال التي كانت أمامنا، وفرة عجيبة من الألوان، فكانت بنفسجية قزحية عند قاعدتها، ووردية ندية عند قمتها، وقد ارتسمت بأكملها على الخلفية الرقراقة للسماء الخضراء، وكانت ظلال الأشياء وظلال أصغر الكثبان وأصغر الأحجار وظلالنا نحن تزداد طولا وتسير بالقرب منا على الرمال بأعدادها اللامتناهية، فبدونا وكأننا نمتطي إبلا ذات سيقان طويلة، أو دواباً لها قوائم طويلة ومع أن الليل بدأ بالحلول، إلا أننا لم نلحظ معسكرنا، ولم نعرف كم كانت طويلة رحلتنا اليوم.

حل الليل الآن مع أن الجبال هناك بقيت مضيئة محمرة حاوية على نار لا تزال متأججة، أما نحن فقد كنا في ظلام الوديان الصغيرة الحزينة الخالية من كل مظاهر الحياة، حيث كانت إبلنا التي لم نعد نتبين طريقها تتشكى، لا تعلم أين تضع أقدامها العريضة المترددة، أين هي إذن خيامنا هذا المساء؟

وبدا أن دليلنا لم يعد يتعرف على المكان، واستولى علينا قلق غامض ونحن وسط هذه العزلة التي لا حدود لها، وأخيراً وعند أحد منعطفات

الروابي رقصت أمامنا النيران والمشاعل الصفر، إنهم هناك جماعة من البدو الذي أتوا لملاقاتنا مع مصابيحهم، لقد أقاموا المعسكر هذه المرة في أحد الأماكن المختارة مسندين إياه إلى جدار صخري له شكل الحصن الموهوم لمواجهة المفاجئات الليلية، وقد أحسسنا عند دخولنا إلى خيامنا المصنوعة من أقمشة الكتان، وقد أضيئت داخلها المشاعل بأنها أكثر واقعية من وجودنا في منازلنا، وذلك لما وجدناه فيها من أرابسك مطرز، وسجاد شرقي مفروش على الأرض، فقد بدت تلك المنازل في عيوننا نحن الذين اعتدنا على ألوان العدم الحيادية، كما لو كانت قصوراً بدوية صغيرة.

في تلك الأثناء هبت الريح، إنها الريح ذاتها على ما يبدو التي ستهب كل مساء، فهي الهواء الذي تستنشقه الصحراء، وها هي بدأت تحرك أقمشة منازلنا الهزيلة المتجولة وسط الخراب والليل اللذين يحيطان بنا من كل جانب.

خرج عدد من الرجال من هذه الصخور وبدوا كحماة لنا، عدد من الرجال غير معروفين، لهم وجوه سود، وأسنان بيض، كانوا يطوفون في الظلمة حول نيراننا.

de Senai Le désert

صحراء سيناء

○○○

الفهرس

مقدمة الكتاب ٥

١) **لامارتين أو الباحثون عن الشمس** ١٧

٢) **وظيفة المؤلف في خطاب الرحلة** ٢١

٣) **السمات التمييزية في خطاب الرحلة** ٢٤

٤) **المشرقيات أو محطات الرحلة الوهمية** ٣٠

٥) **دور الليالي العربية في رسم صورة الشرق** ٣٥

٦) **حجاج الصحراء العربية** ٤٣

فولتي: **الجمل** ٥٣

غوستاف فلوبير: **رحلة إلى الصحراء** ٥٥

بول لنوار: **عرب الأردن** ٥٧

الفونس دو لامارتين: **القافلة** ٦٣

فولتي: **حياة البدوي العامة** ٦٥

بيير لوتي: **البدو** ٦٧

أوجين ميلشيور دو فوغويه: **البدو** ٧١

فولتي: **حكومة الصحراء** ٧٣

بول لنوار: **أناشيد البدو في الحرب** ٧٧

الكونتيسة دو غاسباران: **البدو** ٨٠

فرانسوا دو شاتوبريان: **عرب الصحراء** ٨١

فولتي: **البدو** ٨٤
بيير لوتي: **استراحة البدو** ٨٧
الفونس دو لامارتين: **اللصوص** ٩٠
فولتي: **الحياة العسكرية للبدو** ٩٤
بيير لوتي: **موسيقى البدو** ٩٧
الكونتيسة دو غاسباران: **إيمان البدو** ٩٩
أوجين ميلشيور دو فوغويه: **القبائل** ١٠٢
فولتي: **الحياة البدوية والدين** ١٠٤
الفونس دو لامارتين: **عائلة شرقية** ١٠٩
فولتي: **القبائل** ١١٣
غوستاف فلوبير: **وسط الصحراء** ١١٥
فرانسوا دو شاتوبريان: **وصف العربي** ١١٦
الكونتيسة دو غاسباران: **البدو** ١١٧
فرانسوا دو شاتوبريان: **لباس العربي** ١١٩
أوجين ميلشيور دو فوغويه: **العربي** ١٢١
الفونس دو لامارتين: **خان العربي** ١٢٢
الكونتيسة دو غاسباران: **حياة البدو** ١٢٣
فرانسوا دو شاتوبريان: **الحكايات عند العرب** ١٢٥
بيير لوتي: **ملابس العربي** ١٢٦
فرانسوا دو شاتوبريان: **مقارنة العربي بالأميركي** ١٢٧
الكونتيسة دو غاسباران: **زراعة البدو** ١٢٩
أوجين ميلشيور دو فوغويه: **مبارايات الجري عند عرب الصحراء** .. ١٣١

الفونس دو لامارتين: **بلد اللصوص** ١٣٣
بيير لوتي: **البدويات** ١٣٦
فرانسوا دو شاتوبريان: **العرب والاستبداد الشرقي** ١٣٨
أوجين ميليشيور دو فوغويه: **العربي** ١٤٢
الكونتيسة دو غاسباران: **ماء وصحراء لا ترحم** ١٤٣
بيير لوتي: **عطور الصحراء** ١٤٦
الفونس دو لامارتين: **عبور الصحراء** ١٤٩
فرانسوا دو شاتوبريان: **وحشة الصحراء** ١٥٢
الكونتيسة دو غاسباران: **ساحل البحر وضفة الصحراء** ١٥٤
بيير لوتي: **خبز وصحراء** ١٥٥
الفونس دو لامارتين: **صحراء** ١٥٧
فرانسوا دو شاتوبريان: **ملكة الصحراء** ١٥٩
بيير لوتي: **حدائق الصحراء** ١٦٢
غوستاف فلوبير: **رياح الخماسين** ١٦٤
الفونس دو لامارتين: **مشهد الصحراء العربية** ١٦٦
بيير لوتي: **دير وسط الصحراء** ١٦٧
الكونتيسة دو غاسباران: **سراب في الصحراء** ١٧١
فرانسوا دو شاتوبريان: **الصحراء خرسانة من الرعب** ١٧٢
الكونتيسة دو غاسباران: **ركوب الجمل** ١٧٣
الفونس دو لامارتين: **ليل الصحراء** ١٧٥
غوستاف فلوبير: **عبور الصحراء** ١٧٧
الكونتيسة دو غاسباران: **حياة الرحالة في الصحراء** ١٧٩

بول لنوار: **الصحراء** ١٨٠
فرانسوا دو شاتوبريان: **عبور الصحراء** ١٨٢
الكونتيسة دو غاسباران: **ينابيع الصحراء** ١٨٦
غوستاف فلوبير: **الصحراء** ١٨٨
الكونتيسة دو غاسباران: **نزهة الصحراء** ١٩٢
أوجين ميلشيور دو فوغويه: **التوراة بنت الصحراء العربية** ١٩٤
بيير لوتي: **مشهد الغيوم** ١٩٦
الكونتيسة دو غاسباران: **طبيعة الصحراء** ١٩٨
بول لنوار: **قلعة في الصحراء** ٢٠٢
بيير لوتي: **الواحة** ٢٠٧
فرانسوا دو شاتوبريان: **مغادرة الصحراء** ٢١١
الكونتيسة دو غاسباران: **مغادرة** ٢١٣
أوجين ميلشيور دو فوغويه: **الينبوع** ٢١٤
الكونتيسة دو غاسباران: **وادي أبو وردان** ٢١٦
بيير لوتي: **الصحراء في الغسق** ٢١٨
الفونس دو لامارتين: **العبور نحو الصحراء** ٢٢٠
بيير لوتي: **رياح الصحراء** ٢٢٤
الفهرس ٢٢٧

تائهـــون
في صحراء الإسلام

استقر الرحالة في القرن التاسع عشر حول الصحراء وما يتاخمها من المدن العربية الكبرى مثل: استنبول، القاهرة، بغداد، دمشق، القدس... الخ، فقد كان أكثرهم في القرون السالفة للقرن التاسع عشر يطوفون مع القوافل التي تجوب الصحارى العربية دون دليل أو نقطة محددة يرومون الوصول إليها، إنما الصدفة هي التي تقودهم في تتبع طرق مختلفة، ومسارب متنوعة من المجاهل الشرقية، وهنالك العديد من القصص والحكايات والمذكرات التي تدور عن الرحالة الذين يظلون الطريق أو الذين يضيعون في الصحارى والجبال، وهذا هو ما يجعل الرحالة مكتشفا لمجاهل عديدة، لولا الصدفة ما كان له الحصول عليها، إنه نوع من الاكتشاف العلمي الذي يقع على الخط النقيض من الرحلة الأدبية الرومانطيقية رحلات لامارتين، وشاتوبريان، وبيير لوتي، وفوربان، وفوغويه، وفلوبير، ودو غاسباران، ذلك لأن الأدباء الرومانطيقيين في القرن التاسع عشر كانوا يزورون المناطق ذاتها، والأماكن ذاتها، فتوفرت لدينا مجموعة هائلة من الملاحظات المختلفة عن الصحراء والبدوي وحياة البادية التي تخص رحالة مختلفين، لكنها تدور في أماكن واحدة وتنهل من مراجع واحدة.

الناشـــر

الغلاف: سندباد

السعر: ١٧٥ ل.س